فهذه اربعة اسباب موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء اصل الايمان نعم قد يقدم المذنب
بسبب خامس يقدح في اصل ايمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي
يحذره الطبيب تناول ما يضره في المرض وكان المحذر ممن لا يعتقد فيه انه عالم بالطب فيكذبه
او يشك فيه ولا يبالي به فهذا هو الكفر فان قلت فما علاج الاسباب الخمسة فاقول هو الفكر
وذلك بان يقرر على نفسه في السبب الاول وهو تاخر العقاب ان كل ما هو آت آت وان غدا
للناظر قريب وان الموت اقرب الى كل احد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والمتأخر
اذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه انه ابدا في دنياه يتعب في الحال لخوف امر في الاستقبال اذ يركب
البحار ويقاسي الاسفار لاجل الربح الذي يظن انه يحتاج اليه في ثاني الحال بل لو مرض لاخبره
نصراني طبيب بان شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الماء البارد الذ الاشياء
عنده تركه مع ان الموت المه لحظة اذا لم يخف ما بعده ومفارقته للدنيا لا بد منها فكم يكون نسبة
وجوده في الدنيا الى عدمه ازلا وابدا فلينظر كيف يبادر الى ترك ملاذه بقول ذمي نصراني لم يقم
معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي ان يكون الانبياء المؤيدون بالمعجزات دون نصراني لم يقم
معجزة لنفسه بلا معجزة ولا يشهد له الا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار اخف عندي من
عذاب المرض وكل يوم في الآخرة مقداره خمسين الف سنة من ايام الدنيا وبهذا التفكر
بعينه يعالج اللذة الغالبة ويكلف نفسه تركها ويقول اذا كنت لا اقدر على ترك لذاتي ايام
العمر وهي ايام قلائل فكيف اقدر على ذلك ابد الآباد واذا كنت لا اقدر على ترك لذاتي ايام الصبر
وهي ايام فكيف اطيق الم النار واذا كنت لا اصبر على زخارف الدنيا مع كدورتها وتنغصها وامتزاج
صفوها بكدرها فكيف اصبر عن نعيم الآخرة واما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في ان اكثر صياح
اهل النار من التسويف لان المسوف يبني الامر على ما ليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقي
فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال الا لغلبة الشهوة
والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف اذ تتاكد بالاعتبار فليست الشهوة ليست تفارقه غدا
بل تتضاعف اذ تتاكد بالاعتبار فليست الشهوة التي اكدها الانسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن
هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون ان الايام متشابهة في ان
ترك الشهوات فيها ابدا شاق وما مثال المسوف الا مثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع
الا بمشقة شديدة فقال اؤخرها سنة ثم اعود اليها وهو يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازدادت رسوخها

وهو كما طال غيره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا اعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة
ضعيف فاخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف واما المعنى الرابع
وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع امواله ويترك نفسه وعياله
فقرا منتظرا من فضل الله ان يرزقه العثور بكنز في ارض خربة فان امكان العفو عن الذنب
مثل هذا الامكان وهو مثل من توقع النهب من الظلمة في بلدة وذخاير امواله في صحن داره
وقدر على دفنها واخفائها فلم يفعل وقال انتظر من فضل الله ان يسلط غفلة على الظالم الناهب
حتى لا يتفرغ الى داري او مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكي في الاسما
ان مثل ذلك وقع فانا انتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر امر ممكن ولكنه في غاية الحماقة
واما الخامس وهو الشك فهذا كفر وعلاجه الاسباب التي تعرف صدق الرسل وذلك بطول
ولكن يمكن ان يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ما قاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات
هل صدقه ممكن او يقول اعلم انه محال كما اعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة
واحدة فان قال اعلم استحالته كذلك فهو اخرق معتوه وكانه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وان
قال انا شاك فيه فيقال لو اخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعاما في البيت لحظة انه
ولغت فيه حية والقت فيه سمها وجوزت صدقه فهل تاكله ام تتركه وان كان الذ الاطعمة
فيقول اتركه لا محالة لاني اقول ان كذب فلا يفوتني الا هذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا
فهو قريب وان صدق يفوتني الحيوة والموت بالاضافة الى الم الصبر عن الطعام واضاعته شديد
فيقال يا سبحان الله كيف تاخر صدق الانبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة
الاولياء والعلماء والحكماء بل جميع اصناف العقلاء ولست اعني بهم جهال العوام بل ذوي الالباب
عن رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء الا من صدق باليوم الآخر
واثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا في كيفيته فان صدقوا فقد اشرفت على عذاب يبقى ابد الآباد
وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف ان كان
عاقلا مع هذا الفكر اذ لا نسبة لمدة العمر الى ابد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوة بالذرة وقدرنا طايرا
يلتقط في كل الف الف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص من ابد الآباد شيء فكيف
يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تبقى ابد الآباد وذلك لا منتهى
له ولذلك قال ابو العلاء المعري قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الاموات قلت اليكما ان صح

قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما ولذلك قال علي ابن ابي طالب رضي الله عنه
لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الامور وكان شاكا ان صح ما قلت فقد تخلصنا جميعا
والا فقد تخلصنا وهلكت اي العاقل يسلك طريق الامن في جميع الاحوال فان قلت هذه
امور جلية ولكنها ليست تنال الا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر واستثقلته وما علاج
القلوب لردها الى الفكر لا سيما من آمن باصل الشرع وتفصيله فاعلم ان المانع من الفكر
امران احدهما ان الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة واهوالها وشدائدها وحسرات
العاصين في الحرمان عن النعيم وهذا فكر لذاع مولم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر
في امور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة والثاني ان الفكر شغل في الحال مانع من
لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من انسان الا وله في كل حالة من احواله ونفس من انفاسه
شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخر الشهوة فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت
لذته في طلب الحيلة فيه او في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك واما علاج
هذين المانعين فهو ان يقول لقلبه ما اشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما
بعده تألما بذكره مع استحقار الم مواقعته وكيف تصبر على مقاساته اذا وقع وانت عاجز عن
الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به واما الثاني وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا
هو ان يتحقق ان فوات لذات الآخرة اشد واعظم فانها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات
الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي
التوبة عن المعاصي والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته
وطول الانس ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله الا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح [illegible]
الله لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء
التوبة ولكن يصبر عليه مدة مديدة وقد يصير الخير دينا كما كان الشر دينا فالنفس قابلة ما
عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة فاذا هذه الافكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر
عن اللذات ومهيج هذه الافكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب باسباب تتفق لا تدخل
في الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب اليه ويعبر عن السبب الذي اوقع الموافقة
بين الطبع وبين الفكر الذي هو سبب الخير توفيقا اذ التوفيق هو التاليف بين الارادة وبين
المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روي في حديث طويل انه قام عمار بن ياسر فقال

يا امير المومنين لعلى ابن ابي طالب رضي الله عنه اخبرنا عن الكفر على ما ذا بني فقال ربع دعايم على
الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي
نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الاماني واخذته الحسرة والندامة وبدا له من
الله ما لم يكن يحتسب فيما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة المانعة عن التفكر وهذا
القدر كاف في التوبة واذ كان الصبر ركنا من اركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر
فلنذكره في كتاب مفرد ان شاء الله تعالى والحمد
لله حق حمده والصلوة على نبيه سيدنا محمد وآله
واصحابه اجمعين وسلم تسليما دايما ابدا
م

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله اهل الحمد والثناء المتفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المويد صفوة
الانبياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء والصلوة على محمد سيد الانبياء
وعلى اصحابه سادة الاصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلوة محروسة بالدوام عن الفناء
ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء وسلم اما بعد فان الايمان نصفان
نصف صبر ونصف شكر كما وردت به الآثار وشهدت له الاخبار وهما ايضا وصفان
من اوصاف الله تعالى واسمان من اسمائه الحسنى اذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة
الصبر والشكر جهل بكلا شطري الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من اوصاف الرحمن
ولا سبيل الى الوصول الى القرب من الله تعالى الا بالايمان وكيف يتصور سلوك سبيل
الايمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد
عن معرفة من به الايمان وعن ادراك ما به الايمان فما احوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان
ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط احدهما بالآخر الشطر الاول في الصبر وفيه
بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصفا للايمان وبيان اختلاف اساميه
باختلاف اساميه باختلاف متعلقاته وبيان اقسامه بحسب اختلاف الضعف والقوة
وبيان مظان الحاجة الى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول
تشتمل على جميع مقاصده بيان فضيلة الصبر قد وصف الله تعالى الصابرين باوصاف وذكر الصبر
في القرآن في نيف وسبعين موضعا واضاف اكثر الخيرات والدرجات الى الصبر وجعلها ثمرة
له فقال عز من قايل وجعلنا منهم ايمة يهدون بامرنا لما صبروا وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل
بما صبروا وقال تعالى ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون وقال تعالى اولئك
يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب فما من
قربة الا واجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولاجل كون الصوم من الصبر فانه نصف الصبر
وقال تعالى الصوم لي وانا اجزي به فاضافه الى نفسه من ساير العبادات ووعد الصابرين
بانه معهم فقال واصبروا ان الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال بلى ان تصبروا وتتقوا

ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وجمع للصابرين
بين امور لم يجمعها لغيرهم فقال اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون
والهدى والصلوات والرحمة مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول
واما الاخبار فقال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان على ما سياتي وجه كونه نصفا
وقال صلى الله عليه وسلم من اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن اعطي حظه منهما لم يبال
ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولان يصبروا على مثل ما انتم عليه احب الي من ان
يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني اخاف ان يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر
بعضكم بعضا وينكركم اهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرا قوله
تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون
وروى جابر رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقال
ايضا صلى الله عليه وسلم الصبر كنز من كنوز الجنة وسئل مرة ما الايمان فقال الصبر وهذا يشبه
قوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقال ايضا صلى الله عليه وسلم الصبر كنز من كنوز الجنة وسئل
افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس وقال اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق
باخلاقي وان من اخلاقي اني انا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما
لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال امؤمنون انتم فسكتوا فقال عمر رضي
نعم يا رسول الله فقال وما علامة ايمانكم فقالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضا
فقال عليه السلام مؤمنون انتم ورب الكعبة وقال عليه السلام في الصبر على ما تكره خير كثير
وقال المسيح صلى الله عليه وسلم انكم لا تدركون ما تحبون الا بصبركم على ما تكرهون وقال عليه الصلوة
والسلم لو كان الصبر رجلا لكان رجلا كريما والله يحب الصابرين والاخبار في هذا مما لا يحصى
واما الآثار فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري عليك
بالصبر واعلم ان الصبر صبران احدهما افضل من الآخر الصبر في المصيبات حسن وافضل منه
الصبر عن ما حرم الله تعالى واعلم ان الصبر ملاك الايمان وذلك بان التقوى افضل البر والتقوى
بالصبر وقال علي رضي الله عنه بني الايمان على اربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال
ايضا رضي الله عنه الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد ولا جسد لمن لا راس له ولا ايمان
لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول نعم العدلان ونعمت العلاوة الصابرين يعني بالعدلين

الصلوات والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة ما يحمل فوق العدلين علي البعير واشار بهم الي قوله
تعالي اوليك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واوليكهم المهتدون وكان حبيب بن ابي حبيب اذا
قرا هذه الاية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب بكى وقال واعجبا اعطى واثنى اي هو المعطي
للصبر وهو المثنى وقال ابو الدردا رضي الله عنه ذروة الايمان الصبر للحكم والرضى بالقدر هذا بيان
فضيلة الصبر من حيث النقل اما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا يفهمه الا بعد فهم حقيقة
الصبر ومعناه اذ معرفة التفضيل والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر
حقيقته ومعناه بيان حقيقة الصبر ومعناه اعلم ان الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل
من منازل السالكين وجميع مقامات الدين انما ينتظم من ثلثه امور معارف واعمال واحوال فالمعارف
هي الاصول وهي تورث الاحوال والاحوال تورث الاعمال فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان
والاعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع اعمال منازل السالكين الي الله واسم الايمان تارة يختص
بالمعارف وتارة يطلق علي الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الايمان والاسلام في كتاب قواعد
العقايد وكذلك الصبر لا يتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قايمة فالصبر علي التحقيق عبارة عنها
والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا الا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملايكة والانس والبهايم
فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك في البهايم والملايكة اما في البهايم فلنقصانها
واما في الملايكة فللكمال وبيانه ان البهايم سلطت عليه الشهوات وصارت مسخرة لها ولا باعث
لها علي الحركة والسكون الا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى
يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا واما الملايكة فانهم جردوا للشوق الي
الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم يسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى
يحتاج الي مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند اخر يغلب الصوارف واما الانسان فانه
خلق في ابتدا الصبي ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذا الذي هو محتاج اليه
ثم يظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح علي الترتيب وليس له قوة الصبر علي المرتب
البته اذ الصبر عبارة علي ثبات جند في مقابلة جند اخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضيهما
ومطالبهما وليس في الصبي الا جند الهوى كما في البهايم ولكن الله بفضله وسعة جوده اكرم
بني ادم ورفع درجتهم عن درجة البهايم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين احدهما
يهديه والاخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهايم واختص بصفتين احدهما معرفة الله ومعرفة

رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي اليه الهداية
والتعريف والبهيمة لا معرفة لها ولا هداية الى مصلحة العواقب بل الى مقتضى شهوتها في الحال
فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ فاما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه
فصار الانسان بنور الهداية يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة
ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم يكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان
كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر الى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات
فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله به ملكا آخر يسدده ويؤيده
ويقويه بجنود لم تروها وامر هذا الجند بقتال جنود الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة
يقوى وذلك بحسب امداد الله عبده بالتأييد كما ان نور الهداية ايضا يختلف في الخلق اختلافا
لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا
دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم ان القتال قائم بين باعث
الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين
من الملائكة الناصرين لحزب الله ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى
فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر
على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة
ولم يصبر في دفعها التحق باتباع الشياطين فاذا ترك الافعال المشتهاة عمل يثمرها حال تسمى
الصبر وهو ثبات باعث الدين حال يثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب
السعادات في الدنيا والآخرة فاذا قوي يقينه اعني المعرفة التي تسمى ايمانا وهو اليقين
بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله قوي ثبات باعث الدين واذا قوي ثباته تمت الافعال
على خلاف ما يتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة
وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان
بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيره اياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الموكلان
بكل شخص من الآدميين واذ عرفت ان رتبة الملك الموكل الهادي اعلى من رتبة الملك المقوي
لم يخف عليك ان جانب اليمين الذي هو اشرف الجانبين من جنبتي الدست ينبغي ان يكون
مسلما له فهو اذا صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال وللعبد طوران في الغفلة والفكر

وبالاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء اليه فيكتب اعراضه سيئة
وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب له حسنة وكذي بالاسترسال
هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء اليه فيكتب عليه سيئة وبالمجاهدة
مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما تثبت هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا
كراما كاتبين اما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولان الملائكة كلهم كرام بررة واما الكاتبون
فلاثباتهما الحسنات والسيئات وانما يكتبان في صحايف مطوية في سر القلب ومطوية عن
سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحايفهما وجملة ما يتعلق بهما
من عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة وشيء من عالم الملكوت لا تدركه الابصار في هذا
العالم ثم تنشر هذه الصحايف المطوية عنه مرتين مرة في القيمة الصغرى ومرة في القيمة الكبرى
واعني بالقيمة الصغرى حالة الموت اذ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه من مات فقد قامت
قيامته وفي هذه القيمة يكون العبد وحده وعنده يقال له ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم
اول مرة وفيها يقال كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا اما في القيمة الكبرى الجامعة لكافة الخلايق
لا يكون وحده بل ربما حاسب على ملأ من الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة والمجرمون الى
النار زمرا لا آحادا والهول الاول هو هول القيمة الصغرى ولجميع اهوال القيمة الكبرى نظير في
القيمة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فان ارضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم ان
الزلزلة اذا نزلت ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت ارضهم وان لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل
لو زلزل مسكن الانسان وداره فقد حصلت الزلزلة في حقه لانه انما يتضرر عند زلزلة جميع
الارض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان واعلم
انك ارض مخلوقة من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فاما بدن غيرك فليس حظك
والارض التي انت جالس عليها بالاضافة الى بدنك ظرف ومكان انما تخاف من تزلزله ان يتزلزل
بدنك بسببه والا فالهواء ابدا متزلزل وانت لا تخشاه اذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة
الارض كلها زلزلة بدنك فقط فهي ارضك وترابك الخاص وعظامك جبال ارضك وراسك سماء
ارضك وقلبك شمس ارضك وسمعك وبصرك وساير حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من
بدنك بحر ارضك وشعورك نبات ارضك واطرافك اشجار ارضك وهكذا الى جميع اجزائك فاذا
انهدم بالموت اركان بدنك فقد زلزلت الارض زلزالها فاذا انفصل العظام من اللحوم فقد

حملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمّت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا
فاذا اظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا ابطل سمعك وبصرك وساير حواسّك
فقد انكدرت النجوم انكدارا فاذا تشعق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجر
من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت احدي ساقيك بالاخرى وهما
مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا فاذا فارق الروح الجسد فقد حملت الارض ومدّت
حتى القت ما فيها وتخلت ولست اطوّل بموازنة جميع الاهوال والاحوال ولكني اقول بمجرد الموت
يقوم عليك هذه القيمه ولا يفوتك من القيمه الكبرى شئ مما يخصّك بل يخص غيرك فان بقاء الكوكب
في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالكواكب والاعمى يستوي عنده الليل
والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لانه قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصّته منها
فالانجلاء بعده لكل حصّة غيره ومن انشقت راسه فقد انشقت سماؤه اذ السماء عبارة عما يلي
جهة الراس فمن لا راس له لا سماء له فمن اين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي الصاخة الصغرى
والخوف بعد اسفل والهول بعد منتظر وذلك اذ اجاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت
السموات والارض ونسفت الجبال نسفا وتمت الاهوال واعلم ان هذه الصغرى وان طولنا
في وصفها فانا لم نذكر عشر عشير اوصافها فهي بالنسبة الي القيمة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة
الي الولادة الكبرى فان للانسان ولادتين احديهما الخروج من الصلب والترايب الي مستودع
الارحام وهو في الرحم في قرار مكين الي قدر معلوم وله في سلوكه الى الكمال منازل واطوار
من نطفة وعلقة ثم مضغة وغيرها الى ان يخرج من ضيق الرحم الي فضاء العالم فنسبة عموم
القيمه الكبرى الى خصوص القيمه الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم الى سعة فضاء الرحم ونسبه
سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت الي سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا كنسبة
فضاء الدنيا ايضا الي الرحم بل اوسع واعظم فقس الاخرة بالاولي ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة
وما النشاة الثانيه الا على قياس النشاة الاولي بل اعداد النشاة ليست محصورة في اثنين
واليه الاشارة بقوله وننشيكم فيما لا تعلمون فالمقر بالقيمتين مومن بعالم الغيب والشهادة وموقن
بالملك والملكوت والمقر بالقيمه الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الي احد العالمين وذلك هو
الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الضال الدجال فما اعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك
المسكين وبين يديك هذه الاهوال فان كنت لا تومن بالقيمة الكبرى بالجهل والضلال فلا مكفنك

القيمة الصغرى اوما سمعت بكربه صلى الله عليه وسلم في وقت الموت حتى قال هون على سكرات الموت
اوما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء بالرعاع الغافلين الذين لا ينتظرون الا صيحة
واحدة تاخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون فياتيهم المرض نذيرا من
الموت فلا ينزجرون وياتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما ياتيهم من رسول
الا كانوا به يستهزءون افيظنون انهم في الدنيا خالدون الم يروكم اهلكنا قبلهم من القرون انهم
اليهم لا يرجعون ام يحسبون ان الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ان كل لما جميع لدينا
محضرون ولكن ما ياتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وذلك لانا جعلنا من بين
ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون
ولنرجع الى الغرض فان هذه تلويحات تشير الى امور هي اعلى من علوم المعاملة فنقول قد ظهر ان الصبر
عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصية الآدميين
لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين اذ ذكرنا ان الحسنة في
الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل الى الاستفادة
فلا يتصور منهما اقبال واعراض وهما لا يكتبان الا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال
والاعراض ولعمري يظهر مبادي اشراق نور الهداية عند سن التمييز وينمو على التدريج الى سن
البلوغ كما يبدو نور الصبح الى ان يطلع قرن الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة
بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب في الآخرة ولا يكتب [illegible] من صحائف
ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام
البررة الاخيار ان يكتب على الصبي سيئة وحسنة على صحيفة قلبه فيكتبه [illegible] بالحفظ ثم
عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث اخلاق
الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالها الملائكة فيكون
مع النبيين والصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم انا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة
اعلم ان الايمان تارة يختص في اطلاقه بالتصديقات
باصول الدين وتارة يختص بالاعمال الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف ابواب
وللاعمال ابواب ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه
الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين

وعلى مقتضى اطلاقين احدهما ان يطلق على التصديقات والاعمال جميعا فيكون للايمان
ركنان احدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تع
عبده الى اصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة
والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر وهو استعمال باعث
الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث الى آخره. الاعتبار
الثاني ان يطلق على الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد
الى ما ينفعه في الدنيا والآخرة او يضره فيهما وله بالاضافة الى ما يضره حال الصبر وبالاضافة الى ما
ينفعه حال الشكر فيكون الشكر احد شطري الايمان بهذا الاعتبار كما كان اليقين احد الشطرين
بالاعتبار الاول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر
وقد يرفع ايضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن بواعث الهوى بثبات باعث الدين
وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ
والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهو شهوة البطن والفرج
دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر لان كمال الصبر بالصبر
عن داعي الشهوة وداعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان فهكذا ينبغي
ان يفهم تقديرات الشرع لحدود الاعمال والاحوال ونسبتها الى الايمان والاصل فيه ان يعرف
كثرة ابواب الايمان وان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة **بيان الاسامي التي تتجدد للصبر
بالاضافة الى ما عنه الصبر** اعلم ان الصبر ضربان ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه
وهو اما بالفعل كتعاطي الاعمال الشاقة اما من العبادات او غيرها واما بالاحتمال كالصبر على الضرب
الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع ولكن المحمود
التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب
ان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي عفة وان كان على احتمال مكروه فقد اختلفت
اساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم
الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت
وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده

حالة تسمى البطر وان كان في حرب ومقاتلة تسمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان في كظم الغيظ
والغضب سمي حلما ويضاده التذمر وان كان في نايبة من نوايب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر
ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان في اخفا كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه
كتوما وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا علي قدر يسير من
الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فاكثر اخلاق الايمان داخل في الصبر ولذلك لما سيل صلعم
الحج عرفة من عظم الايمان قال هو الصبر لانه اكثر اعماله واعزها كما قال صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقد
جمع الله تعالي اقسام ذلك وسمي الكل صبرا فقال تعالي والصابرين في الباساء اي المصيبة والضراء
اي الفقر وحين الباس اي المحاربة اوليك الذين صدقوا واوليك هم المتقون فاذا هذه اقسام الصبر
باعتبار متعلقاتها ومن ياخذ المعاني من الاسامي يظن ان هذه احوال مختلفة في ذواتها وحقايقها
من حيث راي الاسامي مختلفة والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله عز وجل يلحظ المعاني
اولا فيطلع علي حقايقها ثم يلاحظ الاسامي فانها وضعت دالة علي المعاني فالمعاني هي الاصول
والالفاظ هي التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لابد ان يزل والي الفريقين الاشارة بقوله
افمن يمشي مكبا علي وجهه اهدي امن يمشي سويا علي صراط مستقيم فان الكفار لم يغلطوا فيما
غلطوا فيه الا بمثل هذه الانعكاسات بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
اعلم ان باعث الدين بالاضافة الي باعث الهوي له ثلثة احوال احدها ان يقهر داعي الهوي فلا يبقي
له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الي هذه الرتبة
هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهولاء لازموا الطريق
المستقيم واستووا علي الصراط القويم واطمانت نفوسهم علي مقتضى بواعث الدين واياهم ينادي
المنادي يا ايتها النفس المطمينة ارجعي الي ربك راضية مرضية الحالة الثانية ان تغلب دواعي
الهوي ويسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الي جند الشيطان ولا يجاهد ليأسه
عن المجاهدة وهولاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم
شقوتهم فحكموا اعداء الله في قلوبهم التي هي سر من اسرار الله تعالي وامر من امور الله واليهم الاشارة
بقوله تع ولو شينا لاتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين
وهولاء هم الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالاخرة فخسرت صفقتهم ويقال لمن قصد ارشادهم فاعرض
عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وهذه الحالة علامتها الياس والقنوط

او الغرور بالاماني وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت
والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال اني مشتاق الى
التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست اطمع فيها او لم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال ان الله غفور
رحيم كريم فلا حاجة به الى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله الا
في استنباط دقايق الحيل التي بها يتوصل الى قضاء شهواته فقد صار عقله في يد شهوته
كمسلم اسير في ايدي الكفار يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند
الله محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله اسيرا عندهم لان تفاحش جنايته سببه انه
سخر ما كان حقه ان يستسخر وسلط ما كان حقه ان يتسلط عليه وانما استحق المسلم ان
يكون متسلطا لما فيه من معرفة الدين وباعث الدين وانما استحق الكافر ان يكون متسلطا
عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشيطان وحق المسلم على نفسه اوجب من حق غيره
عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله تعالى وجند الملايكة للمعنى الخسيس الذي
من حزب الشيطان المبعد عن الله تعالى كان كمن ارق مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك المنعم
عليه فاخذ اعز اولاده وسلمه الى ابغض اعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته
لان الهوى ابغض الدعبد في الارض عند الله والعقل اعز موجود خلق في الارض الحالة الثالثة
ان يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين
بعد لا من الظافرين واهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب
عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق اليه ايضا ثلثة احوال باعتبار عدد ما يصبر
عنه فانه اما ان يغلب جميع الشهوات او لا يغلب شيئا منها او يغلب بعضها دون بعض وتنزيل
قوله تعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض اولى والتاركون
للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم اضل اذ البهيمة لم يخلق لها المعرفة
والقدرة التي بهما يجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له وعطله فهو الناقص حقا
المدبر يقينا ولذلك قيل ولم ار في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام وينقسم
الصبر ايضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب
شديد ويسمى ذلك تصبرا والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى تحامل على النفس ويخص
ذلك باسم الصبر واذا دام التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك

قال تعالى فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل
القوي يقدر على ان يصرع الضعيف بادنى حملة وايسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته اعياء ولا لغوب
ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على ان يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق
جبين فهكذي تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود
الملائكة وجنود الشيطان ومهما اذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى
وتيسر الصبر بطول المواظبة اورث ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرضى اعلى من
الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اعبد الله على الرضى فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير قال
بعض العارفين اهل الصبر على ثلاث مقامات اولها ترك الشكوى وهذه درجة التائبين والثاني
الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين والثالث المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين
وسنبين في كتاب المحبة ان مقام المحبة اعلى من مقام الرضا كما ان مقام الرضى اعلى من مقام
الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا واعلم ان الصبر
ايضا ينقسم باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم فالصبر عن المحظورات فرض وعن
المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن يقطع يده او يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن
يقصد حرمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر على اظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على اهله
فهنا هو الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على اذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع
محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغي ان يخيل اليك ان جميعه محمود بل المراد به انواع من
الصبر مخصوصة

بيان مظان الحاجة الى الصبر وان العبد لا يستغني عنه في حال من الاحوال

اعلم ان جميع ما يلقى العبد في هذه الحيوة لا يخلو من هذين نوعين احدهما هو الذي يوافق هواه
والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الاحوال
لا يخلو عن احد هذين النوعين او كليهما فهو ايضا لا يستغني قط عن الصبر

النوع الاول

ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع
والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما احوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم تضبط نفسه
عن الاسترسال والركون اليها والانهماك في ملاذها المباحة منها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان
فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي
لا يصبر عليها الا صديق وقال سهل الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء ولما فتحت اموال الدنيا

علي الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر
الله تعالي عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالي يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم
عن ذكر الله وقال تعالي ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم قال صلى الله عليه وسلم الولد مجبنة مبخلة ولما
نظر الي ولده الحسين عليه السلام يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صلى الله عليه وسلم صدق الله تعالى
انما اموالكم واولادكم فتنة اني لما رايت ابني يتعثر لم املك نفسي ان اخذته ففي ذلك عبرة لاولي الابصار فان
الرجل كل الرجل من يصبر علي العافية والصبر عليها ان لا يركن اليها ويعلم ان كل ذلك مستودع عنده
وعسى ان يسترجع علي القرب وان لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب
وان يرعى حقوق الله في ماله بالانفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق وكذلك في
سائر ما انعم عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر كما سيأتي وانما كان الصبر
علي السراء اشد لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة ان لا يقدر والصبر علي الحجامة والفصد اذا تولاه غيرك
ايسر من الصبر علي فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام اقدر علي الصبر منه اذا حضرته
الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء النوع الثاني ما لا يوافق الهوى
والطبع وذلك لا يخلو اما ان يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي او لا يرتبط باختياره كالمصائب
والنوائب او لا يرتبط اوله باختياره ولكن له اختيار في ازالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه
ثلاثة اقسام القسم الاول ما يرتبط باختيار العبد وهو سائر افعاله التي توصف بكونها طاعة او معصية
وهما ضربان الاول الطاعة والعبد يحتاج الي الصبر عليها فالصبر علي الطاعة شديد لان النفس
بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس الا وهي مضمرة
ما اظهره فرعون من قوله انا ربكم الاعلي ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فاظهره اذ استخف قومه فاطاعوه
وما من احد الا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه واتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وان كان
ممتنعا من اظهاره فان امتعاضه وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر
الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء فاذا العبودية شاقة علي النفس مطلقا ثم من
العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلوة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكوة ومنها ما يكره بسببهما
جميعا كالحج والجهاد فالصبر علي الطاعة صبر علي الشدائد ويحتاج المطيع الي الصبر علي طاعته في
ثلث احوال الاولي قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي
الآفات والعزم علي الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص

وآفات الرياء ومكايد النفس وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم اذ قال انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى
وقال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وبهذا المعنى قدم الله الصبر على العمل فقال الا
الذين صبروا وعملوا الصالحات الحالة الثانية حالة العمل كيلا تغفل عن الله في اثناء عمله ولا يتكاسل
عن تحقيق ادابه وسننه ويدوم على شرط الادب الى الآخر فيلازم الصبر عن دواعي الفتور الى الفراغ
وهذا ايضا من شدايد الصبر ولعله المراد بقوله نعم اجر العاملين الذين صبروا اي صبروا الى تمام
العمل الحالة الثالثة بعد الفراغ عن العمل اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء
والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط اثره كما قال تعالى ولا تبطلوا اعمالكم وكما
قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد ابطل
عمله والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج الى الصبر عليهما وقد جمعهما الله في قوله ان الله يامر
بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذي القربى
هو المروة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى صبر الضرب الثاني المعاصي فما احوج العبد الى الصبر
عنها وقد جمع الله انواع المعاصي في قوله تعالى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وقال عليه الصلوة والسلم
المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصي مقتضى بواعث الهوى واشد انواع
الصبر على المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مالوفة بالعادة فان العادة طبيعة خامسة
فاذا انضافت الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله فلا يقوى باعث
الدين على قمعها ثم ان كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه اثقل على النفس كالصبر
عن معاصي اللسان من الغيبة والمراء والكذب والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وانواع المزاح
المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح
فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم فان ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس
فالنفس فيه شهوتان احديهما نفي الغير والاخرى اثبات نفسه وبهما تتم له الربوبية التي في طبعه
وهي ضد ما امر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر حركة اللسان ومصير ذلك معتادا
في المحاورات يعسر الصبر عنها حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكررها
وعموم الانس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول
النهار في اعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر ان الغيبة اشد من الزنا ومن لم يملك
لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر وجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد

اهون من الصبر على السكوت مع المخالطة ويختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية
في قوتها وضعفها وايسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس
في العزلة ولا يمكن الصبر عنه اصلا الا بان يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن اصبح وهمومه
هم واحد والا فان لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس القسم الثاني ما لا يرتبط
هجومه باختيار العبد وله اختيار في دفعه كما لو اوذي بفعل او قول وجني عليه في نفسه او ماله فالصبر
على ذلك بترك المكافاة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة رضي الله عنهم ما كنا نعد
ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون
وقسم النبي صلى الله عليه وسلم مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما اريد بها وجه الله تعالى
فاخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجهه ثم قال يرحم الله اخي موسى فقد اوذي باكثر من هذا
فصبر وقال تعالى ودع اذاهم وتوكل على الله وقال تعالى واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وقال تعالى
ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وقال تعالى ولتسمعن من الذين
اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور اي
تصبروا عن المكافاة ولذلك مدح الله العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال وان عاقبتم
فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال صلى الله عليه وسلم صل من قطعك واعط
من حرمك واعف عمن ظلمك ورايت في الانجيل قال عيسى عليه السلام لقد قيل لكم من قبل ان
السن بالسن والانف بالانف وانا اقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن
فحول اليه الخد الايسر ومن اخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرك ليسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل
ذلك امر بالصبر على الاذى فالصبر على اذى الناس من اعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه على باعث الدين
باعث الشهوة والغضب جميعا القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار اوله وآخره كالمصايب مثل
موت الاعزة وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وفساد الاعضاء وعمى العين وبالجملة فسائر
انواع البلاء والصبر على ذلك من اعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضي الله عنه الصبر في القرآن
على ثلثة اوجه صبر على اداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله سبحانه وله ستمائة
درجة وصبر في المصيبة عند الصدمة الاولى وله تسعمائة درجة وانما فضلت هذه الرتبة مع انها
من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لان كل مؤمن يقدر على الصبر عن محارم الله سبحانه
فاما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه الا ببضاعة الصديقين فان ذلك شديد على النفس ولذلك

قال صلى الله عليه وسلم اسئلك من اليقين ما تهون به علي مصايب الدنيا فهذا صبر مستند
حسن اليقين وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالي اذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني
الي عواده ابدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فان ابراته ابراته ولا ذنب عليه وان توفيته
فالي رحمتي وقال داود عليه السلم يا رب ما جزاء الحزين يصبر علي المصايب ابتغاء مرضاتك
قال جزاوه ان البسه لباس الايمان فلا انزعه عنه ابدا وقال ابو سليمان والله لا نصبر علي ما نحب
فكيف نصبر علي ما نكره وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالي اذا وجهت الي عبد من عبيدي
مصيبة في ماله او بدنه او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيمة ان انصب
له ميزانا او انشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال ايضا من اصيب
بمصيبة فقال كما امر الله تعالي انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني
خيرا منها فعل الله ذلك به وقال انس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قال يا جبريل
ما جزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا قال جزاوه الخلود في داري والنظر
الي وجهي وقال عمر بن عبد العزيز ما انعم الله علي عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر
الا كان ما عوضه منها افضل مما انتزع منه وقرا انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب
وسيل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضي لا يتمني
فوق منزلته وقيل حبس الشبلي رحمة الله عليه في المارستان فدخل عليه جماعة فقال من
انتم قالوا احبابك جاوك زايرين فاخذ يرميهم بالحجارة فاخذوا يهربون فقال لو كنتم احبابي
لصبرتم علي بلايي وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان
فيها واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ويقال ان امراة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها
فضحكت فقيل لها اما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه ازالت عن قلبي مرارة وجعه
وقال داود لسليمان عليهما السلم يستدل علي المومن بثلث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن
الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات قال صلى الله عليه وسلم من اجلال الله ومعرفته حقه
الا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ويروي عن بعض الصالحين انه خرج يوما وفي كمه صرة
فافتقدها فاذا هي اخذت من كمه فقال بارك الله له لعله احوج اليها مني وروي عن بعضهم
الصالحين انه قال مررت على سالم مولي ابي حذيفه في القتلي وبه رمق فقلت له اسقيك
ماء فقال جرني قليلا الي العدو واجعل الماء في الترس فاني صايم فان عشت الي الليل

شربته فهكذا كان صبر سالكي طريق الاخرة على بلاء الله تعالى فان قلت فبماذا ينال درجة الصبر
في المصايب وليس الامر الى اختياره فهو مضطر شاء ام ابى فان كان المراد به ان لا يكون في نفسه
كراهية في المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار فاعلم انه انما يخرج عن مقام الصابرين
بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس
والمفرش والمطعم وهذه الامور داخلة تحت اختياره فينبغي ان يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء
الله ويبقى على عادته مستمرا ويعتقد ان ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روي عن الرميصاء ام
سليم انها قالت توفي ابن لي وزوجي ابو طلحة غايب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم ابو طلحة
فقمت فهيأت له افطاره فجعل ياكل فقال كيف الصبي فقلت باحسن حال بحمد الله فانه لم يكن
منذ اشتكى خيرا منه الليلة ثم تصنعت له احسن ما كنت اتصنع قبل ذلك حتى اصاب مني حاجته
ثم قلت الا تعجب من جيراننا قال وما لهم قلت اعيروا عارية فلما طلبت منهم جزعوا فقال بئس ما صنعوا
فقلت هذا ابنك عارية من الله قبضه اليه فحمد الله واسترجع ثم غدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال اللهم بارك لهم في ليلتهم قال الراوي فلقد رايت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة اولاد كلهم
قد قرأ القرآن وروى جابر رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال رايتني دخلت الجنة فاذا انا
بالرميصاء امرأة ابي طلحة وقد قيل الصبر الجميل هو ان لا يعرف من صاحب المصيبة اد شبه
غيره ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع على الميت فان ذلك
مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان الى الموت ولذلك لما مات ابرهيم ولد رسول الله صلعم
فاضت عيناه فقيل له اما نهيتنا عن هذا فقال ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده
الرحماء بل ذلك ايضا لا يخرج من مقام الرضا فالمقدم على الفصد والحجامة راض به وهو متالم
بسببه لا محالة وقد تفيض عينه اذا عظم المه وسياتي ذلك في كتاب الرضا وكتب ابن ابي نجيح
يعزي بعض الخلفاء فكتب ان احق من عرف حق الله فيما اخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما
ابقاه واعلم ان الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو الماجور فيك واعلم ان اجر الصابرين
فيما يصابون به اعظم من النعمة عليهم فيما يعافون فيه فاذا مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله عليه
بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وساير المصايب وقيل
من كنوز البر كتمان المصايب والاوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات ان وجوب
الصبر عام في جميع الاحوال والافعال فان الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني

عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا تسكن
واكثر جولان الخاطر انما يكون في فايت لا تدارك له او في مستقبل لا بد ان يحصل منه ما هو مقدر فهو
كيف ما كان تضييع الزمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا اعقل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد
به انسا بالله عز وجل او عن فكر يستفيد به معرفة بالله ليستفيد بالمعرفة محبة الله فهو مغبون هذا ان كان
فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون كذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء
الشهوات اذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره او من يتوهم به انه ينازعه
ويخالف غرضه بظهور امارة له منه بل يقدر المخالفة من اخلص الناس في محبته حتى في اهله وولده
ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته
ولا يزال في شغل دايم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده
الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق
الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبعه السكون
والنار طبعها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون
المخلوق من النار ان يطمئن عن حركته ساجدا لمن خلق من الطين فابى واستكبر وعصى وعبر
عن سبب استعصائه بان قال خلقتني من نار وخلقته من طين فاذا حين لم يسجد الملعون
لابينا آدم عليه السلم فلا ينبغي ان نطمع في سجوده لاولاده ومهما كف عن الخلق وسواسه وعدوانه
وطيرانه وجولانه فقد اظهر انقياده واذعانه وانقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وانما
وضع الجبهة على الارض قالبه وعلامته الدالة بالاصطلاح عليه ولو جعل وضع الجبهة على الارض
علامة استخفاف بالعبادة والاصطلاح لتصور ذلك كما ان الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى
استخفافا بالعبادة فلا ينبغي ان يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر
اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق ان الشيطان من
المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس الى يوم الدين الا ان تصبح وهموم كلهم واحد فتشغل
قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في
الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولا تظنن انه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم
مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء فان اردت ان يخلو عن الهواء من غير ان تشغله بالماء او بغيره فقد
طمعت في غير مطمع بل بقدر ما خلا من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول

بفكرهم في الذين خلوا عن جولان الشياطين والا فمن غفل عن الله ولو في لحظة فليس له في تلك
اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين
وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ وهذا لان الشاب اذا تعطل عن عمل
يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه
الشيطان وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا اسرع من توالد سائر الحيوانات لان طبعه من
النار واذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال يتولد النار من النار ولا ينقطع البتة بل يسري
شيئا شيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا
يبقى النار اذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم تكن شهوة فاذا اذا
تاملت علمت ان اعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور
الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف فقيل ما هو فقال هي نفسك ان لم تشغلها
شغلتك فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن اولى بالصبر عن ذلك
وهذا صبر دائم لا يقطعه الا الموت **بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه** اعلم ان الذي
انزل الداء انزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا ممتنعا فتحصيله ممكن بعلاج العلم
والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط التي منها تركب الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل
مرض الى علم آخر وعمل آخر وكما ان اقسام الصبر مختلفة فاقسام العلل المانعة منها مختلفة
واذا اختلف العلل اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك
مما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الامثلة فنقول اذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا
وقد غلبت عليه بحيث ليس يملك فرجه او يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه او يملك عينه ولكن
ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوة ويصرفه ذلك عن المواظبة على
الذكر والفكر والاعمال الصالحة فنقول قد قدمنا ان الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين
مع باعث الهوى وكل متصارعين اردنا ان يغلب احدهما الآخر فلا سبيل لنا فيه الا تقوية من
اردنا ان تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث
الشهوة فاما باعث الشهوة فطريق تضعيفه ثلاثة امور احدها ان ينظر الى مادة قوتها وهي الاغذية
الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع
الاقتصار عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة

له في الحال فانه انما هيج بالنظر الى مظان الشهوة اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا
يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام ابليس وهذا سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه الا تغميض
الاجفان او الهرب من صوب رميه فانه انما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن
صوب الصور لم يصبك سهمه الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وهذا
بالنكاح فان كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات ما يغني عن المحظورات وهذا هو العلاج الانفع في حق
الاكثر فان قطع الغذاء يضعف عن ساير الاعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق اكثر الرجال ولذلك قال
عليه السلام عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء فهذه ثلثة اسباب
فالعلاج الاول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف
فتسقط قوته والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك
بواطنها بسبب مشاهدتها والثالث يضاهي تسليتها بشيء يسير مما يميل اليه طبعها حتى يبقى
معها من القوة ما تصبر على التاديب واما تقوية باعث الدين فانما يكون بطريقين احدهما اطماعه
في فوايد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك ان يكثر فكره في الاخبار الذي اوردناها في
فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الاثر ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما
فاته وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة اذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحيوة وحصل له ما يبقى
بعد موته ابد الدهر ومن اسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي ان يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا
من باب المعارف وهو من الايمان وتارة يضعف وتارة يقوى فان قوي قوي باعث الدين وهيجه
تهيجا شديدا وان ضعف ضعفه وانما قوة الايمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر واقل
ما اوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني ان يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا
قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرئ عليها ويقوى منته في مصارعتها فان الاعتياد
والممارسة للاعمال الشاقة يولد القوى التي يصدر منها تلك الاعمال ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين
والمقاتلين وبالجملة الممارسين للاعمال الشاقة على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين
وذلك لان قواهم لم يتاكد بالممارسة فالعلاج الاول يضاهي اطماع المصارع في الخلعة عند الغلبة
ووعده بانواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند اغرائه اياهم بموسى حيث قال وانكم لمن المقربين
والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة مباشرة اسباب ذلك منذ الصبى

حتى يانس به ويستجري عليه ويقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين
ولا يقوى علي الشهوة وان ضعفت ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما اراد فهذا منهاج
العلاج في جميع انواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وانما اشدها كف الباطن عن حديث النفس وانما
يشتد ذلك علي من تفرغ له بان قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان
الوساوس لا تزال تجاذبه من جانب الي جانب وهذا لا علاج له البتة الا قطع العلايق كلها ظاهرا
او باطنا بالفرار عن الاهل والولد والمال والجاه والرفقاء والاصدقاء والاعتزال الي زاوية بعد احراز
قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى ثم اذا غلب
ذلك علي القلب لا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والارض
وعجايب صنع الله وساير ابواب معرفة الله حتى اذا استولى ذلك علي قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان
ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة
والاذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك الي تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي
يستغرق القلب دون الاوراد الظاهرة ثم اذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الاوقات الا بعضها اذ لا
يخلو في جميع اوقاته عن حوادث تشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وايذاء من انسان
وطغيان من مخالط اذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض اسباب المعيشة فهذا احد الانواع
الشاغلة واما النوع الثاني وهو ضروري اشد ضرورة من الاول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس
واسباب المعايش فان تهيئة ذلك ايضا تحوج الي شغل ان تولاه بنفسه وان تولاه غيره فلا يخلو
عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلايق كلها يسلم له اكثر الاوقات ان لم يهجم به ملمة او واقعة
وفي تلك الاوقات يصفو القلب ويتيسر الفكر وينكشف فيه من اسرار الله تعالى في ملكوت السموات
والارض ما لا يقدر علي عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعوايق والعلايق
والانتهاء الى هذا هو اقصى المقامات التي يمكن ان ينال بالاكتساب والجهد فاما مقادير ما
ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الاحوال والاعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب
الرزق فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمعول وراء هذا الاجتهاد
علي جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي اعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار
العبد في ان يتعرض لتلك الجذبة بان يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجذوب الي اسفل
السافلين لا ينجذب الى اعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب اليها وقطع العلايق الجاذبة هو المراد

بقوله صلى الله عليه وسلم ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها وذلك لان تلك النفحات والجذبات لها
اسباب سماوية اذ قال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وهذا من اعلى انواع الرزق والامور السماوية
غايبة عنا فلا ندري متى ييسر الله اسباب الرزق فما علينا الا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ
الكتاب اجله كالذي يصلح الارض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه الا بمطر ولا
ندري متى يقدر الله تعالى اسباب المطر الا انه يثق بفضل الله تعالى انه لا يخلي سنة عن مطر فكذلك
فلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي ان يكون العبد
قد طهر القلب من حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة
وكما يقوى انتظار الامطار في اوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في
الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وايام رمضان
فان الهمم والانفاس اسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى يستدر بها الامطار في
اوقات الاستسقاء وهي لاستدرار امطار المكاشفات ولطايف المعارف من خزاين الملكوت
اشد مناسبة منها لاستدرار قطر الماء واستجرار الغيوم من اقطار الجبال والبحور بل الاحوال والمكاشفات
حاضرة معك في قلبك وانما انت مشغول عنها بعلايقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها
فلا تحتاج الا الى ان تكسر الشهوة وترفع الحجاب فتشرق انوار المعارف من باطن القلب واظهار ماء
الارض بحفر النهر اقرب واسهل من استنزال الماء اليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونها
حاضرا في القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الايمان تذكرا فقال تعالى وليتذكر
اولوا الالباب وقال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس
والشواغل وهو آخر درجات الصبر وانما الصبر عن العوايق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر قال
الجنيد المسير من الدنيا الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في جنب الحق شديد والمسير
من النفس الى الله صعب شديد والصبر مع الله اشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة
هجران الخلق واشد العلايق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء
والاستتباع اغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا يكون اعلى اللذات ومطلوبها
صفة من صفات الله تعالى والربوبية مطلوبة ومحبوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة للامور
الربوبية وعنه العبارة قوله تعالى قل الروح من امر ربي وليس القلب مذموما على حبه ذلك وانما هو
مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الامر اذ حسده على كونه من عالم

الامر فاضله واغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ليس يطلب الابقاء لا فناء
فيه وعز الاذل فيه وامنا لاخوف فيه وغنى لافقر فيه وكمالا لانقصان فيه وهذه كلها من اوصاف
الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد ان يطلب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب
للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بانواع الآلام ومخوف بسرعة الانصرام
ولكنه عاجل وملك مخلد دايم لا يشوبه كدر ولا الم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان
عجولا راغبا في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه
بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور ومناه مع ملك الدنيا
ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم الاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فانخدع المخذول
بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا كل على قدر امكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره اذ علم مداخل
مكره فاعرض عن العاجلة فذكر تعالى حال المغرورين فقال كلا بل تحبون العاجلة وتذرون وراءهم
يوما ثقيلا وقال عز وجل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من
العلم ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق ارسل الله الملائكة الى الرسل فاوحوا
اليهم ما تم على الخلق من اهلاك العدو واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقي عن
الملك المجازي الذي لا اصل له ان سلم ولا دوام له اصلا فنادوا فيهم يا ايها الذين آمنوا ما لكم
اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة فما متاع
الحيوة الدنيا في الآخرة الا قليل فالتورية والانجيل والزبور والقرآن وصحف موسى وكل كتاب
منزل ما انزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدايم المخلد والمراد منهم ان يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا
في الآخرة اما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها واما ملك الآخرة فالقرب من الله تع
بدرك بقاء لا فناء فيه وعز لاذل فيه وقرة عين اخفيت في هذا العالم لا يعلمها نفس من النفوس
والشيطان يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه بان ملك الآخرة يفوت به اذ الدنيا والآخرة ضرتان
ولعلمه بان الدنيا لا تسلم له ايضا ولو كانت تسلم لكان يحسده ايضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو
عن المنازعات والمكدرات وهم الدنيا وطول الهم في التدبيرات وكذلك ساير اسباب الجاه
ثم كما سلم ويتم الاسباب ينقضي العمر حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم
قادرون عليها اتيها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس وضرب
الله تعالى لها مثلا فقال واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به

نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح والزهد في الدنيا لما ان كان ملكا حاضرا حسده الشيطان
عليه فصدّ عنه ومعنى الزهد ان يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان
وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لبطنه وفرجه وساير
اعضايه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه الى حيث يريد ويهوى
فما اعظم اغترار الانسان اذ ظن انه ينال الملك بان يصير مملوكا وينال الربوبية بان يصير عبدا
ومثل هذا هل يكون الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض
الزهاد هل من حاجة فقال كيف اطلب منك حاجة وملكي اعظم من ملكك فقال كيف قال من انت
عبده فهو عبدي فقال كيف ذاك قال انت عبد غضبك وشهوتك وفرجك وبطنك وقد ملكت
هولا كلهم فهم عبيد لي فهذا اذا هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق الى الملك في الآخرة
فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاستداد على الصراط
المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية
ومدخل الغلط في ذلك وكيف تعمية الشيطان وتلبيسه سهل عليك النزوع عن الملك والجاه
والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة ومن كوشف
بهذه الامور بعد ان الف الجاه وانس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة اسبابه فلا يكفيه في العلاج
مجرد العلم والكشف بل لا بد ان يضيف اليه العمل وعمله في ثلثة امور احدها ان يهرب عن موضع الجاه
كيلا يشاهد اسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما يهرب من غلبة الشهوة عن مشاهدة الصور
المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله تعالى في سعة الارض اذ قال تعالى الم تكن ارض الله
واسعة فتهاجروا فيها الثاني ان يكلف نفسه في افعاله اعمالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف
بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم
وقيام وقعود كان يعتاده وفا بمقتضى جاهه حتى يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك
ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة الثالث ان يراعي في ذلك
التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبذل فان الطبع نفور
ولا يمكن نقله عن اخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه
بذلك البعض ابتدا بترك البعض من ذلك البعض الى ان يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا شيئا
الى ان يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان

هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا
ابقى واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه فاذا ما ذكرناه
في علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه اضفه الى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في
كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات واتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الاقسام التي
نصصناها من قبل فان تفصيل الآحاد يطول ومن راعي التدريج ترقي به الصبر الى حالة يشق عليه الصبر
عما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس اموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا
هنيا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتدا
قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وانس بالعلم انقلب الامر فصار
يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب والى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين انه سال الشبلي عن
الصبر ايه اشد فقال الصبر في الله فقال لا الصبر لله قال لا قال الصبر مع الله قال لا قال فايش قال الصبر عن الله
فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف وقد قيل في معنى قوله اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا في الله
وصابروا مع الله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غنا والصبر بالله بقا والصبر مع الله وفا والصبر عن الله جفا
وقد قيل في معناه
والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في ساير الاشيا محمود
وقيل ايضا
الصبر يجمل في المواطن كلها ... الا عليك فانه لا يجمل
هذا آخر ما اردنا شرحه من علوم الصبر واسراره والله اعلم

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة اركان في فضيلة الشكر وحقيقته واقسامه واحكامه الركن الاول في حقيقة النعمة واقسامها الخاصة والعامة الركن الثاني في بيان الافضل من الصبر والشكر الركن الثالث في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم ان الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع انه قال ولذكر الله اكبر فقال اذكروني اذكركم واشكروا لي
ولا تكفرون وقال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال تعالى وسيجزي الله الشاكرين
وقال لاقعدن لهم صراطك المستقيم قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق
وقال ولا تجد اكثرهم شاكرين وقال وقليل من عبادي الشكور وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر
ولم يستثن فقال لين شكرتم لازيدنكم واستثنى في خمسة في الاغنا والاجابة والرزق والمغفرة
والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شا وقال تعالى فيكشف ما تدعون اليه
ان شا وقال ويرزق من يشا بغير حساب وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشا وقال ويتوب الله على من
يشا وهو خلق من اخلاق الربوبية اذ قال والله شكور حليم وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام

اهل الجنة فقال الحمد لله الذي صدقنا وعده وآخر دعويهم ان الحمد لله رب العالمين واما الاخبار

فقد قال صلوات الرحمن وسلامه عليه الطاعم الشاكر بمنزلة الصايم الصابر وروي عن عطاء

قال دخلت علي عايشه فقلت اخبرينا باعجب ما رايت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت

واي شانه لم يكن عجيبا انه اتاني في ليلة فدخل معي في فراشي وقال في لحافي حتى مس جلده جلدي

ثم قال يا بنة ابي بكر ذريني اتعبد لربي قالت فقلت اني احب قربك فاذنت له فقام الي قربة

ماء فتوضا فلم يكثر صب الماء ثم قام فصلى فبكى حتى سالت دموعه علي صدره ثم ركع ثم سجد فبكى

ثم رفع راسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فاذنه بالصلوة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله

لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر قال افلا اكون عبدا شكورا ولم لا افعل وقد انزل الله علي ان في

خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الاية وهذا يدل على ان البكاء ينبغي ان لا ينقطع

ابدا والي هذا السر يشير ما روي انه مر بعض الانبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب فانطقه الله تعالى

فقال منذ سمعت وقودها الناس والحجارة فانا ابكي من خوفه فسأله ان يجيره من النار فاجاره ثم

راه بعد مدة مثل ذلك فقال لم تبكي الان فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب

وقلب العبد كالحجارة او اشد قسوة ولا يزول قسوته الا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا وروي

انه قال عليه الصلوة والسلم ينادي يوم القيمة ليقم الحامدون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون

الجنة قيل ومن الحامدون فقال الذين يشكرون الله على كل حال وفي لفظ آخر الذين يشكرون الله

في السراء والضراء وقال عليه الصلوة والسلم الحمد رداء الرحمن واوحى الله تعالى الى ايوب اني رضيت

بالشكر مكافاة من اوليائي في كلام طويل واوحى الله تعالى في صفة الصابرين دارهم دار السلام

اذا دخلوها الهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر استزيدهم وبالنظر الي ازيدهم ولما نزل

في الكنوز ما نزل في الكنوز قال امير المومنين عمر رضي الله عنه فاي المال نتخذ فقال عليه السلم ليتخذ

احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فامر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود رضي الله عنه

الشكر نصف الايمان **بيان حد الشكر وحقيقته** اعلم ان الشكر من جملة مقامات

السالكين وهو ايضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الاصل فيورث الحال والحال يورث

العمل اما العلم فهو معرفة النعم من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام

بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح واللسان ولا بد من بيان جميع

ذلك ليحصل بمجموعها الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال

معانيه فالاصل الاول العلم وهو علم بثلثه امور بعين النعمة ووجه كونها نعمة في حقه وبذات المنعم
ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لابد من نعمة ومنعم ومنعم
عليه تصل اليه النعمة من المنعم بقصد وارادة فهذه الامور لابد من معرفتها هذا في حق غير الله
فاما في حق الله فلا يتم الا بان يعرف ان النعم كلها من الله تعالى وهو المنعم والاوساط مسخرون
من جهته وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد اذ دخل التقديس فيها بل الرتبة الاولى في معارف
الايمان التقديس ثم اذا عرف ذاتا مقدسا يعرف انه لا مقدس الا واحد وما عداه غير مقدس وهو
التوحيد ثم ان كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فيقع هذه المعرفة
في الرتبة الثالثة اذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد وعن هذا عبر
رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا اله الا الله فله
عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلثون حسنة وقال صلى الله عليه وسلم افضل الذكر لا اله الا
الله وافضل الدعاء الحمد لله وقال صلى الله عليه وسلم ليس شيء من الاذكار يضاعف كما يضاعف
الحمد لله ولا تظنن ان هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها
في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا اله الا الله تدل على التوحيد والحمد لله على معرفة
النعمة من الواحد الحق فالحسنات بازاء هذه المعارف التي هي من ابواب الايمان واليقين
واعلم ان تمام هذه المعرفة بنفي الشرك في الافعال فمن انعم عليه ملك من الملوك بشيء فان
راى لوزيره او وكيله دخلا في تيسير ذلك وايصاله اليه فهو اشراك في النعمة فلا يرى النعمة من الملك
بكل وجه بل منه من وجه ومن غيره من وجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك
نعم لا ينقص من توحيده في حق الملك وكمال شكره ان يرى النعمة الواصلة اليه بتوقيعه الذي
كتب بقلمه والكاغد الذي كتبه عليه فانه لا يفرح بالكاغد والقلم ولا يشكرهما لانه لا يثبت لهما
دخلا من حيث هما موجودان بانفسهما بل من حيث مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم ان الوكيل
الموصل والخازن ايضا مضطر من جهة الملك في الايصال وانه لو رد الامر اليه ولم يكن من جهة
الملك ارهاق وامر جزم يخاف عاقبته لما سلم فاذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن الموصل
كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من اضافة النعمة الى الملك فكذلك
من عرف الله وعرف افعاله علم ان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كالقلم مثلا في يد
الكاتب وان الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط

للدواعي لينفعل شاء ام ابى كالخازن المضطر الذي لا يجد الى مخالفة الملك سبيلا ولو خلي
ونفسه لما اعطاك ذرة مما في يده وكل من وصل اليك نعمة من الله على يده فهو مضطر اذ سلط
الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعي والقى في قلبه ان خيره في الدنيا والآخرة في ان يعطيك ما اعطاك
وان غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل الا به وبعد خلق الله تعالى له هذا الاعتقاد
لا يجد سبيلا الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما
اعطاك ولو لم يعلم ان منفعته في منفعتك لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك
فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة الى نعمة اخرى وهو يرجوها وانما الذي انعم عليك هو الذي
سخر ذلك والقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك
فان عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت
بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلم في مناجاته الهي خلقت آدم وفعلت
وفعلت فكيف شكرك فقال علم ان ذلك مني فكان معرفته شكرا فاذا لا تشكر الا بان تعرف
ان الكل منه فان خالجك ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعم ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم
وحده بل بغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك
فهذا بيان هذا الاصل

الاصل الثاني

الحال المستمد من اصل المعرفة وهو الفرح
بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو ايضا في نفسه شكر على تجرده كما ان المعرفة شكر
ولكن انما يكون شكرا اذا كان جامعا شروطه وشرطه ان يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة
ولا بالانعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثالا فنقول الملك الذي يريد ان
يخرج الى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور ان يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلثة اوجه
احدها ان يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد
نفيس وهذا فرح من لا حظ له في الملك وغرضه الفرس فقط ولو وجده في صحراء فاخذه لكان
فرحه مثل هذا الفرح الوجه الثاني ان يفرح به لا من حيث انه فرس بل من حيث انه يستدل به
على عناية الملك له وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء او اعطاه
غير الملك لكان لا يفرح به اصلا لاستغنائه عن الفرس اصلا او لاستحقاره له بالاضافة الى
مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك الوجه الثالث ان يفرح به ليركبه فيخرج في خدمة الملك
ويحتمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقي الى درجة الوزارة من حيث انه

ليس تقنع بان يكون محله في قلب الملك ان يعطيه فرسا ويعني بهذا القدر من العناية بل هو طالب
لان لا ينعم الملك بشي من ماله على احد الا بواسطته ثم انه ليس يريد من الوزارة ايضا بل مشاهدة
الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب
فهذه ثلث درجات فالاولى لا يدخل فيها معنى الشكر اصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس فرحه
بالفرس لا بالمعطي وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر
والثانيه داخلة في معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته
التي تستحثه على الانعام في المستقبل وهذا ايضا حال الصالحين الذين يعبدون الله تعالى ويشكرونه
خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام في الفرح الثالث وهو ان يكون فرح العبد بنعم الله تعالى
من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه والنزول في جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذا هو
الرتبة العليا وامارته انه لا يفرح بالدنيا الا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن
ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لانه جواد ومهملج
بل من حيث انه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلي رحمه الله الشكر رؤية
المنعم لا رؤية النعمة وقال الخواص شكر العامة على المطعم والملبس وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه
رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الالوان والاصوات
وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة الا بذكر الله ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره
اذا مرض بسوء العادات كما تلتذ بعض الناس باكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة
ويستحلي الاشياء المرة حتى يتسل ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا فاذا هذا شرط الفرح بنعمة
الله تعالى فان لم يكن ابل فمعزى وان لم يكن هذا فالدرجة الثانية اما الاولى فخارجة عن كل باب حساب
فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس وبين من يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين
من يريد نعم الله ليصل اليه بها **الاصل الثالث** العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم وهنا
العمل يتعلق بالقلب وباللسان والجوارح اما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق واما باللسان
فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه واما بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة
بها على معصيته حتى ان شكر العينين ان يستر كل عيب يراه لمسلم وشكر الاذن ان يستر كل عيب يسمعه فيدخل
هذا في جملة شكر نعمة هذه الاعضاء والشكر باللسان باظهار الرضا عن الله تعالى وهو مامور به وقال
صلى الله عليه وسلم لرجل كيف اصبحت فقال بخير فاعاد السوال فاعاد حتى قال في الثالثة بخير احمد الله واشكره

فقال هذا الذي اردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر
مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الريا باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حاله
فهو بين ان يشكر او يشكو او يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من اهل الدين وكيف
لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شئ الى عبد مملوك لا يقدر على شئ فالاحرى بالعبد انه ان لم يحسن
الصبر على البلاء وافضى به الضعف الى الشكوى ان يكون شكواه الى الله تعالى فهو المبتلي وهو القادر
على ازالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى ذل واظهار الذل للعبيد مع كونه ذلا قبيح قال الله تعالى ان
الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه الاية وقال تعالى ان الذين
تدعون من دون الله عباد امثالكم الاية فالشكر باللسان من جملة الشكر وقد روي ان وفدا قدموا على
عمر بن عبد العزيز فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يا امير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان في
المسلمين من هو اسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة اما الرغبة فقد اوصلها الينا
فضلك واما الرهبة فقد امننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف فهذه
هي معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته فاما قول من قال ان الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه
الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض احوال القلب وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن
بذكر احسانه نظر الى مجرد عمل اللسان وقول القايل ان الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة
حفظ الحرمة جامع لاكثر معاني الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان وقول من قال الشكر للنعمة ان ترى نفسك
فيها طفيليا اشارة الى معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر ان لا ترى نفسك اهلا
للنعمة اشارة الى حال من احوال القلب على الخصوص وهولاء اقوالهم تعرب عن احوالهم ولذلك
تختلف اجوبتهم ولا يتفق ثم قد تختلف جواب كل واحد في حالين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم
الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم او يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السايل اقتصارا على ذكر
القدر الذي يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه فلا ينبغي ان يظن ان ما ذكرناه طعن عليهم
وانه لو عرض عليهم مجامع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل اصلا الا انه
يعرض منازعة من حيث اللفظ في ان اسم الشكر في وضع اللسان هل يشتمل على جميع المعاني
ام يتناول بعضها بعضا مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعها ولوازمها ولسنا نقصد في هذا
الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شئ **بيان طريق كشف
الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى** لعلك تخطر ببالك ان الشكر انما يعقل في حق منعم

هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر الملوك اما بالثنا ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند
الناس فيزيد به صيتهم وجاههم او بالخدمة التي هي اعانة لهم على بعض اغراضهم او بالمثول بين
ايديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكون شاكرا له الا بنوع من
ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين احدهما ان الله تعالى منزه عن الحظوظ والاغراض
مقدس عن الحاجة الى الخدمة والاعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثنا والاطرا وعن تكثير سواد
الخدم بالمثول بين يديه راكعا وساجدا فشكرنا اياه بما لا حظ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا
بان ننام في بيوتنا او نسجد او نركع اذ لا حظ للملك فيه ولا حظ لله تعالى في افعالنا كلها والوجه
الثاني ان جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة اخرى من نعم الله اذ جوارحنا وقدرتنا وارادتنا
وداعيتنا وساير الامور التي هي اسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر
نعمته بنعمته ولو اعطانا الملك مركوبا فاخذنا مركوبا آخر له وركبنا او اعطانا مركوبا الملك مركوبا
آخر لم يكن الثاني شكرا للاول منا بل كان الثاني يحتاج الى شكر كما يحتاج الاول ثم لا يمكن شكرا لشكر
الا بنعمة اخرى فيودي الى ان يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك
في الامرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل الى الجمع فاعلم ان هذا الخاطر قد خطر لداود علم
وكذلك لموسى عليه السلم فقال يا رب كيف اشكرك وانا لا استطيع ان اشكرك الا بنعمة ثانية من
نعمك وفي لفظ آخر وشكري لك نعمة اخرى منك توجب علي الشكر لك فاوحى الله اليه اذا عرفت
هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر اذا عرفت ان النعم مني فذلك الشكر فان قلت فقد فهمت
السوال وفهمي قاصر معنى ما اوحي اليهم فاني اعلم استحالة الشكر لله تعالى فاما كون العلم باستحالة
الشكر شكرا فلا افهمه فان هذا العلم ايضا منة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل
ان من لم يشكر فقد شكر وان قبول الخلعة الثانية من الملك شكر الخلعة الاولى والفهم
قاصر عن درك السر فيه فان امكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه فاعلم ان هذا قرع باب
من المعارف وهو اعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها الى ملامح ونقول ههنا نظران نظر
بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا انه الشاكر وانه المشكور وانه المحب وانه المحبوب
وهذا نظر من عرف انه ليس في الوجود غيره وان كل شيء هالك الا وجهه وان ذلك صدق في كل
حال ازلا وابدا لان الغير هو الذي يتصور ان يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود
له بل هو محال ان يوجد اذ الموجود المحقق هو القايم بنفسه وما ليس له قوام بنفسه فليس له

قوام بنفسه فليس له بنفسه وجود بل هو قايم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الي غيره
لم يكن له وجود البته وانما الموجود هو القايم بنفسه والقايم بنفسه هو الذي لو تقدر عدم غيره
بقي موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا يقوم الا واحد ولا
يتصور ان يكون غير ذلك فاذا ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد فان نظرت من
هذا المقام علمت ان الكل منه مصدره واليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب
وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن ابي حبيب حيث قرا انا وجدناه صابرا نعم العبد انه
اواب فقال واعجباه اعطى واثنى اشار الي انه اذا اثنى على عطايه فعلى نفسه اثنى فهو المثنى
عليه ومن ههنا نظر الشيخ ابو سعيد الميهني رحمة الله عليه حيث قرى بين يديه يحبهم ويحبونه
فقال لعمري يحبهم ودعه يحبهم فحق يحبهم لانه انما يحب نفسه اشار الى انه المحب وانه المحبوب وهذه
رتبة عالية لا يفهم الامثال على حد عقلك ولا يخفي عليك ان المص اذا احب تصنيفه فقد احب
نفسه والصانع اذا احب صنعته احب نفسه والوالد اذا احب ولده من حيث انه ولده فقد
احب نفسه وكل ما في الوجود سوي الله فهو تصنيف الله وصنعته فان احبه فما احب الا نفسه
واذا لم يحب الا نفسه فبحق احب ما احب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه
الحالة بفناء نفسه اي فني عن نفسه وعن غير الله تعالي فلم ير غير الله تعالي فمن لا يفهم هذا ينكر
عليهم ويقول كيف فني وطول ظلله اربع اذرع ولعله ياكل كل يوم ارطالا من الخبز فيضحك عليهم
الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم وضرورة العارفين ان يكونوا ضحكة للجاهلين واليه الاشارة
بقوله تع ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا
الي اهلهم انقلبوا فاكهين واذا راوهم قالوا ان هولاء لضالون وما ارسلوا عليهم حافظين
ثم بين ان ضحك العارفين عليهم اعظم فقال تعالي فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون
على الارايك ينظرون وكذلك امة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة
قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فهذا احد النظرين النظر الثاني من لم يبلغ
الي مقام الفناء عن نفسه وهولاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود انفسهم وانكروا ان يكون
لهم رب يعبد وهولاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتا العينين لانهم نفوا ما هو الثابت
تحقيقا وهو القيوم الذي هو قايم بنفسه وقايم على كل نفس بما كسبت وكل قايم فقايم به
ولم يقتصروا على هذا حتى اثبتوا انفسهم ولو عرفوا لعلموا انهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود

لهم من حيث اوجدوا الا من حيث وجدوا ورب فرق بين الموجود وبين الموجد وليس في الوجود
الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قايم وقيوم والموجد
هالك وفان واذا كان كل من عليها فانيا ولا يبقى الا وجه ربك ذي الجلال والاكرام الفريق
الثاني ليس بهم عمى ولكن بهم عور يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه
والعين الاخرى ان تم عماها فلا يبصر بها ثنا، غير الموجود الحق فاثبت موجودا آخر مع الله تبارك
وتعالى وهذا مشرك تحقيقا كما كان الذي قبله جاحدا تحقيقا فان تجاوز حد العمى الى العمش ادرك
ثنا وتباين الموجودين فاثبت ربا وعبدا فبهذا القدر من اثبات التفاوت والنقص في الموجود
الآخر دخل في حد التوحيد ثم ان كحل بصره بما يزيد في انواره قل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره ظهر له
من نقصان ما اثبته سوى الله تعالى فان بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به الى النقصان الى المحو
فينمحي عن رؤيته ما سوى الله فلا يرى الا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيثما ادرك نقصانا في وجود
ما سوى الله دخل في اوايل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فيها يتفاوت درجات الموحدين
وكتب الله المنزلة على السنة رسله هي الكحل الذي يحصل به انوار الابصار والانبياء هم الكحالون
وقد جاؤا داعين الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله الواحد الحق والواصلون الى
كمال التوحيد هم الاقلون والجاحدون والمشركون ايضا قليلون وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف
التوحيد اذ عبدة الاوثان قالوا انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى فكانوا داخلين في اوايل
ابواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الاكثرون وفيهم من ينفتح بصيرته في بعض
الاحوال فتلوح له حقايق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له
ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز لكل الى شأو العلى حركات ولكن عزيز
في الرجال ثبات ولما امر صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له واسجد واقترب قال
في سجوده اعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من سخطك واعوذ بك منك لا احصي ثناء
عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله اعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط
وكانه لم ير الا الله وافعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففني عن مشاهدة الافعال
فترقى الى مصادر الافعال وهي الصفات فقال اعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ثم
رأى ذلك نقصانا في التوحيد فاقترب ورقي من مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات
فقال اعوذ بك منك وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارا

منه اليه ومستفيدا ومثنيا ففني عن مشاهدة نفسه اذ رأي ذلك نقصانا واقرب فقال
انت كما اثنيت علي نفسك لا احصي ثناء عليك فقوله لا احصي خبر عن فناء نفسه وخروجه
عن مشاهدتها وقوله انت كما اثنيت علي نفسك بيان انه المثني وانه المثني عليه وان الكل بدا منه
واليه يعود وان كل شي هالك الا وجهه فكان اول مقامه نهاية مقامات الموحدين وهو
ان لا يري الا الله وافعاله يستفيد بفعل من فعل وانظر الي ماذا انتهت نهايته اذا انتهي
الي الواحد الحق ولقد كان صلي الله عليه وسلم لا يرتقي من رتبة الي رتبة اخري الا ويري الاولي
بعدا بالاضافة الي الثانيه فكان يستغفر الله من الاولي ويري ذلك نقصا في سلوكه وتقصيرا
في مقامه واليه الاشارة بقوله صلي الله عليه وسلم انه ليغان علي قلبي في اليوم والليلة حتي
استغفر الله سبعين مرة فكان ذلك لترقيه الي سبعين مقاما بعضها بعد البعض اوايلها وان
كانت مجاوزة اقصي غايات الخلق ولكن كانت نقصانا بالاضافة الي اواخرها فكان استغفاره
لذلك ولما قالت عايشه رضي الله عنها وعن ابيها قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر
فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال افلا اكون عبدا شكورا معناه افلا اكون
طالبا للمزيد في المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالي لئن شكرتم لازيدنكم واذ
تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع الي ما يليق بعلوم المعاملة فنقول الانبيا
بعثوا لدعوة الخلق الي كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة
وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند
ذلك يكون النظر عن مشاهدة اخري ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام وبالاضافة الي تلك المشاهدة
الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك الا بمثال فاقول يمكنك ان تفهم ان ملكا من الملوك
قد ارسل الي عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده في الطريق حتي يقطع به مسافة
البعد ويقرب من حضرة الملك لم تكن له حالتان احديهما ان يكون قصده من وصول العبد
الي حضرته ان يقوم ببعض مهمة ويكون له غناء في خدمته والثانيه ان لا يكون للملك
حظ في العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لانه لا يقوي علي القيام بمهمة
تغني منه غناء وغيبته لا ينقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد
ان يحظي العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به
وبانتفاعه فنزل العبد من الله تعالي في المنزلة الثانية لا في المنزلة الاولي فان الاولي

محال على الله تعالى والثانية غير محال ثم اعلم ان العبد لا يكون شاكرا في الحالة الاولى بمجرد
الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته التي ارادها الملك منه واما في الحالة الثانية
فلا يحتاج الى الخدمة اصلا ومع ذلك يتصور ان يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بان يستعمل
ما انفذه اليه مولاه فيما احبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره ان لا يستعمل ذلك فيه بان يعطله او
يستعمله فيما يزيد في بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزاد الا في الطريق
فقد شكر مولاه اذا استعمل نعمته في محبته اي فيما احبه لعبده لا لنفسه وان ركبه استدبر حضرته
واخذ يبعد منه فقد كفر نعمته اي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه وان جلس ولم يركب
الا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر ايضا نعمته اذ اهملها وعطلها وان كان هذا دون
ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات
لتكمل بها ابدانهم فيبعدون بها عن حضرته وانما سعادتهم في القرب منها فاعد لهم من النعم ما
يقدرون على استعمالها في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تع اذ قال تعالى لقد
خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
فلهم اجر غير ممنون فاذا نعم الله آلات يترقى العبد بها عن اسفل سافلين خلقها الله تعالى
لاجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب او بعد والعبد فيه بين ان
يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقته محبة مولاه وبين ان يستعملها في المعصية فيكون
قد كفر لاقتحامه لما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وان عطلها
فلم يستعمل في طاعة ولا معصية فهو ايضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا انما
خلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر
طاعته شاكر نعمة الله تع في الاسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال او
عاص استعمل في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملها
المشية ولكن لا تشملها المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء بيان
هذه الدقيقة سر القدر الذي لم يرد الشرع بافشائه وقد انحل بهذا الاشكال الاول وهو
انه اذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر وبهذا ايضا ينحل الثاني فانا لم نعن بالشكر
الا انصراف نعمة الله في جهة محبة لله فاذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل
المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث انت محله فقد اثنى عليك وثناؤه نعمة اخرى منه

اليك فهو الذي اعطى وهو الذي اتى وصار احد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني الى جهة محبته
فله الشكر على كل حال وانت موصوف بانك شاكر بمعنى انك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا
بمعنى انك موجد العلم ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد بالقدرة الازلية فيك فوصفك بانك شاكر
اثبات شيئية لك وانت شيء ان جعلك خالق الاشياء شيئا وانما انت لا شيء اذا كنت انت ناظرا
لنفسك شيئية من ذاتك فاما باعتبار النظر الى الذي جعل الاشياء اشياء فانت شيء اذ جعلك
شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لا شيء محققا والى هذا اشار صلى الله عليه وسلم حيث قال
اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له ففيم العمل اذ كانت الاشياء قد فرغ منها من قبل فبين ان
الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحل افعاله وان كانوا هم ايضا من افعاله ولكن بعض افعاله محل
للبعض وقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو فعل من افعاله وهو
سبب لعلم الخلق بان العمل نافع وعلمهم فعل من افعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية
جازمة الى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية ايضا من افعال الله تع ولكن بعض افعاله سبب للبعض
اي الاول شرط للثاني كما ان خلق الجسم سبب لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحيوة
شرط لخلق العلم وخلق العلم سبب لخلق الارادة والكل من افعال الله تعالى وبعضها سبب
للبعض اي هو شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد لقبول فعل الحيوة الا جوهر ولا يستعد
لقبول العلم الا ذو حيوة ولا لقبول الارادة الا ذو علم فيكون بعض افعاله سببا للبعض
بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض افعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره وهذا اذا احققته
ارتقى الى درجة التوحيد الذي ذكرناه فان قلت فما السر في قوله تع اعملوا والا فانتم معاقبون
ومذمومون على العصيان وما الينا شيء فكيف نذم وانما الكل الى الله فاعلم ان هذا القول من الله
سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب هيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات
والتجافي عن دار الغرور وذلك سبب الوصول الى جوار الله تعالى والله تعالى مسبب الاسباب وهو
مرتبها فمن سبق له في الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى تقوده بسلسلتها الى الجنة
ويعبر عن مثله بان كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله وكلام رسوله
وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا واذا
لم يترك الركون الى الدنيا بقي في حزب الشيطان الرجيم وان موعدهم جهنم فاذا عرفت هذا
تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من احد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب

وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الي النار بالسلاسل وهو تسليط
الغفلة والامن والغرور عليه فالمتقون يساقون الي الجنة قهرا والمجرمون يقادون الي النار
ولا قاهر الا الواحد القهار ولا قادر الا الملك الجبار واذا انكشف الغطاء عن اعين الغافلين
شاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولقد كان
الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم علي الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء
الا ذلك اليوم فهو نباء عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ
بالله من الجهل والعمي فانه اصل اسباب الهلاك بيان تمييز ما يحبه الله عما يكرهه الله
اعلم ان فعل الشكر وترك الكفران لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله اذ معني الشكر استعمال نعمه في محابه
ومعني الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال او باستعماله في مكارهه ولتمييز ما يحبه الله عما يكرهه
مدركان احدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين
الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل ذلك عزيز فلذلك ارسل الله الرسل وسهل بهم الطريق
على الخلق ومعرفة ذلك ينبني علي معرفة جميع احكام الشرع في افعال العباد فمن لا يطلع علي
حكم الشرع في جميع افعاله لم يمكنه القيام بحكم الشرع اصلا واما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار
فهو ادراك حكمة الله في كل موجود خلقه اذ ما خلق شيئا في العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة
مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الي جلية وخفية اما الجلية فكالعلم
بان من الحكم في خلق الشمس ان يحصل به الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل
لباسا فتنتشر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم
فيها بل فيها حكم اخري كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق
الارض بانواع النبات مطعما للخلق ومرعي للانعام وقد انطوي القرآن على جملة من الحكم الجلية
التي يحتملها افهام الخلق ومرعي للانعام وقد انطوي القرآن على جملة من الحكم دون الدقيقة
التي يقصرون عن فهمها اذ قال تعالي انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا
فيها حبا وعنبا واما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والكواكب الثوابت فخفية لا يطلع
عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين النظر
اليها واشار اليه قوله تعالي انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب فجميع اجزاء العالم سماؤه
وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيوانه واعضاؤه لا يخلو ذرة من ذراته

عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الي عشر الي الف وكذلك اعضاء الحيوان ينقسم الي ما يعرف حكمتها كالعلم
بان العين للابصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشي والرجل للمشي لا للشم اما الاعضاء الباطنة
من الامعاء والمرارة والكلية والكبد وآحاد العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف
والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وساير الصفات فلا يعرف الحكمة فيها كافة
الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها الا قدرا يسيرا بالاضافة الي علم الله تعالي فما اوتيتم من العلم
الا قليلا فاذا كل من استعمل شيا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي اريد به
فقد كفر نعمة الله فيه فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه
ما يهلكه وياخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر الي وجه غير محرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس
اذ الابصار يتم بهما وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد
استعملهما في غير ما اريد تا به وهذا لان المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا واسبابها ان
يستعين الخلق بها علي الوصول الي الله تعالي ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا والتجافي
عن غرور الدنيا ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام
علي الذكر والفكر الا بدوام البدن ولا يبقى البدن الا بالارض والماء والهواء والغذاء ولا يتم ذلك الا
بخلق السماء والارض وخلق ساير الاعضاء ظاهرا وباطنا وكل ذلك لاجل البدن والبدن مطية
النفس والراجع الى الله تعالي هو النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ولذلك قال تعالى وما
خلقت الجن والانس الا ليعبدون وكل من استعمل شيا في غير طاعة الله تعالي فقد كفر نعمة الله في
جميع الاسباب التي لابد منها للاقدام على تلك المعصية ولنذكر مثالا واحدا للحكمة الخفية التي
ليست في غاية الخفاء حتى يعتبر بها ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم فنقول من نعم الله تعالي
خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في اعيانهما ولكن يضطر الخلق
اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الي اعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وساير حاجاته وقد يعجز
عما يحتاج اليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج الي جمل يركبه ومن يملك
الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج الي الزعفران فلابد بينهما من معاوضة ولابد في مقدار العوض
من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران
والجمل حتى يقال يعطي منه مثله في الوزن او الصورة وكذا من يشتري دارا بثياب او عبدا بخف
او دقيقا بحمار فهذه الاشياء لا تناسب فيها فلا يدري ان الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر المعاملات

جدا فاذا تفاوتت هذه الاعيان المتنافرة المتباعدة الى متوسط بينهما يحكم فيهما بحكم عدل فيعرف من
كل واحد رتبته ومنزلته حتى اذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق
الدراهم والدنانير حاكمين ومتوسطين بين ساير الاموال حتى يقدر الاموال بهما فيقال هذا الجمل يسوي
مائة وهذا القدر من الزعفران يسوي مائة فهما من حيث انهما مساويان لشيء واحد اذا متساويان
وانما امكن التعديل بالنقدين اذ لا غرض في اعيانهما ولو كان في اعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص
ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الامر
فاذا خلقهما الله تعالى ليتداولهما الايدي ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكمة اخرى
وهي التوسل بهما الى ساير الاشياء لانهما عزيزان في انفسهما ولا غرض في اعيانهما ونسبتهما
الى ساير الاشياء لانهما عزيزان في انفسهما ولا غرض في اعيانهما ونسبتهما الى ساير الاموال نسبة
واحدة فمن ملكهما فكانه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك الا الثوب فلو احتاج الى
طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لان غرضه في دابة مثلا فاحتيج الى شيء هو في
صورته كانه ليس بشيء وهو في معناه كانه كل الاشياء والشيء انما يستوي نسبته الى المختلفات
اذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون فكذلك النقد
لا غرض فيه وهو وسيلة الى كل غرض فهذه هي الحكمة الثانية وفيهما ايضا حكم يطول ذكرها فكل
من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكام بل يخالف الغرض المقصود بالحكام فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما
فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وابطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع
عليه الحكم بسببه لانه اذا كنز فقد ضيع ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم لزيد خاصة
ولعمرو خاصة اذ لا غرض للآحاد في اعيانهما فانهما حجران وانما خلقتا ليتداولهما الايدي فيكونا
حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فاخبر الله عباده بقوله والذين يكنزون
الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير
آنية من ذهب او فضة فقد كفر النعمة وكان اسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا من استسخر حاكم
البلد في الحياكة والكنس والاعمال التي تقوم بها اخساء الناس والحبس اهون منه وذلك ان
الخزف والحديد والرصاص والنحاس ينوب مناب الذهب والفضة في حفظ المايعات عن
ان يتبدد وانما الاواني لحفظ المايعات ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي اريد
النقود فمن لم ينكشف له هذا كشف له بالترجمة الالهية وقيل له من شرب من آنية من ذهب

او فضة فكانما يجرجر في بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربوا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة
وظلم لانهما خلقا لغيرهما لا لانفسهما اذ لا غرض في عينهما فاذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا
على خلاف وضع الحكمة اذ طلب النقد لغير ما خلق له ووضعه ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد
لا يقدر على ان يشتري به طعاما ودابة وربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في
بيعه بنقد ليحصل النقد فيتوصل به الى مقصوده فانهما وسيلتان الى الغير لا غرض في اعيانهما
وموقعهما من الاموال كموقع الحرف الذي جاء لمعنى من الكلام كما قاله النحويون ان الحرف هو الذي
جاء لمعنى في غيره وكموقع المرآة من الالوان فاما من معه نقد فلو جاز له ان يبيع بالنقد فيتخذ
التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد متقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم
والبريد الموصل الى الغير ظلم كما ان حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد مقصودا
للادخار وهو ظلم فان قلت فلم جاز بيع احد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله فاعلم
ان احد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوسل اذ قد يتيسر التوسل باحدهما من حيث كثرته
كالدراهم فيتفرق في الحاجات قليلا قليلا ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به وهو تيسر
التوسل به الى غيره واما بيع الدرهم بالدرهم بمماثلة فجائز من حيث ان ذلك لا يرغب فيه عاقل
مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الارض واخذه بعينه فلا
يمنع مما لا يتشوف اليه النفوس الا ان يكون احدهما اجود وذلك لا يتصور ايضا جريانه اذ صاحب
الجيد لا يرضى بمثله من الردي فذلك مما يقصد فلا جرم يمنعه منه ونحكم بان جيدها ورديها
سواء لان الجودة والرداءة ينبغي ان ينظر اليهما فيما يقصد في عينه وما لا غرض في عينه فلا ينبغي
ان ينظر الى مصارفات دقيقة في صفاته وانما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في
الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في حقها وحقها ان لا تقصد واما اذا باع درهما بدرهم
نسيئة فانما لم يجز لانه لا يقدم على هذا الا مسامح قاصد للاحسان فهي القرض وهي مكرمة مندوب
عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد واجر والمعاوضة لا حمد فيها ولا اجر فهو ايضا ظلم لانه اضاع
خصوص المسامحة واخرجها في معرض المعاوضة وكذلك الاطعمة خلقت ليتغذى او ليتداوى
بها فلا ينبغي ان تصرف عن جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقيدها في الايدي
ويؤخر عنها الاكل الذي اريدت له فما خلق الطعام الا ليؤكل والحاجة الى الاطعمة شديدة
فينبغي ان تخرج عن يد المستغني عنها الى المحتاج ولا يتعامل على الاطعمة الا مستغن عنها اذ

من معه الطعام فلم لا ياكله ان كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله بضاعة تجارة فليبعه
ممن يطلبه بعوض غير الطعام ليكون محتاجا اليه فاما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو ايضا مستغنى
عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب نعم
نعم بايع البر بالتمر معذور اذ احدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وبايع صاع من البر بصاع غير معذور
ولكنه عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله
من الردي لا يرضى به صاحب الجيد واما جيد برديين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات
والجيد يساوي الردي في اصل الفايدة ويخالفه في وجوه التنعم اسقط الشرع غرض التنعم فيما هو
القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربوا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق
هذا بفن الفقهيات فانه اقوى من جميع ما اوردناه في الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب
الشافعي رضي الله عنه في التخصيص بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكان الثياب
والدواب اولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك اقوى المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات
ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد ان يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا
بالمطعوم فراى الشرع التحديد بجنس المطعوم احرى لكل ما هو ضرورة البقا وتحديدات الشرع
قد تحيط باطراف لا يقوى فيها اصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع ذلك بالضرورة ولو لم
يحد لتحير الخلق في تتبع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال والاشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك
قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولان اصول هذه المعاني لا تختلف فيها
الشرايع وانما تختلف في وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى عليه السلم تحريم الخمر بالسكر فقد حد شرعنا
بكونه من جنس المسكر لان قليله يدعوا الى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الحسم
كما دخل اصل المعنى بالحكمة الاصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغي ان يعتبر
شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي ان يصرف عنها ولا يعرف هذا
الا من عرف الحكمة ومن اوتي الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولكن لا يصادف جواهر الحكم في قلوب هي
مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يذكر الا اولوا الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لولا
ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السما واذا عرفت هذا المثال فقس
عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر عنك فانه اما شكر واما كفران لا يتصور
ان ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تتناطق به عوام الخلق بالكراهة وبعضه

بالخطر وكل ذلك عند ارباب القلوب موصوف بالخطر فاقول مثلا لو استنجيت باليمين فقد
كفرت نعمة اليدين اذ خلق الله لك اليدين وجعل احديهما اقوي من الاخري فاستحق الاقوي لمزيد
رجحانه في الغالب للتشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يامر الا بالعدل
ثم احوجك من اعطاك اليدين الي اعمال بعضها شريفة كاخذ المصحف وبعضها خسيسة كازالة النجاسة
فاذا اخذت المصحف باليسار وازلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت
من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك اذا بزقت مثلا في جهة القبلة او استقبلتها في
قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالي في خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات
لتكون متسعك في حركاتك وقسم الجهات الي ما لم يشرفها والي ما شرفها بان وضع فيها بيتا
اضافه الي نفسه استمالة لقلبك اليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة علي
هيئة الثبات والوقار اذا عبدت ربك وكذلك انقسمت افعالك الي ما هي شريفة كالطاعات
والي ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البزاق فاذا رميت بزاقك الي جهة القبلة فقد ظلمتها
وكفرت نعمة الله عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك لبست خفك فابتدات
باليسري فقد ظلمت لان الخف وقاية الرجل فللرجل فيه حظ والبداية في الحظوظ ينبغي ان
تكون بالاشرف فهو العدول والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الرجل والخف وهذا
عند العارفين كبيرة وان سماه الفقيه مكروها حتي ان بعضهم كان قد جمع اكرارا من الحنطة وكان
يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدات بالرجل اليسري سهوا فاريد
ان اكفره بالصدقة نعم الفقيه لا يقدر علي تفخيم الامر في هذه الامور لانه مسكين بلي باصلاح
امور العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم منغمسون في ظلمات اطم واعظم من ان
يظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها فقبيح ان يقال الذي شرب الخمر واخذ القدح
بيساره فقد تعدي من وجهين احدهما الشرب والآخر الاخذ باليسار ومن باع خمرا في وقت
النداء يوم الجمعة فقبيح ان يقال خالف من وجهين احدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء
ومن قضي حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح ان يذكر ترك الادب في قضاء الحاجة
من حيث لم يجعل القبلة علي يمينه والمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض فينمحق بعضها
في جنب بعض فالسيد قد يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل بذلك السكين
اعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه فكل ما راعاه

الانبياء والاولياء من الآداب وتسامحنا به في لقمة مع العوام فسببه هذه الضرورة والا فكل هذه
المكارم عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد الى درجات القرب
لم تؤثر في البعد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم
البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير
غرض صحيح فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وخلق اليد اما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة
او للاعمال المعينة على الطاعة واما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق اليه الماء
وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على
وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ
الشجر والحيوان جعلا فداء لاغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان فافناء الاخس في
بقاء الاشرف مدة ما اقرب الى العدل من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما في
السموات وما في الارض جميعا منه نعم ان كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم ايضا وان كان محتاجا لان
كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحد ولو خصص واحد بها من غير رجحان
واختصاص كان ظلما وصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الارض وساق اليه
الماء وقام بالتعهد فهو اولى من غيره فترجح جانبه بذلك فان نبت ذلك في موات لا بسعي آدمي اختص
بمغرسه او بغرسه فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق الى اخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل
ان يكون هو اولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض اذ لا ملك الا لملك الملوك
الذي له ما في السموات والارض وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس بمالك نفسه بل هو ملك
غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة الله وقد اذن لهم في الاكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك
ينصب مائدة لعبيده فمن اخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر واراد انتزاعها من
يده لم يمكن منه لا لان اللقمة صارت ملكا له بالاخذ باليد فان اليد وصاحب اليد ايضا مملوك
ولكن اذا كان كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من
الترجيح والاختصاص والاخذ اختصاص ينفرد به فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته فهكذا
ينبغي ان يفهم امر الله في عباده ولذلك نقول من اخذ من اموال الدنيا اكثر من حاجته وكنزه وامسكه
وفي عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في
سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته اموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم

ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا في حد فتاوي الفقه لان مقادير الحاجات خفية
والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة واواخر الاعمار غير معلومة فتكليف العوام
ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم وهم بحكم
نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو واباحتنا اياهم ذلك لا يدل على
ان اللعب واللهو حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال والاقتصار في الانفاق على قدر الزكاة
لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على انه غاية الحق وقد اشار القرآن اليه اذ قال ان يسألكموها
فيحفكم تبخلوا ويخرج اضغانكم بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه ان لا ياخذ
احد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب وكل عباد الله ركب لمطايا الابدان الى حضرة الملك
الديان فمن اخذ زيادة عليه ومنعه عن راكب آخر محتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن
مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الاسباب التي بها عرف ان ما
سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع انواع الموجودات
قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا يفي الا بالقليل وانما
اوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور وفرح ابليس لعنه
الله بقوله ولا تجد اكثرهم شاكرين فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف هذا كله وامور آخر وراء هذا
تنقضي الاعمار دون استقصاء مباديها فاما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفها كل من عرف
اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير فان قلت فقد رجع حاصل الكلام الى ان
لله حكمة في كل شيء وانه جعل بعض افعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد
منها وجعل بعض افعالهم مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت
الحكمة الى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الاسباب من ان ينساق الى الغاية المرادة بها
فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق وهو ان الفعل المنقسم الى ما يتمم الحكمة والى
ما يدفعها هو ايضا من فعل الله فاين العبد في البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا اخرى فاعلم
ان تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق
الى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف
منطق الطير ويجحدها من عجز عن الايضاع في السير فضلا عن ان يجول في جو الملكوت جولان
الطير فنقول ان لله سبحانه في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة

اجل واعلى من ان تلمحها عين وأمنع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها
فلم يكن لها في عالم الفهم عبارة عن علو شانها وانحطاط رتبة ذوي الافهام عن ان يمتد طرف فهمهم الى
مبادي اشراقها فانخفضت عن ذروتها كما ينخفض ابصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور
الشمس ولكن لضعف في ابصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت ابصارهم لملاحظة جلالها ان تكون
لهم عبارة تفهم من مبادي حقايقها شيا فذكروا القدرة فجاسرنا حينئذ على النطق فقلنا لله صفة هي
القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود الى اقسام وخصوص صفات ومصدر
انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة اخرى وهي المشية ثم انقسمت الافعال
الصادرة الى ما ينساق الى المنتهى الذي هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل
واحد نسبة الى صفة المشية لرجوعها الى الاختصاصات التي بها يتم القسمة والاختلاف
فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبوب واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة
وقيل انهما جميعا داخلان في وصف المشية ولكن لكل واحد خاصية اخرى في النسبة يوهم لفظ
المحبة والكراهة منهما امرا مجملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين
هم ايضا من خلقه واختراعه الى من سبقت له المشية الازلية ان يستعمله لاستيقاف حكمته دون
غايته ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم والى من سبق لهم في الازل
ان يستعملهم لسياقة حكمته الى غايتها في بعض الامور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة الى المشية
خاصة فذكر لنسبة المستعمل في اتمام الحكمة بهم عبارة الرضى واستعير للذين استوقف بهم اسباب
الحكمة دون غايتها عبارة الغضب وظهر على من غضب عليه في الازل فعل وقفت الحكمة به دون
غايتها فاستعير له الكفران واردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارتضا
في الازل فعل انساقت بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له عبارة الشكر واردف بخلعة الثناء
والاطراء زيادة في الرضا والقبول والاقبال فكان الحاصل انه اعطى الجمال ثم اثنى واعطى النكال
ثم قبح واردى وكان مثاله ان ينظف الملك عبده الوسخ عن اوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه
فاذا تم زينته قال له يا جميل ما اجملك وما اجمل ثيابك وانظف وجهك فيكون هو بالحقيقة المجمل
وهو المثني عليه بكل حال فكانه لم يثن من حيث المعنى الا على نفسه وانما العبد هدف الثناء
من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الامور في ازل الآزال وهكذا تسلسلت الاسباب
والمسببات بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث بل عن ارادة

محكمة محكم حق وامر جزم ذكره لفظ القضاء وقيل انه كلمح بالبصر ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك
القضاء الجزم بما سبق به التقدير فذكر لترتيب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان
لفظ القضاء بازاء الامر الواحد الكلي ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادي الى غير نهاية وقيل
ان شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد القسمة لماذا اقتضت هذا
التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفصيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة
كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه فالجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا
فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله
في السموات والارض وكان زيتهم اولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل نورا
على نور فاشرقت اقطار الملكوت بين ايديهم بنورها فادركوا الامور كما هي عليه فقيل لهم تادبوا
بادب الله واسكتوا واذا ذكر القدر فامسكوا فان للحيطان اذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا
سير اضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لابصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا باخلاق
الله وانزلوا الى السماء الدنيا من منتهى علوكم ليانس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا انواركم المشرقة
من وراء حجابكم كما يقتبس الخفاش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيحيى به حيوة
يحتملها شخصه وحاله وان كان لا يحيى به حيوة المترددين في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم
شربنا شرابا طيبا عند طيب لذاك شراب الطيبين يطيب شربنا واهرقنا على الارض فضله
وللارض من كاس الكرام نصيب فهكذا كان اول الامر وآخره ولا تفهمه الا اذا كنت اهلا له فتحت العين
ما ابصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن ان يقاد ولكن الى حد ما فاذا ضاق الطريق
وصار احد من السيف وادق من الشعر قدر الطاير على ان يطير عليه ولا يقدر على ان يستجر وراءه
الاعمى واذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يمكن العبور الا بالسباحة فقد يقدر الماهر صنعة
السباحة ان يعبر بنفسه وربما لم يقدر على ان يستجر وراءه الاعمى فهذه امور نسبة السير عليها الى
السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء الى المشي على الارض والسباحة يمكن ان تتعلم
فاما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ان عيسى
يقال انه مشى على الماء فقال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات الى معنى الكراهة
والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة اكثر منه وقد ضرب الله مثلا لذلك
تقريبا الى افهام الخلق اذ عرف انه ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه وكانت عبادتهم غاية الحكمة

في حقهم ثم اجرا ان له عبدين يحب احدهما واسمه جبرئيل وروح القدس والامين وهو عنده محبوب
مطاع مكين ويبغض الآخر واسمه ابليس وهو اللعين المنظر الي يوم الدين ثم احال الارشاد الي جبرئيل
فقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال يلقي الروح الامين علي من يشاء من عباده واحال الاغواء
علي ابليس فقال ليضلهم عن سبيله والاغواء هو استيقاف للعباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر
كيف نسبه الي العبد الذي غضب عليه والارشاد سياقة لهم الي الغاية فانظر كيف نسبه الي العبد
الذي احبه وعندك في العادة له مثال فالملك اذا كان يحتاج الي من يسقيه الشراب والي من ينظف
فناء منزله عن التراب وكان له عبدان لا يعين للكنس الا اقبحهما واخسهما ولا يفوض حمل الشراب
الطيب الا الي احسنهما واكملهما واحبهما اليه ولا ينبغي ان يقول هذا فعلي فلم يكون فعله علي ذوق فعلي
فانك اخطات اذا اضفت ذلك الي نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه
والفعل المحبوب بالشخص المحبوب اتماما للعدل فان عدله تارة يتم بامور لا مدخل لك فيها وتارة
يتم فيك فانك ايضا من افعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وساير اسباب حركتك في التعيين هي فعله
الذي رتبه بالعدل ترتيبا يصدر منه الافعال المعتدلة الا انك لا تري الا نفسك فتظن ان ما يظهر
عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه الي نفسك وانما
انت مثل الصبي الذي ينظر ليلا الي لعب المشعبذ الذي يخرج صورا من وراء الحجاب ترقص
وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بانفسها انما يحركها خيوط شعرية دقيقة
لا تظهر في ظلام الليل ورؤسها في يد المشعبذ وهو محجوب عن ابصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون
لظنهم ان تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد واما العقلاء فانهم يعلمون ان ذلك تحريك
وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلم المشعبذ الذي
يكون الامر اليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان اهل الدنيا والخلق كلهم صبيان الا العلماء ينظرون
الي هذه الاشخاص فيظنون انها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء يعلمون انهم محركون الا انهم
لا يعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون الا العارفون والعلماء الراسخون فانهم ادركوا بحدة ابصارهم
خيوطا دقيقة عنكبوتية بل ادق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف باشخاص
اهل الارض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤس تلك
الخيوط في مناطات لها هي معلقة منها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في ايدي
الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا ابصار ملائكة السموات مصروفة الي حملة العرش ينتظرون

منهم ما ينزل عليهم من الامر من الحضرة الربوبية كيلا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون
وعبّر عن هذه المشاهدات في القرآن فقيل وفي السماء رزقكم وما توعدون وعبّر عن اشتغال
ملائكة السموات لما ينزل اليهم من الامر والقدر فقيل خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن
الآية وهذه امور لا يعلم تاويلها الا الله والراسخون في العلم وعبّر ابن عباس رضي الله عنه عن
اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا يحتملها افهام الخلق حيث قرا قوله تعالى ينزل الامر بينهن
فقال لو ذكرت ما اعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني وفي رواية لقلتم انه كافر ولنقتصر على هذا
القدر فانه خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منها فلنرجع
الى مقاصد الشكر فنقول اذ رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا في اتمام حكمة الله فاشكر
العباد احبهم الى الله واقربهم اليه واقربهم الى الله الملائكة وهم ايضا ترتيب وما منهم الا له مقام
معلوم واعلاهم في رتبة القرب اسمه اسرافيل وانما علو درجتهم لانهم في انفسهم كرام بررة وقد
اصلح الله بهم الانبياء وهم اشرف مخلوق على وجه الارض وتلي درجتهم درجة الانبياء فانهم في انفسهم
اخيار وقد هدى الله بهم ساير الخلق وتمم بهم حكمته واعلاهم رتبة نبينا صلوات الله الزاكية
وتحياته وسلامه عليه اذ اكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الانبيا
فانهم في انفسهم صالحون وقد اصلح الله بهم ساير الخلق ودرجة كل واحد بقدر ما اصلح من نفسه
ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لانهم اصلحوا دنياهم كما اصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع
الدين والملك والسلطنة لنبينا عليه الصلوات والتحيات كان افضل من ساير الانبيا
صلوات الله عليهم فانه اكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الانبيا
ثم يلي العلماء الصالحون الذين اصلحوا نفوسهم فقط فلم يتم حكمة الله تعالى بهم الا فيهم ومن
عدا هؤلاء فهمج ورعاع واعلم ان السلطان به قوام الدين فلا ينبغي ان يستحقر وان كان ظالما
فاسقا قال عمرو بن العاص امام غشوم خير من فتنة تدوم وقال صلى الله عليه وسلم سيكون عليكم
امرا يفسدون وما يصلح الله بهم اكثر فان احسنوا فلهم الاجر وعليكم الشكر وان اساؤا فعليهم
الوزر وعليكم الصبر وقال سهل من انكر امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان
فلم يجب فهو مبتدع ومن اتاه من غير دعوة فهو جاهل وسئل اي الناس خير فقال السلطان
فقيل كنا نرى ان شر الناس السلطان فقال مهلا ان لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة
الى سلامة اموال المسلمين ونظرة الى سلامة ابكارهم فينظر في صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه

وكان يقول الحسنيات السبع المعلقة علي بوابهم خير من سبعين ناقة يقتصون الركن الثاني
من اركان الشكر ما عليه الشكر وهو النعمة ولنذكر فيه حقيقة النعمة واقسامها ودرجاتها واصنافها
ومجامعها فيما يخص ويعم فان احصاء نعم الله تعالي علي عباده خارج عن مقدور البشر كما قال الله تعالى
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فنقدم امورا كلية تجري مجري القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل
بذكر الآحاد بيان حقيقة النعمة واقسامها اعلم ان كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب
ومؤثر فانه يسمي نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الاخروية وتسمية ما عداها نعمة وسعادة
اما غلط واما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين علي الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون
اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون اطلاقه علي السعادة الاخروية اصدق وكل سبب يوصل
الي سعادة الآخرة ويعين عليها اما بواسطة واحدة او بوسائط فان تسميته نعمة صحيح وصدق
لاجل انه يفضي الي النعمة الحقيقية والاسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات
القسمة الاولي ان الامور كلها بالاضافة الينا تنقسم الي ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم
وحسن الخلق والي ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق والي ما ينفع في الحال ويضر
في المآل كالتلذذ باتباع الشهوات والي ما يضر في الحال ويولم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات
ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما
هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي الابصار
وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه
علم ان ذلك بلاء سيق اليه والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الالباب بلاء عند
الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه الا انه شاف من الامراض والاسقام جالب للصحة
والسلامة فالصبي الجاهل اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن
يهديه اليه ويهيئ له اسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب يدعوه اليها فان الاب
بكمال عقله يلحظ العاقبة والام لقصورها وفرط جهلها ووفور حبها للولد تلحظ الحال والصبي
لجهله يتقلد منة من امه دون ابيه ويانس اليها والي شفقتها ويقدر الاب عدوا له ولو عقل
لعلم ان الام عدو باطن في صورة صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الي امراض
والام اشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه
صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك يعمل به ما لا يعمل به العدو قسمة ثانية اعلم ان

الاسباب الدينوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرّها فقلّما يصفو اخيرها كالمال والاهل والولد
والاقارب والجاه الواسع والي ما يكان في ضرره نفعه وهذه امور يختلف بالاشخاص فرب انسان
صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه الى الخيرات فذاك مع هذا التوفيق
نعمة في حقه ورب انسان يستضر بالقليل ايضا اذ لايزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا
للزيادة عليه فيكون ذلک مع هذا الخذلان بلاء في حقه فتهمة ثالثة اعلم ان الخيرات باعتبار
آخر ينقسم الي ما هي موثرة لذاتها والي ما هي موثرة لغيرها والي ما هي موثرة لذاتها ولغيرها فالاول
ما يوثر لذاته لا لغيره كلذة النظر الي وجه الله تعالي وسعادة لقائه وبالجملة سعادة الآخرة
التي لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها الي غاية اخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها
والثاني ما يقصد لغيره ولا غرض اصلا في ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجات لو كانت
لا تنقضي بها لكانت والحصى بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة الي اللذات سريعة الايصال
اليها عند الجهال محبوبة في انفسها حتى يجمعوها ويكثروها ويتصارعون عليها بالربا
ويظنون انها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع
بينه وبينه ثم ينسي في محبته للرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره ولايزال مشغولا بتعهد
الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة
والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها علي الفكر والذكر الموصلين الى لقاء الله او ليتوصل
بها الي استيفاء لذات الدنيا وتقصد ايضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن المشي
الذي يراد سلامة الرجل لاجله فيريد ايضا سلامة الرجل من حيث انها سلامة فاذا المؤثر
لذاته فقط هو الخير والنعمة حقيقة وما يوثر لذاته ولغيره ايضا فهو نعمة وهي دون الاول فاما
ما لا يوثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في انفسهما من حيث هما جوهران بانهما نعمة بل من حيث
هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد امرا ليس يمكنه ان يتوصل اليه الا بهما فلو كان
مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حيوته استوى عنده الذهب والمدر
فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكون
بلاء في حقه ولا يكون نعمة فتهمة رابعة اعلم ان الخيرات باعتبار آخر تنقسم الي نافع وجميل ولذيذ
فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المآل والجميل هو الذي
يستحسن في ساير الاحوال والشرور ايضا ينقسم الي ضار وقبيح ومولم وكل واحد من القسمين

ضربان مطلق ومقيد فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الاوصاف الثلثه اما في الخير فكالعلم والحكمة
واما في الشر فكالجهل فانه ضار قبيح ومولم وانما يحس الجاهل بالم جهله اذا عرف انه جاهل
بان يرى غيره عالما للذته ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات الدنيه عن التعلم فيتجاذبه متضادان
فيعظم المه فانه ان ترك التعلم تالم بالجهل ودرك النقصان وان اشتغل بالتعلم تالم بترك
الشهوات او بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دايم لا محالة والضرب الثاني
مقيد وهو الذي جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب نافع مولم كقطع الاصبع المتاكلة
والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه نافع بالاضافة الي بعض الاحوال
وقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال الي ان يحين وقت هلاكه
ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال نافع
للنفس في نجاتها والنافع قسمان ضروري كالايمان وحسن الخلق في الايصال الي سعادة الاخرة
واعني بهما العلم والعمل اذ لا يقوم مقامهما البته غيرهما وغير ضروري كالسكنجبين مثلا في تسكين
الصفراء فانه قد يمكن تسكينها بما يقوم مقامه قسمة خامسة اعلم ان النعمة يعبر بها عن كل لذيذ
واللذات بالاضافة الي الانسان من حيث اختصاصه بها او مشاركته لغيره فيها ثلثه انواع عقلية
وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات اما العقلية فكلذة
العلم والحكمة اذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذها القلب
لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه اقل اللذات وجودا وهي اشرفها اما قلتها فلان
العلم لا يستلذه الا عالم والحكمة لا يستلذها الا حكيم وما اقل اهل العلم والحكمة وما اكثر المتشبهين
باسمهم والمترسمين برسومهم واما شرفها فلانها لازمة لا تزول ابدا لا في الدنيا ولا في الاخرة ودائمة
لا تمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ عنها فيستثقل والحكمة والعلم قط لا يتصور
ان يمل ويستثقل ومن قدر علي الشريف الباقي ابد الاباد اذا رضي بالخسيس الفاني في اقرب
الاماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وادباره واقل الامر فيه ان العلم والعقل لا يحتاج الي اعوان
وحفظه بخلاف المال اذ العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به
والمال يسرق والولاية تزول بالعزل فيكون صاحبه في روح الامن ابدا وصاحب المال والجاه في كرب
الخوف ابدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال وابدا والمال يجذب تارة الي الهلاك وتارة
يجذب الي النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وان سماه خيرا في مواضع واما

فقصور اكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فاما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق تبع
الذوق واما لفساد امزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة
العسل ويراه مرا واما لقصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل
الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لا يدل على انها ليست
لذيذة ولا استطابته للبن يدل على انه الذ الاشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلثة
اما من لم يحي بعد باطنه كالطفل واما من مات بعد الحيوة باتباع الشهوات واما من مرض بسبب
اتباع الشهوات وقوله تعالى في قلوبهم مرض اشارة الى مرض العقول وقوله تعالى لينذر من كان
حيا اشارة الى من حي حيوة باطنة وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان
عند الجهال من الاحياء وكذلك كان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون فرحين وان كانوا
موتى بالابدان الثاني لذة يشارك الانسان بها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة
والاستيلاء وذلك موجود في الاسد والنمر وبعض الحيوانات الثالث ما يشارك بها ساير الحيوانات
كلذة البطن والفرج وهذه اكثرها وجودا وهي اخسها ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج
حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة وهي اشدها التصاقا
بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقى الى الثالثة فصار اغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة
لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وافعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج
استيلاء حب الرياسة من القلب واخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة واما شره البطن
والفرج فكسره يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على قهرها الا الصديقون فاما قمعها
بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس على الدوام وفي اختلاف الاحوال يشبه ان يكون خارجا عن مقدور
البشر نعم يغلب لذة معرفة الله تعالى في احوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن
ذلك لا يدوم طول العمر بل يعتريه الفترات فتعود اليه الصفات البشرية فتكون موجودة لكن تكون
مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا ينقسم القلوب الى اربعة اقسام
قلب لا يحب الا الله ولا يستريح الا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى
الانس بالله وانما لذته بالجاه والرياسة والمال وساير الشهوات البدنية وقلب اغلب احواله الانس
بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الاحوال الرجوع الى الاوصاف البشرية وقلب
اغلب احواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الاحوال تلذذ بالعلم والمعرفة اما الاول

فان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد واما الثاني فالدنيا طافحة به واما الثالث والرابع
فوجود ولكن علي غاية البعد والندور ولا يتصور ان يكون الا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت
في القلة والكثرة وانما يكون كثرته في الاعصار القريبة من اعصار الانبياء فلا يزال يزداد طولا
ويزداد مثل هذه القلوب قلة الي ان تقرب الساعة ويقضي الله امرا كان مفعولا وانما وجب ان يكون
هذا نادرا لانه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفايق في الملك والجمال
الا نادرا واكثر الناس من دونهم فكذلك في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عالم الشهادة
والآخرة عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما ان الصورة في المرآة تابع لصورة الناظر في المرآة
والصورة في المرآة وان كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها اول في حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك
وترى صورتك في المرآة اولا فتعرف بها صورتك التي هي قايمة بك ثانيا علي سبيل المحاكاة فانقلب
التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة وانقلب المتاخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس والاشكال
ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسر له
نظر الاعتبار فلا ينظر في شي من عالم الملك الا ويعبر به الي عالم الملكوت فيسمي عبوره عبرة وقد امر
الخلق به فقيل فاعتبروا يا اولي الابصار ومنهم من عميت بصيرته فلم يعبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة
وسينفتح الي حبسه ابواب جهنم وهذا الحبس ممتلي نارا شانها ان تطلع علي الافيدة الا ان بينه
وبين ادراك المها حجابا فاذا رفع الحجاب بالموت ادرك وعن هذا اظهر الله الحق علي لسان قوم استنطقهم
بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم يدرك مرة بادراك يسمي علم اليقين ومرة بادراك
اخري يسمي عين اليقين وعين اليقين لا يكون الا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن
للذين وفر حظهم من نور اليقين فلذلك قال تعالي كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم اي في
الدنيا ثم لترونها عين اليقين اي في الآخرة فاذا قد ظهر ان القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون
الا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا تتمة سادسة حاوية لجامع النعم اعلم ان النعم تنقسم الي ما هي
غاية مطلوبة لذاتها والي ما هي مطلوبة لاجل الغاية واما الغاية فانها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها
الي اربعة امور بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل فيه وغني لا فقر معه وهي النعمة الحقيقية
ولذلك قال صلي الله عليه وسلم لا عيش الا عيش الآخرة وقال ذلك مرة للشدة تسلية للنفس وذلك في وقت
حفر الخندق في شدة الضر وقال ذلك مرة في السرور منعا للنفس من الركون الي سرور في الدنيا وذلك
عند احداق الناس به في حجة الوداع وقال رجل اللهم اني اسالك تمام النعمة فقال صلي الله عليه وسلم

وهل تعلم ما تمام النعمة قال لا قال دخول الجنة واما الوسايل فينقسم الى الاقرب الاخص كفضايل النفس
والى ما يليه في القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المال والاهل والعشيرة
والى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية
فهي اذا اربعة انواع النوع الاول وهو اخص الفضايل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب اطرافها
الى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان الى علم المكاشفة وهو العلم بالله وصفاته وملايكته ورسله
والى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم الى قسمين ترك مقتضى الشهوة والغضب واسمه العفة
ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع اصلا ولا يقدم كيف شاء
بل يكون اقدامه واحجامه بالميزان العدل الذي انزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم
اذ قال تعالى الا تطغوا في الميزان واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان فمن خصى نفسه لترك
شهوة النكاح او ترك النكاح مع القدرة والامن من الآفات او ترك الاكل حتى ضعف عن العبادة
والذكر والفكر فقد اخسر الميزان ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان وانما
العدل ان يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل بركتا الميزان فاذا الفضايل
الخاصة بالنفس المقربة الى الله تعالى اربع علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا
في غالب الامر الا بالنوع الثاني وهي الفضايل البدنية وهي اربع الصحة والقوة والجمال وطول
الامل ولا يتهنا هذه الامور الاربعة الا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن
وهي اربع المال والاهل والجاه وكرم العشيرة ولا ينتفع بشيء من هذه الاسباب الخارجة والبدنية
الا بالنوع الثاني وهي الاسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضايل النفسية الداخلة وهي
اربع هداية الله ورشده وتسديده وتاييده فمجموع هذه النعم ست عشرة اذ قسمناها الى اربع
وقسمنا كل واحدة الى اربع وهذه الجملة يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية
او نافعة اما الحاجة الضرورية كحاجة سعادة الآخرة الى الايمان وحسن الخلق اذ لا سبيل للوصول
الى سعادة الآخرة البتة الا بها فليس للانسان الا ما سعى وليس لاحد في الآخرة الا ما تزود من
الدنيا وكذلك حاجة الفضايل النفسية بكسب العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضروري
واما الحاجة النافعة على الجملة كحاجة هذه النعم النفسية والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال
والعز والاهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة فان قلت فما وجه الحاجة
لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة فاعلم ان هذه الاسباب جارية

مجري الجناح المبلغ والآلة المستهلة للمقصود اما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له
كفاية كساع الى الهيجاء بغير سلاح وكباز يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نعم
المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم نعم العون على تقوى الله المال وكيف ومن عدم
المال صار مستغرق الاوقات في طلب القوت وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات
المعيشة ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر لا تندفع الا بسلاح المال ثم مع
ذلك يحرم فضيلة الحج والزكوة والصدقات وافاضة الخيرات وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم
قال الغنى فاني رايت الفقير لا عيش له قيل زدنا قال العافية فاني رايت المريض لا عيش له وكان
ما ذكره اشارة الى نعيم الدنيا ولكنه من حيث انه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه
وسلم من اصبح معافا في بدنه آمنا في سربه وله قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها
واما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله عليه وسلم نعم العون على الدين
المرأة الصالحة وقال في الولد اذا مات الرجل انقطع عمله الا عن ثلث ولد صالح يدعو له وقد
ذكرنا فوايد الاهل والولد في كتاب النكاح واما الاقارب فمهما كثر اولاد الرجل واقاربه كانوا له
مثل الاعين والايدي فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال
شغله وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين على الدين فهو اذا نعمة واما العز والجاه
فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغني عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه
وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه راس ماله وانما تندفع هذه الشواغل
بالعز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان وقال الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لفسدت الارض ولا معنى للجاه الا ملك القلوب كما لا معنى للغنى الا ملك الدراهم ومن
ملك القلوب تسخرت له ارباب القلوب لدفع الاذى عنه فكما يحتاج الانسان الى نفسه يدفع
عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع عنه الذئب عن ماشيته فيحتاج ايضا الى من
يدفع الشر عن نفسه وعلى هذا القصد كان الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين
ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من حرامهم او الاستيثار او
الاستكثار في الدنيا عشا بعتهم ولا تظنن ان نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره
واكمل دينه واظهره على جميع اعدائه ومكن له في القلوب حتى اتسع به عزه وجاهه كانت اقل من
نعمته عليه حيث كان يؤذي ويضرب حتى افتقر الى الهجرة فان قلت كرم العشيرة وشرف الاهل

من النعمة ام لا فاقول نعم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الايمة من قريش ولذلك كان النبي عليه السلام من
اكرم ارومة في نسب آدم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم وقال صلى الله عليه وسلم اياكم وخضرا
الدمن قيل وما خضرا الدمن فقال المراة الحسنا في المنبت السو فهذا ايضا من النعم ولست
اعني بها الانتساب الى الظلمة وارباب الدنيا بل الانتساب الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
والى ايمة العلما والصالحين والابرار المترسمين بالعلم والعمل فان قلت فما غنا الفضائل
البدنية فاقول لا خفا بشدة الحاجة الى الصحة والقوة والى طول العمر اذ لا يتم علم وعمل الا بها
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم افضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى وانما يستحقر من جملته
امر الجمال فيقال يكفي ان يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحري الخيرات ولعمري الجمال
قليل الغنى ولكنه من الخيرات ايضا اما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها واما في الآخرة فمن وجهين
احدهما ان القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة اقرب وجاهه في الصدور
اوسع فكانه من هذا الوجه جناح مبلغ كالجاه والمال اذ هو نوع قدرة اذ يقدر الجميل الوجه
على تنجز حاجات لا يقدر عليه القبيح وكل معين على قضا حاجات الدنيا معين على الآخرة
بواسطتها والثاني ان الجمال في الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه
تادى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول اصحاب الفراسة في معرفة
مكارم النفس على هيآت البدن وقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه
اثر الغضب والسرور والغم ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وقيل ما في الارض
قبيح الا ووجهه احسن ما فيه واستعرض المامون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه
فاذا هو الكن فاسقط اسمه من الديوان وقال الروح ان اشرقت على الظاهر فصباحة او على
الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلبوا الخير
عند حسان الوجوه وقال امير المومنين عمر رضي الله عنه اذا بعثتم رسولا فاطلبوا احسن الوجه
حسن الاسم وقالت الفقها اذا تساوت درجات المصلين فاحسنهم وجها اولى بالامامة
وقال تعالى ممتنا بذلك وزاده بسطة في العلم والجسم ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة
فان ذلك انوثة وانما نعني ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضا
وتناسب خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليها فان قلت فقد ادخلت المال والجاه
والنسب والولد والاهل في حيز النعم وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

والعلماء، وقال تعالى انما اموالكم واولادكم فتنة وقال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم وقال
علي عليه السلام في ذم النسب الناس ابناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه وقيل المرء بنفسه
لا باسه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا فاعلم ان من ياخذ العلوم من الالفاظ المنقولة
المأولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه اغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى الى ادراك الامور على
ما هي عليه ثم تنزيل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص اخرى فهذه نعم معينة
على امر الآخرة لا سبيل الى جحدها الا ان فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق
نافع فان اصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت
نعمة وان اصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته اصناف الجواهر واللآلي
فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر
بنعمه وان خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقال نعم العون على التقوى المال وكذلك مدح الجاه والمال والعز اذ من الله على رسوله ان
اظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق وهو المعنى بالجاه ولكن المنقول في مدحهما قليل والمنقول
في ذم المال والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده الجاه واجتلاب القلوب ومعنى
الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذلك لان الناس اكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق
الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول الى ترياقه ويهلكهم تمساح
الجاه قبل العثور على الجواهر ولو كانا في اعينهما مذمومين بالاضافة الى كل احد لما تصور ان تنضاف الى
النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا ان ينضاف اليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلم
فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون وقد يضر الصبي ما لا يضر المعزم
نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه واصلاحه وقد وجد حية وعلم انه لو اخذها لاجل ترياقها لاقتدى
به ولده واخذ الحية اذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب
عليه ان يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد فاذا كان يقدر على الصبر ولا يستضر به ضررا
كثيرا ولو اخذها لاخذ الصبي ويعظم ضرار بهلاكه فواجب عليه ان يهرب عن الحية اذا رآها ويشير على
الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه ان فيها سما قاتلا لا ينجو منه احد ولا يحدثه اصلا بما
فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص لو علم انه لو غاص في
البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه ان يحذر الصبي ساحل البحر والنهر فان كان لا ينزجر الصبي

بمجرد الزجر مهما رأى اباه يعوم حول الساحل فواجب عليه ان يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين
يديه فكذلك الامة في حجر الانبياء كالصبيان الاغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انما انا لكم مثل الوالد
لولده وقال صلى الله عليه وسلم انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وانا آخذ بحجزكم وحظهم الاوفى
في حفظ الاولاد عن المهالك فانهم لم يبعثوا الا لذلك وليس لهم في المال حظ الا بقدر القوت فلاجرم
اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل انفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفي الامساك السم
ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا الى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الاموال فلذلك [illegible]
الاموال والمعنى به تقبيح امساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون
الى الدنيا ولذاتها فاما اخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر
ان لا يحمل الا بقدر زاده في السفر اذا صمم العزم على ان يخص بما يحمله فاما ان سمحت نفسه باطعام
الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله صلى الله عليه وسلم ليكن بلاغ احدكم
من الدنيا زاد الراكب معناه لانفسكم خاصة والا فقد كان ممن روى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ
مائة الف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بان الاغنياء يدخلون الجنة بشدة استاذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
في ان يخرج جميع ما يملكه فاذن له فنزل جبرئيل عليه السلام وقال مره بان يطعم المسكين ويكسو
العاري ويقري الضيف الحديث فاذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج داؤها بدوائها ومرجوها
بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله ان يقرب منها منتقيا داءها ومستخرجا
دواءها ومن لا فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا تعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء
هم الخلق كلهم الا من عصمه الله تعالى وهداه الطريق فان قلت فما معنى النعم التوفيقية الراجعة
الى الهداية والرشد والتأييد والتسديد فاعلم ان التوفيق لا يستغني عنه احد وهو عبارة عن
التأليف والتلفيق بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة
وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص الاسم بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله وقدره
كما ان الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن يميل الى الباطل من الحق وكذا الارتداد ولا خفاء
بالحاجة الى التوفيق ولذلك قيل اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجني عليه اجتهاده فاما
الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب السعادة الا بها لان داعية الانسان قد تكون مائلة الى ما فيه
صلاح آخرته ولكن اذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن اين ينفعه مجرد

الارادة فلا فايدة في الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية ولذلك قال ربنا الذي اعطى كل شيء
خلقه ثم هدى وقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابدا ولكن الله يزكي من
يشاء وقال صلى الله عليه وسلم ما من احد يدخل الجنة الا برحمة الله اي بهدايته قيل ولا انت فقال ولا انا
وللهداية ثلث منازل الاولى معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد
انعم الله به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل وكذلك قال تعالى واما ثمود فهديناهم
فاستحبوا العمى على الهدى فاسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصاير العقول وهي مبذولة
ولا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التي تعمي القلوب وان كانت لا تعمي الابصار
ومن جملة المعميات الالفة والعادة وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا
اباءنا على امة وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين
عظيم وبقوله تعالى ابشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء والهداية الثانية
وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد بها الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة
حيث قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهو المراد بقوله والذين اهتدوا زادهم
هدى الهداية الثالثة وراء الثانية وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال
المجاهدة فيهتدي بها الى ما لا يهتدى اليه بالعقل الذي يحصل التكليف وامكان تعلم
العلوم به وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله بتخصيص الاضافة
وان كان الكل من جهته فقال تعالى قل ان الهدى هدى الله وهو المسمى حيوة في قوله تعالى
او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس وبقوله افمن شرح الله صدره للاسلام
فهو على نور من ربه واما الرشد فنعني به العناية الالهية التي تعين الانسان عند مقاصده
فيقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ولقد آتينا
ابرهيم رشده من قبل والرشد عبارة عن هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها فالصبي
اذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطريق التجارة والاستثمار ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستثمار لا يسمى
رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم انه
يضره فقد اعطى الهداية وتميز بها عن الجاهل الذي لا يدري انه يضره ولكن ما اعطى الرشد فالرشد
بهذا الاعتبار اكمل من مجرد الهداية الى وجوه الاعمال وهي نعمة عظيمة واما التسديد فهو توجيه
حركاته الى صوب المطلوب وتيسيرها عليه ليشتد في صوب الصواب في اسرع وقت فان الهداية

بمجردها لا تكفي بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد لا يكفي بل لابد من تيسير الحركات لمساعدة
الاعضاء والالات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية اليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه
الداعية لتستيقظ وتتحرك والتسديد اعانته ونصرة بتحريك الاعضاء في صوب السداد واما التاييد
فكانه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية امره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة
الاسباب من خارج وهو المراد بقوله تع اذ ايدتك بروح القدس ويقرب منه العصمة وهي عبارة
عن جود الهي يسبغ في الباطن يقوي به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من
باطنه غير محسوس واياه عنى بقوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا ان رآى برهان ربه فهذه هي مجامع
النعم ولن يتيسر الا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير
المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل
عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الاعداء ويستدعي كل واحد من
هذه الاسباب الستة عشر اسبابا ويستدعي تلك الاسباب اسبابا الى ان ينتهي بالآخرة الى دليل
المتحيرين وملجا المضطرين ذلك رب الارباب ومسبب الاسباب واذا كانت تلك الاسباب
طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها انموذجا ليعلم به معنى قوله وان تعدوا
نعمة الله لا تحصوها بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله وتسلسلها وخروجها عن الحصر
والاحصاء اعلم انا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة
في الرتبة المتاخرة فهذه النعمة الواحدة لو اردنا ان نستقصي الاسباب التي بها تمت
هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الاكل احد الاسباب للصحة فلنذكر من جملة الاسباب التي بها
يتم نعمة الاكل ولا يخفى ان الاكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة فلا بد لها
من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على الحركة ولا بد من ارادة للحركة ولا بد من علم بالمراد
وادراك له ولا بد لها من قدرة على الحركة ولا بد من ارادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وادراك له
ولا بد للاكل من ماكول ولا بد للماكول من اصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فلنذكر اسباب
الادراك ثم اسباب الارادات ثم اسباب القدرة ثم اسباب الماكول على سبيل التلويح لا
على سبيل الاستقصاء الطرف الاول في نعم الله تعالى في خلق اسباب الادراك
اعلم ان الله تعالى خلق النبات وهو اكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وساير
الجواهر التي لا تنمو ولا تغتذي فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء الى نفسه من

جهة اصله وعروقه التي في الارض وهي له الات بها يجتذب الغذاء وهي الدقيقة التي تراه في كل ورقة
يغلظ اصولها ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب الى عروق شعرية تنبسط في اجزاء الورقة حتى تغيب
عن البصر الا ان النبات مع هذا الكمال ناقص فانه لو اعوزه غذاء يساق اليه ويماس اصله جف ويبس ولم
يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب انما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال اليه والنبات عاجز
عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك ان خلق لك آلة الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر الى
حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الادراك فاولها حاسة اللمس وانما خلقت لك حتى اذا
مستك نار محرقة او سيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا اول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان الا وان
يكون له هذا الحس لانه ان لم يحس اصلا فليس بحيوان وانقص درجات الحس ان يحس بما يلاصقه فان
الاحساس بما يبعد منه احساس اتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين
فانها اذا غرز فيها ابرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض اذ لا يحس بالقطع
الا انك لو لم يخلق لك الا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد
عنك بل يماس بدنك فتحس به فتجذبه الى نفسك فافتقرت الى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم الا
انك تدرك به الرائحة ولا تدري انها جاءت عن اية ناحية فتحتاج ان تطوف كثيرا من الجوانب فربما
تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك الا هذا
فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها الا انه لو لم يخلق لك
الا هذا لكنت ناقصا اذ لا تدرك بهما ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب
وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وقد لا ينكشف الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك
السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء الجدران عند جريان الحركات ولانك لا تدرك بالبصر الا شيئا
حاضرا واما الغائب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف واصوات تدرك بحس السمع فاشتدت
اليه حاجتك فاحدث فيك وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن
لك حس الذوق اذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك انه موافق لك او مخالف فتاكله فتهلك كالشجرة يصب
في اصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم
يخلق في مقدمة دماغك ادراك آخر يسمى حسا مشتركا تتادى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه
ولولاه لطال الامر عليك فانك اذا اكلت شيئا اصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رايته مرة
اخرى فلا تعرف انه مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة

فكيف تمنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصوت فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصوت والمرارة جميعا
حتى اذا ادرك حكم بانه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله يشاركك فيه الحيوانات اذ للشاة هذه
الحواس كلها فلو لم يكن لك الا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتوخذ ولا تدري كيف
تدفع الحيلة وكيف تتخلص اذا قيدت وقد تلقي نفسها في البير ولا تدري ان ذلك يهلكها ولذلك قد
ياكل البهيمة ما يستلذه في الحال وتضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت اذ ليس لها الا الاحساس
بالحاضر فاما ادراك العواقب فلا فميزك الله تعالى واكرمك بصفة اخرى هي اشرف من الكل وهي العقل
فبه تدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها وما يضر في المال وبه تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتاليفها واعداد اسبابها
فتنتفع بعقلك في الاكل الذي هو سبب صحتك وهو اخس فوايد العقل واقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى
فيه معرفة الله تعالى ومعرفة افعاله ومعرفة الحكمة في عالمه وعند ذلك ينقلب فايدة الحواس في
حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس واصحاب الاخبار الموكلين بنواحي المملكة وقد وكلت واحدة
منها باخبار الالوان والاخرى باخبار الاصوات والاخرى باخبار الروايح والاخرى باخبار الطعوم
والاخرى باخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وهذه البرد والجواسيس يقتنصون
الاخبار من اقطار المملكة ويسلمونها الى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ
مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فياخذها
وهي مختومة اذ ليس له الا اخذها وحفظها فاما معرفة حقايق ما فيها فلا ولكن اذا صادف القلب العاقل
الذي هو الامير والملك سلم الانهاها اليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على اسرار المملكة
ويحكم فيها باحكام عجيبة لا يمكن استقصاوها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح
يحرك الجنود وهي الاعضاء مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في اتمام التدبيرات التي يعن له
فهذه سياقة نعمة الله تعالى عليك في الادراك ولا تظنن انا استوفيناها فان الحواس الظاهرة
هي بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من
عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها اغشية وبعض الاغشية كانها نسج العنكبوت
وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كانها بياض البيض وبعضها كانه الجمد ولكل واحدة من
الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدبير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة
من جملة العشرة او صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز الاطباء والكحالون عنه
فهذا من حس واحد فقس به حاسة السمع وساير الحواس بل لا يمكن ان يستوفي في حكم الله تعالى وانواع

٦٩٦

نعمته في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع ان جملته لا تزيد على جوزة صغيرة فما ظنك بجميع
البدن وسائر اعضائه وعجائبه فهذه مرامز الى نعم الله تعالى بخلق الادراكات **الطرف الثاني**
في اصناف النعم في خلق الارادات اعلم انه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق
لك ميل في الطبع وشوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى
الطعام وهو انفع الاشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا في
حقه فاضطررت الى ان يكون لك ميل الى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك يسمى
كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله فيك شهوة الطعام وسلطها عليك
ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرك الى التناول حتى تتناول وتغتذي فيبقى بالغذاء
وهذا مما يشاركك فيه الحيوان دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن اذا اخذت مقدار
الحاجة اسرفت واهلكت نفسك فخلق الله تعالى الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها لا كالزرع
فانه لا يزال يجتذب الماء اذا انصب في اسافله حتى يفسد فيحتاج الى الآدمي يتقدر غذاؤه بقدر
الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تاكل فيبقى به بدنك
خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق
الرحم وخلق دم الحيض وتاليف الجنين من النطفة والحيض وكيفية خلق الانثيين والعروق
السالكة اليهما من الفقار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة
العروق وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب انقسام مقعر الرحم الى قوالب تقع النطفة
في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الاناث وكيفية ادارتها في
اطوار خلقتها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة اجزائها الى راس ورجل وبطن
وظهر ويد وسائر الاعضاء لقضيت من انواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقتك كل العجب فضلا
مما تراه الآن ولكنا لسنا نريد ان نتعرض الا لنعم الله تعالى في الاكل وحده كيلا يطول الكلام
فاذا شهوة الطعام احد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تاتيك المهلكات من الجوانب
فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولاخذ
منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج الى داعية في دفعه
ومقابلته وهي داعية الغضب ثم لا يكفيك هذا اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر
وينفع في الحال اما في المآل فلا يكفي فيه هذه الارادة فخلق الله لك ارادة اخرى متسخرة تحت

اشارة العقل المعرّف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة
فتم بها اشتغالك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة بان هذه الشهوة مثلا تضرك لا تغنيك في الاحتراز عنها
ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة افردت بها عن البهائم اكراما لبني آدم
كما افردت بمعرفة العواقب وقد سمينا هذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا
اوفى من هذا

الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم ان الحس لا يفيد الا الادراك والارادة لا معنى لها الا الميل الى الطلب والهرب منه وهذا كـ[illegible]
ما لم يكن آلة الطلب والهرب فكم من زمن مشتاق الى شيء بعيد منه مدرك له لكنه لا يمكنه ان
يمشي اليه لفقد رجله او لا يمكنه ان يتناوله لفقد يده او لفلج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة
وقدرة في تلك الآلات على الحركة ليكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهة هربا ولذلك
خلق الله تعالى لك الاعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف اسرارها فمنها ما هو للطلب كالرجل
للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوان
وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر اعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج الى سرعة
الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له اربع قوائم ومنها ما له رجلان ومنها ما يدب
وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضاء التي بها يتم الاكل ليقاس عليها غيرها فنقول رؤيتك الطعام
من بعد وحركتك اليه لا تكفي ما لم تأخذه فافتقرت الى آلة باطشة فانعم الله عليك بخلق اليدين
وهما طويلتان فتمتد الى الاشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة للتحرك في الجهات فتمتد
وتنثني اليها فلا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل راس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم راس الكف
بخمسة اقسام هي الاصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الاربعة
الباقية ولو كانت مجتمعة او متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها كانت
لك مجرفة وان ضممتها وثنيتها كانت لك مغرفة وان جمعتها كانت لك آلة الضرب واذا نشرتها ثم
قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها اظفارا واسند اليها رؤس الاصابع حتى لا تتفتت
وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تحويها الاصابع فتأخذها برؤس اظفارك ثم هب انك
اخذت الطعام باليد فمن اين يكفيك هذا ما لم يصل الى المعدة وهي في الباطن فلا بد ان يكون
من الظاهر دهليز اليه حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا الى المعدة ثم ان وضعت الطعام
في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق اللحيين

من عظمين وركب فيهما الاسنان وطبق الاضراس من العليا على السفلى لتطحن بها الطعام طحنا ثم
الطعام تارة تحتاج الى القطع ثم يحتاج الى الطحن بعد ذلك فقسم الاسنان الى عريضة طواحين
كالاضراس والى حادة قواطع كالرباعيات والى ما يصلح للكسر كالانياب ثم جعل مفصل اللحيين منفصلا
بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتاخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ولولاه لما تيسر
ضرب احدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الاسفل متحركا
حركة دورية والاعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب صنع الله فان كل رحى تكون صنعة الخلق يثبت
منها الحجر الاسفل ويدور الاعلى الا هذه الرحى الذي صنعها الله تعالى اذ يدور منها الاسفل
على الاعلى فسبحانه ما اعظم شانه واتم برهانه واوسع امتنانه ثم هب انك وضعت الطعام في
فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام الى ما تحت الاسنان او كيف يستجره الانسان الى نفسها وكيف
يتصرف باليد في داخل الفم فانظر كيف انعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف في جوانب الفم
ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام الى الرحى هذا مع
ما فيه من فايدة الذوق وعجايب قوة النطق التي لسنا نطنب بذكرها ثم هب انك قطعت الطعام
وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع الا بان ينزلق الى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق
الله تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى تعجن به الطعام وانظر
كيف سخرها لهذا الامر فانك ترى الطعام من بعيد فتثور المسكينة للخدمة وتصب اللعاب حتى
يتحلب اشداقك والطعام بعد بعيد منك ثم هذا الطعام والمطحون المعجن من يوصله الى المعدة
وهو في الفم ولا تقدر على ان تدفعه باليد ولا في المعدة يد حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر
كيف هيأ الله تعالى المري والحنجرة وجعل راسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم ينطبق وينضغط
حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي الى المعدة في دهليز المري فاذا ورد الطعام على المعدة
فهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لان يصير عظما ولحما ودما على هذه الهيئة بل لا بد ان يطبخ
طبخا تاما يتشابه به اجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي
عليه وتنغلق عليه الابواب فلا يزال لابثا فيها حتى يتم بالهضم والنضج بالحرارة التي تحيط
بالمعدة من الاعضاء الباطنة اذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر الطحال ومن قدام الترب
ومن خلف لحم الصلب فيتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الاعضاء من الجوانب حتى ينطبخ
الطعام ويصير مايعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء

الشعير في تشابه اجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للغذاء فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري
من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي الى الكبد والكبد معجون
من طينة الدم حتى كانه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في اجزاء الكبد فينصب الطعام
الرقيق النافذ فيها وينتشر في اجزائها حتى يستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر
فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويصلح له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الاعضاء الا ان حرارة
الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد من جميع ما يطبخ احديهما
شبيهة بالدردي والعكر وهي الخلط السوداوي والاخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء
ولو لم ينفصل عنهما الفضلتان فسد مزاج الاعضاء فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل
واحد منهما عنقا ممدودا الى الكبد داخلا في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب
الطحال العكر السوداوي فيبقى الدم صافيا ليس فيها الا زيادة رقة ورطوبة لمائية من المائية
ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا الى الاعضاء فخلق الله تعالى
الكليتين واخرج من كل واحدة عنقا طويلا الى الكبد ومن عجايب حكمة الله تعالى ان عنقها
ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الداخلة من حدبة الكبد حتى يجذب ما رقتها
بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد اذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من
العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلث نقيا
من كل ما يفسد الغذاء ثم ان الله تعالى اطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع اقساما
وقسم كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من القرن الى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم
الصافي فيها ويصل الى ساير الاعضاء حتى يصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار
بحيث لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذاء بالرشح الى ساير الاجزاء ولو حلت بالمرارة آفة فسد
الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وان حل بالطحال آفة فلم
يجذب الخلط السوداوي حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها ثم انظر
الى حكمة الفاطر الحكيم حيث رتب منافع على هذه الفضلات الثلث الخسيسة اما المرارة فانها
تجذب باحد عنقيها وتقذف بعنق آخر الى الامعاء ليحصل به في ثفل الطعام رطوبة مزلقة
وتحدث في الاعضاء لذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل ويتزلق ويكون صفرته
لذلك واما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة احالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها في

٣٦٨

كل يوم شيئا الى فم المعدة فيحركها لشهوة بحموضته وينبهها وينزها ويخرج الباقي مع الثفل واما الكلية فانها تغتذي مما في تلك المائية من دم وترسل الباقي الى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعمة الله تعالى في الاسباب التى اعدت للاكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد الى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من الاعضاء الرئيسة الى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب الى ساير البدن التى وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد الى ساير البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الاعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها واوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج اليه للاكل ولامور آخر سواه بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها الا وفيه حكمة او اثنتان او ثلث او اربع الى عشر وزيادة وكل ذلك نعمة من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك او تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر الى نعمة الله اولا لتقوى بها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله الا الاكل وهي اخسها ثم لا تعرف منها الا انك تجوع فتاكل والحمار ايضا يعلم انه يجوع فياكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستريح فيقمص ويرمح فاذا لم تعرف انت من نفسك الا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر الله تعالى عليك وهذا الذى رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر من بحار جمال الله تعالى فقط فقس على الاجمال ما اهملنا من جملة ما عرفنا حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى اقل من قطرة من بحر الا ان من علم شيئا من هذا ادرك شمة من معاني قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهي الى جزء من اجزاء البدن الا ويحدث عند وصوله في تلك الاجزاء ما يحتاج اليه من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذى يدار في اطراف البيت فلا يصل الى جزء الا ويحصل بسببه وصول ضوء على اجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الاطباء الروح ومحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الاسود الذي في باطن القلب كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحيوة الظاهرة في ساير اعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما ان السراج اذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح ايضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه وكما ان الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت

فينطفي السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تتشبث به هذا البخار في القلب قد تحترق بفرط حرارة
القلب فينطفي مع وجود الغذاء فانه لا يقبل الغذاء الذي يبقى الروح به كما لا يقبل الرماد الزيت تبقى لا
تتشبث به النار وكما ان للسراج تارة ينطفي بسبب من داخله كما ذكرنا وتارة بسبب من خارج كهبوب
ريح او اطفاء انسان فكذلك انطفاء الروح تارة تكون بسبب من داخل فهو احتراق الدم الذي
يتشبث به وتارة يكون بسبب من خارج وهو القتل كما ان انطفاء النار بفناء الزيت او بفساد
الفتيلة او بريح عاصف او باطفاء انسان لا يكون الا باسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون
كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما ان انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فتكون ذلك اجله
الذي اجل له في ام الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما ان السراج اذا انطفاء اظلم البيت كله فالروح
اذا انطفاء اظلم البدن كله وفارقته انواره التي كان يستفيدها من الروح وهي انوار الاحساسات
والقدر والارادات وساير ما يجمعها معنى لفظ الحيوة فهذا ايضا رمز وجيز الي عالم آخر من علوم
نعمة الله تعالى وعجايب صنعته وحكمته ليعلم انه لو كان البحر مدادا لكلماته لنفد البحر قبل ان
تنفد كلماته فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا فان قلت فقد وصفت الروح
ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد على ان قال الروح من امر ربي فلم
يصفه على هذا الوجه فاعلم ان هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق
لمعاني كثيرة لا نطول بذكرها ونحن انما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الاطباء روحا
وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الاعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوي في
الاعضاء به حتى اذا خدر بعض الاعضاء علموا ان ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا
يعالجون موضع الخدر بل منابت الاعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان
هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأذى من القلب الي ساير الاعضاء
وما يرتقي اليه معرفة الاطباء فامره سهل واما الروح التي هي الاصل وهي التي اذا فسدت فسد لها
ساير الجسد فذلك سر من اسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه الا ان يقال هو امر
رباني كما قال تعالى قل الروح من امر ربي والامور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها
عقول اكثر الخلق واما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن ادراك
الاصوات وتتزلزل في ذكر مبادي وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة
في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر اعلى واشرف من العقل يشرق ذلك النور

في عالم الولاية والنبوة ونسبته الى العقل نسبة العقل الى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق
اطوارا فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ
المعقولات ولا يدرك ما وراءها لان ذلك طور لم يبلغه بعد وانه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة
عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك المشرب اعز من ان يكون شريعة
لكل وارد بل لا يطلع عليه الا احد بعد واحد ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال
وميدان رحب وعلى اول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الامر الرباني فمن لم يكن له على العتبة جواز
ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال ان يصل الى الميدان فكيف بالاستشهاد الى ما وراءه من المشاهدات
العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه واني يصادف هذا في خزانة الاطباء
ومن اين للطبيب ان يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالاضافة الى هذا الامر
الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالاضافة الى الملك فمن ادرك الروح الطبي فظن انه
ادرك الامر الرباني كان كمن راى الكرة فظن انه راى الملك ولا شك في ان خطاه فاحش وهذا
الخطاء افحش منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها يدرك مصالح الدنيا
عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الامر لم ياذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ان يتحدث
عنه بل امر ان يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الامر شيئا لكن
ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته اما نسبته ففي قوله من امر ربي واما فعله فقد ذكر في قوله يا ايتها
النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ولنرجع الى الغرض فانا
المقصود ذكر نعم الله في الاكل وقد ذكرنا بعض نعم الله في الات الاكل الطرف الرابع في نعم الله في
الاصول التي منها تحصل الاطعمة وتصير صالحة لان يصلحها الادمي بعد ذلك بصنعته اعلم ان الاطعمة
كثيرة ولله تعالى في خلقها عجايب كثيرة لا تحصى واسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك في كل طعام
مما يطول فان الاطعمة اما ادوية واما فواكه واما اغذية فلناخذ الاغذية فانها الاصل ولناخذ من
جملتها حبة من البر ولندع ساير الاغذية فنقول اذا وجدت حبة او حبات فلو اكلتها فنيت
وبقيت جايعا فما احوجك الى ان تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بجميع حاجتك فخلق
الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما تغتذي به كما خلق فيك فان النبات انما يفارقك في
الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لانه يغتذي بالماء ويجتذب الى باطنه بواسطة العروق
كما تغتذي انت وتجتذب ولسنا نطنب في ذكر الات النبات في اجتذاب الغذاء الى نفسه ولكن

نيشر الي غذائه فنقول كما ان الخشب والتراب لايغذيك بل تحتاج الي طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذي
بكل شئ بل تحتاج الي شئ مخصوص بدليل انه لو تركتها في البيت لم تزد لانه لم تختلط بها الا الهواء
ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في ارض لا ماء فيها لم تزد بل لابد
من ارض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا واليه الاشارة بقوله تعالي فلينظر الانسان
الي طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا ثم لا يكفي الماء والتراب اذ لو تركت في ارض
نديّة صلبة متراكمة لم ينبت لفقد الهواء فيحتاج الي تركها في ارض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء
اليها ثم الهواء لا يتحرك اليها بنفسه فيحتاج الي ريح يحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الارض حتى
ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله تعالي وارسلنا الرياح لواقح وانما القاحها في [illegible] الازدواج
بين الهواء والماء والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء [illegible] يحتاج الي حرارة
الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه الي هذه الاربعة فانظر الي ماذا يحتاج كل واحد اذ
يحتاج الماء لينساق الي ارض الزراعة الي البحار والعيون والانهار والسواقي فانظر كيف خلق
البحار وفجر العيون والانهار واجري منها ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر
كيف خلق الله الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه الي اقطار العالم وهي سحب ثقال
لها حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الارض في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة
وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ينفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد
وهلك الزروع والمواشي ونعم الله تعالي في الجبال والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاها
واما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف
خلقتها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الي
البرد والحر عند الحاجة الي الحر فهذه احدي حكم الشمس والحكم فيها اكثر من ان تحصى ثم النبات
اذا ارتفع عن الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فيفتقر الي رطوبة تنضجها فانظر كيف
خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه
ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم وكذلك لو كانت الاشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر والكواكب
عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى ان الشجرة الصغيرة اذا اظلتها شجرة كبيرة تفسد وتعرف ترطيب
القمر بان يكشف راسك له في الليل فيغلب على راسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب راسك
يرطب الفواكه ايضا ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فا

كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلوا واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصايها
ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما
لاعبين وقوله ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك وكما انه ليس في اعضاء بدنك عضو الا لفايدة فليس
في اعضاء بدن العالم عضو الا لفايدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد اجسامه كالاعضاء له وهي
متعاونة تعاون اعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي ان تظن ان الايمان بان
النجوم والشمس والقمر المسخرات بامر الله تعالى في امور جعلت اسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع
لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهي عنه في النجوم امران احدهما ان
يصدق بانها فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها
وهذا كفر والثاني تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك في دركها كافة
الخلق لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم احكام النجوم كان لبعض الانبياء ثم اندرس ذلك العلم
فلم يبق الا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطاء فاعتقاد كون الكواكب اسبابا بالآثار
يحصل بخلق الله تعالى في الارض وفي النبات والحيوان ليس بقادح في الدين بل هو الحق
ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ولذلك اذا كان معك
ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك اخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمي الهواء
لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس واذا سالت عن تغير
وجه الانسان فقال قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه وقس بهذا
ساير الآثار بعضها معلومة وبعضها مجهولة فالمجهولة لا يجوز دعوى العلم فيها والمعلومة بعضها
معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضها لبعض الناس كحصول الزكام
بشروق القمر فاذا الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولقد نظر رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقرا قوله ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرا
هذه الآية ثم مسح بها سبلته ومعناه ان يقرا ويترك التامل ويقتصر من فهم ملكوت السموات
على ان يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما يعرفه البهايم ايضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي
مسح سبلته بها فلله في ملكوت السموات والارض والآفاق والانفس والحيوانات والنبات
عجايب يطلب معرفتها المحبون لله فان من احب عالما لم يزل مشغوفا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد
الوقوف على عجايب علمه حبا له فكذلك الامر في عجايب صنع الله تعالى ان العالم كله من تصنيفه بل

تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده. فان تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف بل من الذي سخر المصنف لتاليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رايت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تتعجب من اللعب فانها خرق محركة لا تتحرك ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا المقصود ان غذا النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك التي هي مركوزة فيها ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك الى اسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما اهملناه. ولنقتصر على هذا من ذكر اسباب غذاء النبات

الطرف الخامس في نعمة الله تعالى في الاسباب الموصلة للاطعمة اليك اعلم ان هذه الاطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد في بعض الاماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص المال وشره الربح مع انهم لا يغنيهم شيئا في غالب الامر بل يجمعون فاما ان تغرق بهم السفن او ينهبها قطاع الطريق او يموتون في بعض البلاد فياخذها السلاطين واحسن احوالها ان ياخذها ورثتهم وهم اشد اعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدايد في طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغرروا بالارواح في ركوب البحار فيحملون الاطعمة وانواع الحوايج من اقصى المشرق والغرب اليك وانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البراري وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف امدت بسرعة الحركة والى الحمار كيف جعل صبورا على التعب والى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سخرهم الله بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا اليك الاطعمة وساير الحوايج وتامل ما يحتاج اليه الحيوانات من اسبابها وادواتها وما يحتاج اليه السفن وقد خلق الله تعالى جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق الحاجة واحصاء ذلك غير ممكن ويتمادي هذا الى امور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز

الطرف السادس في اصلاح الاطعمة اعلم ان الذي ينبت من الارض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن ان يقضم ويوكل وهو كذلك بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى امور اخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام طويل فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى ما يحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح

للاكل من بعد القاء البذر في الارض فاول ما يحتاج اليه الحراث ليزرع ويصلح الارض ثم الثور الذي
يثير الارض والفدان وجميع اسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش
ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتامل عدد هذه الافعال التي ذكرناها وما لم
نذكرها وعدد الاشخاص القائمين بها وعدد الالات التي يحتاج اليها من الحديد والحجر والخشب
وغيره وانظر الي اعمال الصناع في اصلاح الالات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيره
وانظر الي حاجة الحداد الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله الجبال والاحجار والمعادن
وكيف جعل الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت ان رغيفا واحدا لا يستدير
بحيث يصلح لاكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه الف صانع فابتدئ من الملك الذي يزجي السحاب
لينزل الماء الي اخر الاعمال من جهة الملائكة حتى ينتهي النوبة الي عمل الانسان فاذا استدار
طلبه قريب من سبعة الاف صانع كل صانع صناعته اصل من اصول الصنايع التي يتم بها مصلحة
الخلق ثم تامل كثرة اعمال الانسان في تلك الالات حتى ان الابرة التي هي آلة صغيرة فايدتها
خياط اللباس الذي يمنع البرد عنك لا يكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا ان تمر على يدي الابار
خمسة وعشرين مرة يتعاطى في كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت
الي عمل المنجل الذي يحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه افلا ترى كيف هدى
الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنايع الغريبة فانظر
الي المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق احدهما على الاخر فيتناولان الشيء معا
ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا الي استنباط
الطريق فيه بفكرنا ثم الي استخراج الحديد من الحجر والي تحصيل الالات التي يعمل بها المقراض
وعمر الواحد منا عمر نوح واوتي اكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في اصلاح هذه
الالة وحدها فضلا عن غيرها فسبحان من الحق ذوي البصاير بالعميان وسبحان من منع التبيين
مع هذا البيان فانظر الان لو خلا بلدك عن الطحان او عن الحداد او عن الحجام الذي عمله
اخس الاعمال وعن الحايك او عن واحد من جملة الصناع ما يصيبك من الاذى وكيف يضطرب
عليك امورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيته وتمت به حكمته
ولنوجز القول في هذه الطبقة ايضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء
في اصلاح المصلحين اعلم ان هؤلاء الصناع المصلحين للاطعمة وغيرها

لتفرقت آراوهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم
ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف الف الله
بين قلوبهم وسلط الانس والمحبة عليهم لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم
فلاجل الالفة وتعارف الارواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن
والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الاسواق والخانات وساير اصناف البقاع مما يطول
احصاوه ثم هذه المحبة تزول باغراض تتزاحمون عليها وتتنافسون فيها ففي جبلة الانسان
الغيظ والحسد والمنافسة وذلك يؤدي الي التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله عز وجل
السلاطين وامدهم بالقوة والعدة والاسباب والقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى اذعنوا
لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين الي طريق اصلاح البلد حتى رتبوا اجزاء البلد كانها
شخص واحد يتعاونون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الروساء والقضاة
والشحن وزعما الاسواق واضطروا الخلق الي قانون العدل والزموهم التساعد والتعاون
حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وساير اهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار
الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم وانضباطهم
واجتماعهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع اعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض
وانظر كيف بعث الانبيا حتى اصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع
في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من احكام الامامة والسلطنة
واحكام الفقه ما اهتدوا به الي صلاح الدنيا فضلا عما ارشدوهم اليه من اصلاح الدين
وانظر كيف اصلح الله الانبياء بالملايكة وكيف اصلح الملايكة بعضهم ببعض الي ان ينتهي الي
الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالي فالخباز يخبز العجين والطحان يطحن
الحب والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا
جميع ارباب الصناعات المصلحين لآلات الاطعمة والسلطان يصلح الصناع والانبياء
يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلما يصلحون السلاطين والملايكة يصلحون الانبياء
الي ان ينتهي الي الحضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشا كل
ترتيب وتاليف وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ
قال تعالي والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا الي معرفة هذه النبذة اليسيرة

من نعم الله تعالى ولولا عزله ايانا عن ان نطمع بعين الطمع الى الاحاطة بكنه نعمه لتشوفنا الى طلب
الاحاطة والاستقصاء ولكنه عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فان
تكلمنا فباذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره انقبضنا اذ لا معطي لما منع ولا مانع لما اعطى لانا في
كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار
فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار واسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار **الطرف الثامن** في بيان
نعمة الله في خلق الملائكة ليس يخفى عليك ما سبق من نعمه في الملائكة باصلاح الانبياء وهدايتهم وتبليغ الوحي
اليهم ولا تظنن انهم مقتصرون في افعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتب مراتبها
تنحصر بالجملة في ثلث طبقات الملائكة الارضية والسماوية وحملة العرش فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع
الى الاكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما واعلم ان كل جزء
من اجزاء بدنك بل من اجزاء النبات لا يتغذى الا بان يوكل به سبعة من الملائكة هو اقل الاعداد
الى عشر الى مائة الى ما وراء ذلك وبيانه ان معنى الغذاء ان يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف
وذلك الغذاء يصير دما في آخر الامر ثم يصير لحما وعظما فاذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك واللحم والدم
اجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بانفسها ولا تتغير بانفسها ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها
في اطوارها كما ان البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مخبوزا الا بصناع والصناع في
الباطن هم الملائكة كما ان الصناع في الظاهر اهل البلد وقد اسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلا
ينبغي ان يغفل عن نعمة الباطنة فاقول لا بد من ملك يجذب الغذاء الى جوار اللحم والعظم فان الغذاء
لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من
رابع يكسوه صورة اللحم او العظم والعرق ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل من حاجة الغذاء
ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا
ولا بد من سابع يرعى المقادير في الالصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا
يبطل عرضه وبالمجوف ما لا يزيل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء
على انف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر انفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته بل ينبغي ان يسوق الى
الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته ما يليق
بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض
المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق الى راس الصبي وساير بدنه من

الغذاء مما ينمو به الا احدي الرجلين مثلا ليبقي تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت
تري شخصا في ضخامة رجل وعليه رجل واحدة كانها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فرعاية هذه الهندسة
في القسمة مفوضة الي ملك من الملايكة ولا تظنن ان الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه
الامور علي الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملايكة الارضية وقد شغلوا بك وانت في النوم
تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من اجزايك التي
لا تتجزي حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب الي اكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للايجاز
والملايكة الارضية مددهم من الملايكة السماوية علي ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه الا الله تعالي ومدد
الملايكة السماوية من حملة العرش والمنعم علي جميعهم بالتاييد والهداية والتسديد هو المهيمن القدوس
المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام
والاخبار الواردة في الملايكة الموكلين بالسموات والارض واجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة
من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الي جانب اكثر من ان تحصي فلذلك تركنا الاستشهاد به فان قلت
فهلا فوضت هذه الافعال الي ملك واحد ولم افتقر الي سبعة املاك والحنطة ايضا تحتاج الي من
يطحن اولا ثم الي من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا الي من يصب الماء عليه ثالثا ثم الي من يعجن
رابعا ثم الي من يقطعه كرات مدورة خامسا ثم الي من يرفعها رغفانا عريضة سادسا ثم الي من
يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولي جميع ذلك رجل واحد ويستقل به فهلا كانت اعمال الملايكة
باطنا كاعمال الانس ظاهرا فاعلم ان خلقة الملايكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم الا وهو
وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد واليه الاشارة
بقوله تعالي وما منا الا له مقام معلوم فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة
كل واحد وفعله عليه مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في ادراك الاصوات ولا الشم يزاحمها
ولا هما ينازعان الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش باصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم
به اليد وقد تضرب غيرك براسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولي
بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل وسببه اختلاف
صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك
تري الانسان يطيع الله مرة ويعصيه اخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملايكة
بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يومرون.

ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكع منهم راكعا ابدا والساجد ساجدا ابدا والقايم ابدا لا اختلاف
في افعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة
فيهم يمكن ان تشبه بطاعة اطرافك لك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن الصحيح
تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك اخرى بل كانه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا
باشارتك فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه اذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة
فتحا واطباقا والملايكة احياء عالمون بما يعملون فاذا هي نعمة الله عليك في الملايكة الارضية والسماوية
وحاجتك اليها في غرض الاكل فقط ما عداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها فهذه
طبقة اخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن احصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت
مجامع الطبقات فاذا قد اسبغ الله عليك النعمة ظاهرة وباطنة ثم قال وذروا ظاهر الاثم وباطنه فترك
باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار الشر للناس الى غير ذلك من آثام
القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل اقول كل من عصى الله
ولو في طرفة واحدة بان فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة الله تعالى عليه في
السموات والارض والحيوان والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد ثم قد تم به انتفاعه وان
انتفع غيره ايضا فان لله تعالى في كل طرفة نعمتين في نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن عضلات
ولها اوتار ورباطات متصلة باعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن
الاسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله في ترتيبها صفا واحدا مانعا للهوام من الدبيب الى
باطن العين ومتشبثا للاقذاء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين
اصلها ومع اللين قوم نصبها وله في اشتباك الاهداب نعمة اعظم من الكل وهو ان غبار الهواء
قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما يتشابك الاهداب فينظر من وراء
شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم ان
اصاب الحدقة غبار فقد خلق اطراف الاجفان حادة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة
فتطبقها مرة او مرتين وقد انصقلت الحدقة عن الغبار وخرجت الاقذاء الى زوايا العين والاجفان
والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدان فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما عن
الغبار واذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لا فتقار الى تطويل يزيد على اصل هذا الكتاب
ولعلنا نستانف له كتابا مقصودا فيه ان امهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجايب صنع الله

فلنرجع الي غرضنا فنقول قد كمن نعمة العين نعمة الله تعالي في الاجفان ولا تقوم الاجفان الا بالعين
ولا العين الا بالراس ولا الراس الا بجميع البدن ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض
والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شي من ذلك الا بالسموات ولا السموات الا
بالملايكة فان الكل كالشي الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها
ببعض فاذا قد كمن كل نعمة الله تعالي في الوجود من منتهي الثريا الي منتهي الثري فلم يبق فلك
ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد الا ويلعنه ولذلك ورد في الاخبار ان البقعة التي يجتمع فيها
الناس اما ان تلعنهم اذا تفرقوا او تستغفر لهم وكذلك ورد ان العالم يستغفر له كل شي حتي الحوت في البحر
وان الملايكة يلعنون العصاة في الفاظ كثيرة لا يمكن احصاوها وكل ذلك اشارة الي ان العاصي
بطريقة واحدة علي جميع ما في الملك والملكوت وقد اهلك نفسه الا ان يتبع السيئة بحسنة
تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فعسي الله ان يتوب عليه ويتجاوز عنه واوحي الله تعالي الي ايوب
عليه السلم ما من عبد لي من الآدميين الا وله ملكان فاذا شكرني علي نعمايي قال الملكان اللهم
زده نعما علي نعم فانك اهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين وكفي بالشاكرين علو رتبة عندي
اني اشكر شكرهم وملايكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم وكما عرفت ان في كل
طرفة عين نعما كثيرة فاعلم ان في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين اذ بانبساطه يخرج الدخان
المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء الي القلب ولو سد متنفسه
لانقطع قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم والليلة اربع وعشرون ساعة
وفي كل ساعة قريب من الف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فعليك في كل لحظة الاف
الآف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك بل في كل جزء من اجزاء العالم فانظر هل يتصور احصاء ذلك ام لا
ولما انكشف لموسي عليه السلم حقيقة قوله تعالي وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال الهي كيف
اشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان ان لينت اصلها وان طمنت راسها ولذلك ورد في
الاثر من لم يعرف نعمة الله عز وجل الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع
الي المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به فان البصير لا يقع عينه في العالم علي شي ولا يلم
خاطره بموجود الا ويتحقق ان لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير
مطمع

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم انه لم يقصر الخلق عن شكر
النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة

الا بعد معرفتها ثم ان عرفوا نعمة ظنوا ان الشكر عليها ان يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا ان
معنى الشكر ان يستعمل النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها وهي طاعة الله تعالى فلا يمنع من الشكر
بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان اما الغفلة عن النعم فلها اسباب
واحد اسبابها ان الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع احوالهم نعمة فلذلك
لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع احوالهم فلا يرى كل احد
لنفسه اختصاصا فلا يعده نعمة فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو اخذ بخنقهم لحظة حتى
انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار او في بئر فيه هواء ثقيل برطوبة الماء ماتوا
غما فان ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه وهذا غاية الجهل اذ
صار شكرهم موقوفا على ان تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال والنعمة في جميع الاحوال
اولى بان تشكر من النعمة في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره الا ان تعمى عينه فعند ذلك لو
اعيد عليه احس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عمت الخلق وبذلت في جميع
الاحوال فلم يعدها الجاهلون نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه ان يضرب دائما حتى
اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا
يشكرون الا المال الذي يتطرق اليه الاختصاص من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى
عليهم كما شكا بعضهم فقره الى بعض ارباب البصائر واظهر شدة اغتمامه به فقال له ايسرك
انك اعمى ولك عشرة الاف درهم قال لا قال ايسرك انك اقطع اليدين والرجلين ولك عشرون الفا
قال لا فقال ايسرك انك مجنون ولك عشرة الاف درهم فقال لا قال الا تستحيي ان تشكو مولاك وله عندك
عروض بخمسين الفا وحكي ان بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن
قائلا يقول له تود انا انسيناك سورة الانعام وان لك الف دينار فقال لا فقال سورة هود قال لا
قال فسورة يوسف قال لا قال فمعك قيمة ما يبلغ مائة الف وانت تشكو فاصبح وقد سري عنه
ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء يشربه فقال عظني فقال لو لم تعط هذه
الشربة الا ببذل جميع مالك والا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال ولو لم تعط الا
بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فبهذا يتبين ان نعمة
الله على العبد في شربة ماء عند العطش اعظم من ملك الارض كلها واذا كانت الطباع مائلة الى
اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر اشارة وجيزة الى

النعم الخاصة فنقول ما من عبد الا ولو انعم النظر في احواله رأى من الله نعمة او نعما كثيرة
لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها احد وذلك يعترف
به كل عبد في ثلثة امور في العقل والخلق والعلم اما العقل فما من عبد لله تعالى الا وهو
راض عن الله تعالى في عقله يعتقد انه اعقل الناس وقلما يسال الله تعالى العقل وان من
شرف العقل ان يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به فاذا كان اعتقاده انه اكمل الناس
عقلا فواجب عليه ان يشكره لانه ان كان كذلك فالشكر واجب وان لم يكن ولكنه يعتقد انه
كذلك فهو نعمة فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكر عليه فان اخذ الكنز من حيث
لا يدري بقي فرحه بحسب اعتقاده وبقي شكره لانه في حقه كالباقي واما الخلق فما من عبد
الا ويرى من غيره عيوبا يكرهها واخلاقا يذمها وانما يذمها من حيث انه يرى نفسه بريا عنها
فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي ان يشتغل بذكر الله تعالى اذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق
السيء واما العلم فما من احد الا ويعرف من بواطن امور نفسه وخفايا افكاره ما هو منفرد به ولو
انكشف الغطاء حتى اطلع عليه احد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع عليه الناس كافة فاذا
لكل عبد علم بامر خاص لا يشاركه فيه احد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي ارسله
على وجه مساويه فاظهر الجميل وستر على القبيح واخفى ذلك عن اعين الخلق وخصص علمه
حتى لا يطلع عليه احد فهذه ثلث من النعم خاصة يعترف بها كل عبد اما مطلقا واما في
بعض الامور فلننزل عن هذا الى طبقة اخرى اعم منها قليلا فنقول ما من عبد الا وقد رزقه
الله تعالى في صورته او شخصه او اخلاقه او صفاته او اهله او ولده او مسكنه او بلده او رفيقه
او اقاربه او عزه او جاهه او في سائر محابه امورا لو سلب ذلك منه واعطي ما خصص به غيره
لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا او انسانا لا بهيمة وذكرا
لا انثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان هذه خصايص وان كان فيها عموم ايضا فان
هذه الاحوال لو بدلت باضدادها لم يرض به بل له امور لا يبدلها باحوال الآدميين ايضا
وذلك اما ان يكون بحيث لا يبدله بما خص به احد من الخلق او لا يبدله بما خص به الاكثر فان
كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله احسن من حال غيره فان كان لا يعرف شخصا
يرتضي لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه اما على الجملة واما في امر خاص فاذا لله تعالى عليه
نعمة ليست له على احد من عباده سواه وان كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر

الي عدد المغبوطين فانه لامحالة يراهم اقل بالاضافة الي غيرهم فيكون من دونه في الحال اكثر
بكثير ممن هو فوقه فما باله ينظر الي من فوقه ليزدري نعم الله تعالي علي نفسه ولا ينظر الي من هو
دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوي دنياه بدينه اليس اذا لامته نفسه علي سيئة
يقارفها يعتذر اليها بان في الفساق كثرة فينظر ابدا في الدين الي من هو دونه لا الي من
فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال اكثر الخلق في الدين خيرا منه وحاله
في الدنيا خير من حال اكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ومن نظر في
الدنيا الي من هو دونه ونظر في الدين الي من هو فوقه كتبه الله عز وجل صابرا شاكرا ومن
نظر في الدنيا الي من فوقه وفي الدين الي من دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من
اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالي علي نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة
والايمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
من لم يستغن بآيات الله فلا اغناه الله وهذا اشارة الي نعمة العلم وقال صلى الله عليه وسلم
ان القرآن هو الغني الذي لا غني بعده ولا فقر معه وقال من آتاه الله القرآن فظن ان احدا
اغني منه فقد استهزأ بآيات الله وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال
صلى الله عليه وسلم كفي باليقين غني وقال بعض السلف يقول الله تعالي ان عبدا اغنيته عن
ثلث لقد اتممت عليه نعمتي عن سلطان ياتيه وعن طبيب يداويه وعما في يد اخيه وعبر الشاعر
عن هذا اذ القوت ياتي لك والصحة والامن واصبحت اخا فقر فلا فارقك الحزن بل ارشق العبارات
وافصح الكلمات كلمات افصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعني فقال
من اصبح آمنا في سربه معافا في بدنه وعنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومهما تاملت
الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتالمون من امور وراء هذه الثلث مع انها وبال عليهم
ولا يشكرون نعمة الله تعالي في هذه الثلث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الايمان الذي به وصولهم
الي النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغي ان لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان بل
نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من الشرق الي الغرب
من اموال واتباع وانصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم ياخذه وذلك
لرجائه ان نعمة العلم يفضي به الي قرب الله تعالي في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه
بكماله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان

لا يأخذه لعلمه بان لذة العلم دائمة لا تنقطع وثابتة لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وانها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة ومكدرة ومشوشة ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا ألمها بلذتها ولا فرحها بغمها هكذا روي الى الآن وهكذا يكون ما بقي الزمان اذ ما خلقت الدنيا ولذاتها الا ليجتلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليه واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دائم وتعب قائم وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر اليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعة ارباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي ان يقول المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها ايضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع المقصود عنها وتألم المعرض يفضي الى لذة في الآخرة وتألم المقبل عليها يفضي الى آلام في الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعمة الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعمة الله تعالى فعساها تشكر فاقول اما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا اليه من اصناف نعم الله تعالى العامة واما القلوب التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصت بها او شعرت بالبلاء معها فسبيله ان ينظر الرجل ابدا الى من هو دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد انواع بلاء الله عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الامراض ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع اطرافهم ويعذبون بانواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الامن ويحضر المقابر فيعلم ان احب الاشياء الى الموتى ان يردوا الى الدنيا ولو يوما واحدا اما من عصى فليتدارك واما من اطاع فليزيد في طاعته فان يوم القيمة يوم التغابن فالمطيع مغبون اذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت اقدر على ان اكثر من هذه الطاعات فما اعظم غبني اذ ضيعت بعض الاوقات في المباحات واما العاصي فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر وعلم ان احب الاشياء اليهم ان يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيعرف بقية العمر الى ما تشتهي اهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة

لنعمة الله في بقية العمر بل في الامهال في كل نفس من الانفاس واذا عرف تلك النعمة شكر بان يصرف العمر الى ما خلق العمر لاجله وهو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج القلوب الغافلة لتشعر بنعمة الله تعالى عليها فعسيها تشكر ولقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذا الطريق تاكيدا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا وكان يضع غلا على عنقه وينام في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ثم يقوم ويقول يا ربيع قد اعطيت ما سألت فاعمل قبل ان تسأل الرجوع فلا ترد ومما ينبغي ان يعالج به القلوب البعيدة عن الشكر ان تعرف ان النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل يقول عليكم بمداومة الشكر على النعمة فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر ما عظمت نعمة الله عز وجل على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فهذا تمام الشكر والثالث من اركان الشكر الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط احدهما بالآخر بيان اجتماع الصبر والشكر على شي واحد لعلك تقول ما ذكرته في النعم اشارة الى ان لله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير الى ان البلاء لا وجود له اصلا فما معنى الصبر اذا وان كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى المدعون انا نشكر على البلاء فضلا من الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عنه والصبر يستدعي الما والشكر يستدعي فرحا وهما متضادان وما معنى ما ذكرتموه من ان لله في كل ما اوجده نعمة على عباده. فاعلم ان البلاء موجود كما ان النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لانهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق ان النعمة تنقسم الى نعمة مطلقة من كل وجه اما في الآخرة فسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى واما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما والى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه آخر فكذلك البلاء ينقسم الى مطلق ومقيد اما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى اما مدة واما ابدا واما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي الى البلاء المطلق واما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وساير انواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لان الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وهكذا المعصية بل حق الكافر

فالشكر المطلق للنعم المطلقة اما البلاء المطلق في الدنيا

ان يترك كفره وكذلك في حق العاصي نعم قد لا يعلم الكافر انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتالم بها بسبب غشية او غيرها فلا صبر عليها والعاصي يعرف انه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم بلاؤه والمه لا يؤمر بالصبر بل يؤمر بازالة الالم وانما يجب الصبر على الم ليس الى العبد ازالته فاذا يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز ان يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور ان يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغني مثلا يجوز ان يصير سبب هلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل ويقتل اولاده والصحة ايضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية الا ويجوز ان يصير بلاء ولكن بالاضافة اليه فكذلك ما من بلاء الا ويجوز ان يصير نعمة ولكن بالاضافة الى حاله فرب عبد يكون له الخيرة في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض وقال تبارك وتعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وقال صلعم ان الله يحمي العبد من الدنيا وهو يحبه كما يحمي احدكم مريضه وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الاقسام الستة عشر من النعم سوى الايمان والخلق الحسن فانها يتصور ان تكون بلاء في حق بعض الناس فيكون اضدادها نعما في حقهم اذ قد سبق ان المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الامور بلاء وفقدها نعمة مثاله جهل الانسان باجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه عيشه وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه واقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال المه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه اذ لو عرفه ابغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالصفات المرضية والخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله وهو يضطر الى ايذائه واهانته ولو عرف وآذى كان اثمه اعظم لا محالة فليس من آذى نبيا او وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ومنها ابهام الله تعالى امر القيمة وابهامه ليلة القدر وساعة الجمعة وابهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا ان لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل احد ولا يستثنى عنه بالظن الا الالام التي يخلقها في بعض الناس وهي ايضا قد تكون نعمة في حق غير المتالم وان لم تكن نعمة في حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يد

نفسه ووسمه بشريته فانه يتالم به وهو عاص به والم الكفار في النار فهي نعمة ايضا ولكن في حق
غيرهم من العباد لان في حقهم مصايب قوم عند قوم فوايد ولولا ان الله عز وجل خلق العذاب
وعذب به طايفة لما عرف المتنعمون قدر نعمته ولا كثر فرحهم بها ففرح اهل الجنة انما
يتضاعف اذا تفكروا في آلام اهل النار اما تري اهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس
مع شدة حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى
زينة السماء وهي احسن من كل بستان لهم في الارض يجتهدون في عمارتها ولكن زينة السماء
لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من ان الله تعالى لم يخلق شيئا
الا وفيه حكمة ولا خلق شيئا الا وفيه نعمة اما على جميع عباده او على بعضهم فاذا في خلق الله البلا
ايضا نعمة اما على المبتلى واما على غير المبتلى فاذا كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق
ولا نعمة مطلقة يجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما
متضادان فكيف يجتمعان اذ لا صبر الا على غم ولا شكر الا على فرح فاعلم ان الشي الواحد قد يغتم
به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح
وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة امور ينبغي ان يفرح العاقل بها
ويشكر عليها احدها ان كل مصيبة ومرض يتصور ان تكون اكثر منها اذ مقدورات الله تعالى
لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذ لم تكن اعظم منها في
الدنيا الثاني انه كان يمكن ان تكون مصيبته في دينه قال رجل لسهل دخل اللص بيتي
واخذ متاعي فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك وافسد التوحيد ماذا كنت تصنع
ولذلك استعاذ عيسى عليه السلم في دعايه اذ قال اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني وقال
عمر رضي الله عنه ما ابتليت ببلاء الا كان لله تعالى علي فيه اربع نعم اذ لم يكن في ديني واذ لم
يكن اعظم منه واذ لم احرم الرضا فيه واذ كنت ارجو الثواب عليه وكان لبعض ارباب القلوب
صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال اشكر الله فضربه فقال اشكر الله فجي بمجوس
مجوسي وقيده وجعل حلقة من قيده على رجله وحلقة على رجل المجوسي فارسل اليه فقال
اشكر الله وكان المجوسي يختلج ان يقوم مرات وهو يحتاج ان يقوم معه ويقف على راسه
حتى يقضي حاجته فكتب اليه بذلك فقال اشكر الله فقال الى متى هذا واي بلاء اعظم من
هذا فقال لو جعل الزنار الذي على وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا ما من انسان

قد اصيب ببلاء الا ولو تامل في سوء ادبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى انه يستحق اكثر مما
اصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك ان يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق
للشكر ومن استحق ان يقطع يديك فترك احديهما فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ
في شارع فصب على راسه طست من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ما هذه السجدة
فقال كنت انتظر ان يصب علي النار فالاقتصار على الرماد نعمة وقال بعضهم الا نخرج الى
الاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال انتم تستبطؤن المطر وانا استبطئ الحجر
فان قلت كيف افرح واري جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما اصبت
به حتى الكفار فاعلم ان الكافر قد خبي له ما هو اكثر وانما امهل حتى يستكثر من الاثم ويطول
عليه العذاب والعقاب كما قال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما واما العاصي فمن اين
يعلم ان في العالم من هو اعصى منه ورب خاطر بسوء ادب في حق الله تعالى وفي صفاته اعظم
من شرب الخمر والزنا وساير المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله وتحسبونه هينا وهو
عند الله عظيم فمن اين تعلم ان غيرك اعصى منك ثم لعله قد اخرت عقوبته الى الآخرة وعجلت
عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك وهذا هو الوجه الثالث وهو انه ما من عقوبة
الا وكان يتصور ان تؤخر الى الآخرة ومصايب الدنيا يتسلى عنه باسباب اخر تهون المصيبة
فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلي اذ اسباب
التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب
ثانية اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اذنب ذنبا فاصابه شدة او بلاء في
الدنيا فالله عز وجل اكرم من ان يعذبه ثانيا الرابع ان هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه
في ام الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها
او من جميعها فهذه نعمة الخامس ان ثوابها اكثر منها فان مصايب الدنيا طرق الى الآخرة
من وجهين احدهما الوجه الذي به يكون الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من
اسباب اللعب نعمة في حق الصبي فانه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب
فكان يخسر جميع عمره فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التي هي اعز الاشياء
قد تكون سببا لهلاك الانسان في بعض الاحوال بل العقل الذي هو اعز الامور قد يكون سببا
لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين او صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله فما من شيء

من هذه الاسباب يوجد من العبد الا ويتصور ان يكون له فيه خيرة دينية فعليه ان يحسن الظن
بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فان حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد اعلم من العباد
وغدا يشكره العباد على البلايا اذا راوا ثواب البلاء كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ استاذه
واباه على ضربه وتاديبه اذ يدرك ثمرة ما استفاده من التاديب والبلاء تاديب من الله وعنايته
بعباده اتم واوفر من عناية الاباء بالاولاد فقد روي ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم
اوصني فقال لا تتهم الله في شيء قضاه عليك ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فسئل فقال
عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن ان قضى له بالسراء رضي وكان خيرا له الثاني ان راس الخطايا
المهلكة حب الدنيا وراس اسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على
وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمانينة القلب الى الدنيا واسبابها حتى
يصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته واذا كثرت عليه المصائب
انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن اليها ولم يانس بها وصارت الدنيا سجنا عليه وكانت نجاته
منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر
والكافر كل من اعرض عن الله ولم يرد الا الحيوة الدنيا ورضي بها واطمان اليها والمؤمن كل منقطع
بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي وبقدر
حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب الا الواحد الحق
فاذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به واما التالم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك
عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك او يسقيك دواء نافعا بشعا وهو مجان فانك تتالم
وتفرح وتصبر على الالم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الامور الدنيوية مثاله الدواء الذي يولم
في الحال وينفع في المال بل من دخل دار ملك للنظرة وعلم انه يخرج منها لا محالة فراى وجها حسنا
لا يخرج معه من الدار كان ذلك بلاء عليه لانه يورث له الانس بمنزل لا يمكن المقام فيه ولو كان عليه
في المقام خطر من ان يطلع عليه الملك فيعذبه فاصابه ما يكره حتى تنزعج عن المقام كان ذلك
نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق
انسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع انسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور
منه ان يشكر على البلاء ومن لم يشكر هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة
النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة اكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة

وحكي ان اعرابيا عزي ابن عباس على ابيه رضي الله عنهما فقال اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية
بعد صبر الراس خير من العباس اجرك بعده والله خير منك للعباس فقال ابن عباس ما عزاني
احد احسن من تعزيته والاخبار الواردة في الصبر على المصايب كثيرة قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى اذا وجهت
الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ماله او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت
منه يوم القيمة ان انصب له ميزانا او انشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد اصيب
بمصيبة فقال كما امر الله عز وجل انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني واعقبني خيرا منها الا فعل
الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري
والنظر الى وجهي وروي ان رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال النبي صلى
الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ان الله تعالى اذا احب عبدا ابتلاه
واذا ابتلاه صبره وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها
بعمل الا يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك وعن خباب بن الارت رضي الله عنه قال اتينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردايه في ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا يا رسول الله
الا تدعو الله تستنصر لنا فجلس محمارا لونه ثم قال ان من كان قبلكم يؤتى بالرجل فيحفر له بالارض
حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على راسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه وعن علي
عليه السلم قال ايما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وقال ايضا رضي الله عنه
من اجلال الله ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك وقال ابو الدردا رضي الله
عنه تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما تفنى وتذرون ما يبقى الا حبذا
المكروهات الثلث الفقر والمرض والموت وعن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم اذا اراد الله عز وجل بعبد خيرا واراد ان يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه
عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملايكه صوت معروف فان دعاه ثانيا قالت الملايكه صوت
معروف فان دعاه ثالثا فقال يا رب قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك لا تسألني
شيا الا اعطيتك او دفعت عنك ما هو خير او ادخرت لك عندي ما هو افضل منه فاذا
كان يوم القيمة جي باهل الاعمال فوفوا اعمالهم بالميزان اهل الصلوة والصيام والصدقة
والحج ثم يوتى باهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما

٥٩

كان يصب عليهم البلاء صبا فيودّ اهل العافية في الدنيا لو انهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض
لما يرون ما يذهب به اهل البلاء من الثواب فذلك قوله انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال شكا نبي من الانبياء عليهم السلم الى ربه فقال يا رب العبد
المومن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء والعبد الكافر لا يطيعك
ويجتري على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فاوحى الله اليه ان العباد لي والبلاء لي
وكل يسبح بحمدي فيكون المومن عليه من الذنوب فازوي عنه الدنيا واعرض له البلاء فيكون
كفارة لذنوبه حتى يلقاني فاجزيه بحسناته ويكون الكافر له حسنات فابسط له في الرزق
وازوي عنه البلاء فاجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فاجزيه بسيئاته وروي انه لما نزل
قوله تعالى من يعمل سوءا يجز به قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الاية فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا ابا بكر الست تمرض اليس يصيبك الاذى الست تحزن فهذا
ما تجزون به يعني ان جميع ما يصيبك يكون كفارة ذنوبك وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم اذا رايتم الرجل يعطيه الله ما يحبه وهو مقيم على معصيته فاعلموا ان ذلك
استدراج ثم قرا قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شي حتى اذا فرحوا بما اوتوا
اي اعطوا من الخير اخذناهم بغتة وعن الحسن البصري رحمة الله عليه ان رجلا من الصحابة رضي
الله عنهم راى امراة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت اليها وهو
يمشي فصدمه حايط فاثر في وجهه فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال النبي عليه السلم
اذا اراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا وقال علي رضي الله عنه الا اخبركم بارجى اية
في كتاب الله تعالى قالوا بلى فقرا عليهم وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفوا
عن كثير فالمصايب في الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه
ثانيا وان عفى عنه في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه يوم القيمة وعن انس عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال ما تجرع عبد قط جرعتين احب الى الله تعالى من جرعة غيظ ردها بحلم
وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرتان احب الى الله من قطرة دم اهريقت في
سبيل الله وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله تعالى وما خطا عبد خطوتين
احب الى الله تعالى من خطوة الى الصلوة وخطوة الى صلة الرحم وعن ابي الدردا رضي الله عنه
انه قال توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلم فوجد عليه وجدا شديدا فاتاه ملكان فجلسا

بين يديه في زي الخصوم فقال احدهما بذرت بذرا ولم استحصد فمر به هذا فافسده وقال
الآخر ما تقول قال اخذت في الجادة فاتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه فقال
سليمان ولم بذرت في الطريق ما علمت ان لابد للناس من الطريق قال فلم تحزن على ولدك
اما علمت ان الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان الى ربه ولم يجزع على ولده بعد ذلك ودخل
عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يا بني لان تكون في ميزاني احب الي من ان اكون
في ميزانك فقال يا ابه لان يكون ما تحب احب الي من ان يكون ما احب وعن ابن عباس رضي
انه نعي اليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله ومؤنة كفاها واجر قد ساقه الله ثم نزل
فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما امر الله قال الله تعالى واستعينوا بالصبر والصلوة وعن ابن المبارك
انه مات ابن له فعزاه مجوسي تعزية فقال ينبغي للعاقل ان يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد
خمسة ايام فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذا وقال بعض العلماء ان الله تعالى ليبتلي العبد
بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الارض وما له ذنب وقال الفضيل ان الله تعالى ليبتلي العبد ليتعاهد
عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل اهله بالخير وقال حاتم الاصم ان الله يحتج على الخلق يوم القيمة
باربعة انفس على اربعة اجناس على الاغنياء بسليمان عليه السلم وعلى الفقراء بعيسى عليه السلم
وعلى العبيد بيوسف عليه السلم وعلى المرضى بايوب عليه السلم وروي ان زكريا عليه السلم لما هرب
من الكفار من بني اسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى
بلغ المنشار الى راس زكريا ان انة فاوحى الله تبارك وتعالى اليه يا زكريا ان صعدت منك انة ثانية
لامحونك من ديوان النبوة فعض زكريا ان صعدت منك على الصبر حتى قطع شطرين وقال ابو
مسعود البلخي من اصيب بمصيبة فخرق ثوبا او ضرب صدرا فكانما اخذ رمحا يريد ان يقاتل
به ربه وقال لقمن لابنه يا بني ان الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء واذا
احب الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخطة وقال الاحنف بن قيس اصبحت
يوما اشتكى ضرسي فقلت لعمي ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلثا فقال لقد
اكثرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلثين سنة ما علم بها احد
واوحى الله تعالى الى عزير عليه السلم اذا نزلت بك بلية فلا تشكني الى خلقي كما لا اشكو
الى ملائكتي اذا صعدت مساويك وفضائحك بيان فضل النعمة على البلاء لعلك تقول
هذه الاخبار تدل على ان البلاء خير في الدنيا من النعيم فهل لنا ان نسئل الله البلاء فاقول

لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يستعيذ في دعايه من بلاء الدنيا وعذاب
الآخرة وكان يقول هو والانبياء عليه وعليهم الصلوة والسلم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة
حسنة وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وقال عليه السلم اللهم اني اسئلك الصبر فقال
لقد سالت الله البلاء فسئله العافية وروى الصديق رضي الله عنه عن صاحبه صلوات الرحمن عليه
انه قال سلوا الله العافية فانه ما اعطي عبدا افضل من العافية الا اليقين واشار باليقين الى عافية
القلب عن مرض الجهل والشك وعافية القلب اعلى من عافية البدن وقال الحسن الخير الذي لا شر
فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال مطرف بن عبد الله لان اعافى فاشكر
احب الي من ان ابتلى فاصبر وقال صلى الله عليه وسلم في دعايه وعافيتك احب الي وهذا اظهر
من ان يحتاج فيه الى استشهاد وهذا لان البلاء صار نعمة باعتبارين احدهما بالاضافة الى ما هو
اكثر منه اما في الدنيا او في الدين والآخر بالاضافة الى ما يرجى من الثواب فينبغي ان يسال الله
تمام النعمة ودفع ما فوقه من البلاء ويساله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمة فانه قادر على
ان يعطي على الشكر ما يعطيه على الصبر فان قلت فقال بعضهم اود ان اكون جسرا على النار يعبر
على الخلق كلهم فينجون واكون انا في النار وقال سمنون وليس لي في سواك حظ فكيف ما شئت
فاختبرني فهذا من هولاء سوال البلاء فاعلم انه حكي ان سمنون ابتلي بعد هذا البيت بعلة الحصر
فكان بعد ذلك يدور على ابواب المكاتب يقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب واما محبة الانسان
ليكون هو في النار دون ساير الخلق فغير ممكن ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب
بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كاس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولو زايله سكره علم ان
ما غلبت عليه حالة لا حقيقة لها فلا تسمعه من هذا الفن فهو كلام العشاق الذين افرط حبهم وكلام
العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه كما روي ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال
ما الذي يمنعك عني ولو اردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك فسمعه سليمان
عليه السلم فدعاه فعاتبه فقال يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال الشاعر اريد وصاله ويريد
هجري فاترك ما اريد لما يريد هو ايضا محال ومعناه اني اريد ما لا اريد لان من اراد الوصال
ما اراد الهجر فكيف اراد الهجر الذي لم يرد بل لا يصدق هذا الكلام الا بتاويلين احدهما ان
يكون ذلك في بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به الى مراد الوصال في الاستقبال
فيكون الهجران وسيلة الرضى والرضى وسيلة لوصال المحبوب والوسيلة الى المحبوب محبوب فيكون

مثاله مثال محب المال اذا اسلم درهما في درهمين فهو لحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال
الثاني ان يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث انه رضا فقط ويكون له لذة في استشعاره رضى
محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور ان يريد ما فيه
الرضا ولذلك قد انتهى حال بعض المحبين الى ان صارت لذتهم في استشعارهم رضى الله عنهم اكثر
من لذتهم في العافية من غير شعور بالرضا فهولاء اذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء احب
اليهم من العافية وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت وان تثبت مثلا
فهل هي حالة صحيحة ام حالة اقتضتها حالة اخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال
هذا فيه نظر وذكر حقيقته لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق ان العافية خير من البلاء فنسال
الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة بيان الافضل من الصبر والشكر اعلم ان الناس اختلفوا
في ذلك فقال قايلون الصبر افضل من الشكر وقال آخرون الشكر افضل من الصبر وقال آخرون
هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل كل فريق بكلام شديد
الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة الى اظهار الحق اولى فنقول
في بيان ذلك مقامان المقام الاول البيان على سبيل التساهل وهو ان ينظر الى
ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش حقيقته وهو البيان الذي ينبغي ان يخاطب به عوام الخلق
لقصور افهامهم عن درك الحقايق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي ان يعتمده
الوعاظ اذ مقصود كلامهم في مخاطبة العوام اصلاحهم والظير المشفقة لا ينبغي ان تصلح
الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات بل باللبن وعليها ان تؤخر عنه اطايب
الاطعمة الى ان يصير محتملا لها بقوته ويفارق الضعف الذي هو في بنيته فنقول هذا المقام
في البيان يابى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك
يقتضي تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت اخبار في فضله اذا اضيف اليه ما ورد في
فضيلة الصبر كان فضايل الصبر اكثر بل فيها الفاظ صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم
من افضل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفي الخبر يوتى باشكر اهل الارض فيجزيه الله
جزاء الشاكرين ويوتى باصبر اهل الارض فيقال له اترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر
فيقول نعم يا رب فيقول الله تعالى كلا انعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك
الاجر عليه فيعطى اضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم

بغير حساب واما قوله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصايم الصابر فهو دليل على الفضيلة
في الصبر اذ ذكره صلى الله عليه وسلم ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فالحقه بالصبر وكان هنا
منتهى درجته ولولا انه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة في الشكر
وهو كقوله صلى الله عليه وسلم الجمعة حج المساكين وجهاد المراة حسن التبعل وكقوله شارب الخمر
كعابد الوثن والمشبه به ينبغي ان يكون اعلى رتبة وكذلك قوله الصبر نصف الايمان لا يدل
على ان الشكر مثله وهو كقوله صلى الله عليه وسلم الصوم نصف الصبر فان كل ما ينقسم قسمين يسمى احدهما
نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل فالعمل نصف الايمان ولا يدل
ذلك على ان العمل يساوي العلم وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان
بن داود لمكان ملكه وآخر اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفي لفظ
آخر يدخل سليمان بعد الانبياء باربعين خريفا وفي الخبر ابواب الجنة كلها مصراعان الا باب
الصبر فانه مصراع واحد واول من يدخله اهل البلاء امامهم ايوب النبي عليه السلم وكل ما ورد
في فضايل الفقر يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغني فهذا هو المقام
الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللايق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم المقام الثاني
هو البيان الذي يقصد به تعريف اهل العلم والاستبصار بحقايق الامور بطريق الكشف
والايضاح فنقول فيه كل امرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الابهام ما لم يكشف عن حقيقة
كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على اقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب ان يفرد
الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر اقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في
الرجحان والنقصان مع الاجمال فنقول قد ذكرنا ان هذه المقامات ينتظم من ثلثة امور علوم
واحوال واعمال والشكر والصبر وساير المقامات هي كذلك وهذه الثلثة اذا وزن البعض منها
بالبعض لاح للناظرين الى الظواهر ان العلوم تراد للاحوال والاحوال تراد للاعمال فالاعمال هي الافضل
واما ارباب البصاير فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم فالافضل
العلوم ثم الاعمال ثم الاحوال لان كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة افضل منه واما آحاد هذه الثلثة
فالاعمال قد تتساوى وقد تتفاوت اذا اضيف بعضها الى بعض وكذى آحاد الاحوال اذا اضيف
بعضها الى بعض وكذى آحاد المعارف وافضل المعارف علوم المكاشفة فهي ارفع من علوم
المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة فانها تراد للمعاملة ففايدتها اصلاح العمل وانما افضل

العالم بالمعاملة على العابد اذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالاضافة الى عمل خاص افضل والا
فالعلم القاصر بالعمل ليس بافضل من العمل القاصر فيقول فايدة اصلاح العمل اصلاح حال القلب
ان ينكشف له جلال الله في ذاته وصفاته وافعاله فارفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهي
الغاية التي تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب
في الدنيا بانها عين السعادة وانما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيد
بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة اليها فانها انما تراد لاجلها وكانت
مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الافضاء الى معرفة الله تعالى فان بعض المعارف
تفضي الى بعض اما بواسطة واما بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله
تعالى اقل فهي افضل واما الاحوال فنعني بها احوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب
الدنيا وشواغل القلب حتى اذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذا فضايل الاحوال بقدر تاثيرها
في اصلاح القلب وتطهيره واعدادها لان يحصل له علوم المكاشفة وكما ان تصقيل المرآة
يحتاج الى ان يتقدم على تمامه احوال للمرآة بعضها اقرب الى الصقالة من بعض فكذلك احوال
القلب فالحالة القريبة او المقربة من صفاء القلب هي افضل مما دونها لا محالة بسبب القرب
وجلب الاحوال اليه وكل عمل فاما ان يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة ظلمة القلب
جاذبة الى زخارف الدنيا واما ان يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة صفاء القلب
وقطع علايق الدنيا عنه واسم الاول المعصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التاثير
في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذى الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها
بحسب درجات تاثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال وذلكا نا بالقول المطلق ربما نقول
الصلوة النافلة افضل من كل عبادة نافلة وان الحج افضل من الصدقة وان قيام الليل افضل
من غيره ولكن التحقيق فيه ان الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه
فاخراج درهم له افضل من قيام ليال او صيام ايام لان الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فاراد
كسرها او منعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فاراد تصفية القلب بالجوع فاما
هذا المدبر اذا لم يكن حاله هذه الحالة فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر
يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حالة اللايق به الى حال غيره وهو كالمريض الذي
يشكو وجع البطن اذا لم يستعمل دواء الصداع فانه لا ينتفع به بل حقه ان ينظر في المهلك الذي استولى

عليه والشح المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام الف ليلة منه ذرة بل لا يزيله
الا اخراج المال فعليه ان يتصدق بما معه وتفصيل هذا تمام ما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع اليه فاذا
باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير ان الجواب المطلق فيه خطاء اذ قال لنا قايل
الخبز افضل ام الماء لم يكن فيه جواب حق الا ان الخبز للجايع افضل والماء للعطشان فان اجتمعا نظر الى
الاغلب فان كان الاغلب هو العطش فالماء افضل فان تساويا فهما متساويان وكذلك اذا قيل السكنجبين
افضل ام شراب النيلوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا اصلا نعم لو قيل لنا السكنجبين افضل ام عدم الصفرا
قلنا عدم الصفراء لان السكنجبين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير افضل منه لا محالة فاذا في بذل المال
عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتهيا القلب
بسبب خروج الدنيا منه لمعرفة الله ومحبته فالافضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل فان قلت فقد
حث الشرع على الاعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا
وقال ويأخذ الصدقات فكيف لا يكون الفعل والانفاق افضل من الاحوال فاعلم ان الطبيب اذا
اثنى على الدواء لم يدل على ان الدواء مراد لعينه او على انه افضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الاعمال
علاج لمرض القلوب ومرض القلب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به
ولو ذكر له لا يصدق به فالسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ان كان
ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول برصه فانه لو ذكر له ان المقصود
زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم ان وجهي لا برص فيه ولنضرب مثلا اقرب من هذا فنقول
من له ولد علمه ليتعلم او القرآن واراد ان يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم انه لو امره بالتكرار
او الدراسة ليبقى له محفوظا لقال انه محفوظ ولا حاجة بي الى التكرار والدراسة لانه يظن ان ما يحفظه
في الحال يبقى كذلك ابدا وكان له عبيد فامر الولد بتعليم العبيد ووعد على ذلك بالجميل ليتوفر
دواعيه على كثرة التكرار بالتعليم وربما يظن الصبي المسكين ان المقصود تعليم العبيد القرآن وانه
قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الامر فيقول ما لي قد استخدمت لاجل العبيد وانا اجل منهم واعز
عند الوالد واعلم ان ابي لو اراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي واعلم انه لا نقصان لابي لفقد
هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على
استغناء ابيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد
انخدع بمثل هذا الخيال طايفة وسلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله غني عن عبادتنا وعن ان

يستقرض منا فاي معنى لقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولو شاء الله اطعام المساكين
لاطعمهم فلا حاجة بنا الى صرف اموالنا اليهم كما قال الله تعالى حكاية عن الكفار واذا قيل لهم انفقوا
مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه وقالوا لو شاء الله ما اشركنا
ولا آباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من اذا شاء اهلك
بالصدق واذا شاء اسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا فهولاء لما ظنوا انهم استخدموا لاجل
المساكين والفقراء ولاجل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي اموالنا
انفقنا او امسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن ان مقصود الوالد استخدامه لاجل الصيد ولم يشعر بانه
كان المقصود منه ثبات صفة العلم في نفسه وتاكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته
في الدنيا وانما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره الى ما فيه سعادته فهذا المثال يبين لك
ضلال من ضل من هذا الطريق فاذا المسكين آخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل حب
الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة
من باطنك فالحجام خادم لك لا انت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بان يكون له غرض
في ان يصبغ شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات
امتنع النبي صلى الله عليه وسلم من اخذها وانتهى عنها كما نهى عن كسب الحجام وسماها اوساخ اموال
الناس وشرف اهل بيته بالصيانة عنها والمقصود ان الاعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع
المهلكات والقلب بحسب تاثيرها يستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والبيان
الاصلي الذي ينبغي ان يرجع اليه في معرفة فضائل الاعمال والاحوال والمعارف فلنرجع الآن الى خصوص
ما نحن فيه من الشكر والصبر فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز ان يقابل المعرفة في
احدهما بالحال والعمل في الآخر بل يقابل كل واحد بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر
الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا الى معرفة واحدة اذ معرفة الشاكر
ان يرى نعمة العينين مثلا من الله ومعرفة الصابر ان يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان
ومتساويتان هذا اذا اعتبر في البلاء والمصائب وقد بينا ان الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية
وفيهما يتحد الشكر والصبر لان الصبر على الطاعة هو عين الشكر على الطاعة لان الشكر يرجع الى
صرف نعمة الله الى ما هو المقصود منه بالحكمة والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث
الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فاثبات باعث الدين في مقاومة

باعث الهوى يسمى صبرا بالاضافة الى باعث الهوى ويسمى شكرا بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث
الدين انما خلق لهذه الحكمة وهو ان يصرع به باعث الشهوة فقد صرفه الى مقصود الحكمة فهما عبارتان
عن معنى واحد فكيف يفضل الشي على نفسه فاذا مجاري الصبر ثلثة الطاعة والمعصية والبلايا
وقد ظهر حكمها في الطاعة والمعصية اما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة اما ان تقع
ضرورية كالعينين مثلا واما ان تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال اما العينان
فصبر الاعمى عنهما بان لا يظهر الشكوى ويضمر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض
المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بامرين احدهما ان لا يستعين بهما على معصية والثاني
ان يستعملهما في الطاعة وكل واحد من الامرين لا يخلو عن الصبر فان الاعمى كفي الصبر عن الصور
الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين فقد دخل الصبر
في شكره ولذلك اذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد فيه ايضا من صبر على الطاعة ثم قد
يشكرها بالنظر الى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به الى معرفة الله تعالى فيكون هذا الشكر افضل
من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلم مثلا وكان ضريرا من الانبياء فوق رتبة موسى
وغيره عليهم السلم لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلم لم يصبر ولكان الكمال في ان
يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا لان كل واحد من هذه
الاعضاء آلة في الدين فيفوت بفواتها ذلك الركن من الدين وشكرها استعمالها فيما هي
آلة من الدين وذلك لا يكون الا بصبر واما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال
فانه اذا لم يؤت الا قدر الضرورة وهو محتاج الى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد
الفقراء ووجود الزيادة نعمة وشكرها ان يصرف الى الخيرات او ان لا يستعمل في المعصية فان
اضيف الصبر الى الشكر الذي هو صرف الى الطاعة فالشكر افضل لانه يتضمن الصبر ايضا
وفيه فرح بنعمة الله وفيه احتمال الم في صرفه الى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح وكان
الحاصل يرجع الى ان شيئين افضل من شيء واحد وان الجملة اعلى رتبة من البعض
وهذا فيه خلل اذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين بعضها واما اذا كان شكره بان لا
يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا افضل من الشكر والفقير
الصابر افضل من الغني الممسك ماله الصارف له الى المباحات لا من الغني الصارف ماله
الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها واحسن الصبر على بلاء الله تعالى وهذه

الحالة تستدعي لا محالة قوة والغني ابتع نهمته واطاع شهوته ولكن اقتصر على المباح وفي المباح مندوحة
عن الحرام ولكن لابد من قوة في الصبر عن الحرام ايضا الا ان القوة التي يصدر عنها صبر الفقير اعلى
واتم من القوة التي عنها يصدر الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل
العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلب وتلك القوة حالة للقلب يختلف بحسب قوة
اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة في الايمان فهو افضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل
اجر الصبر على اجر الشكر في الاخبار انما اريد به هذه الرتبة على الخصوص لان السابق الى
افهام الناس من النعم الاموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر ان يقول الانسان الحمد
لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا ان يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر افضل من الشكر اي الصبر الذي
يفهم العامة افضل من الشكر الذي يفهمه العامة والى هذا المعنى على الخصوص اشار الجنيد حيث
سئل عن الصبر والشكر ايهما افضل فقال ليس صلاح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم
وانما المدح في استيفاء شروطهما عليهما فشرط الغني يصحبه فيما عليه اشياء تلائم صفته
وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه اشياء تولم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنين
قائمين لله عز وجل بشرطهما عليهما كان الذي آلم صفته وازعجها اتم حالا ممن متع صفته ونعمها
والامر على ما قاله وهو صحيح من جملة اقسام الصبر والشكر في القسم الاخير الذي ذكرناه ولم يرد سواه
ويقال كان العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر افضل من الفقير الصابر
فدعا عليه الجنيد فاصابه ما اصابه من البلاء من قتل اولاده وتلف ماله وزوال عقله اربع
عشر سنة وكان يقول دعوة الجنيد اصابتني ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغني
الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت ان لكل واحد من القولين وجها في بعض
الاحوال فرب فقير صابر افضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر افضل من فقير صابر
وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير اذ لا يمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة والباقي
يصرفه الى الخيرات او يمسكه على اعتقاد انه خازن المحتاجين والمساكين وانما ينتظر حاجة
تسنح حتى يصرف اليها ثم اذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل اداء لحق الله
تعالى في تفقد عباده فهذا افضل من الصابر فان قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه
الفقر لان هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر الم الصبر فان كان هذا يتالم بفراق المال
فيتجرد ذلك بلذته في القدرة على الانفاق فاعلم ان الذي نراه ان من ينفق ماله عن رغبة وطيب

نفس اكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وانما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق
من كتاب التوبة فايلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتاديبها وذلك ايضا هو كضرب كلب الصيد فان الكلب
والكلب المتادب اكمل من الكلب المحتاج الى الضرب وان كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج الى الايلام
والمجاهدة في البداية ولا يحتاج اليه في النهاية بل النهاية ان يصير ما كان مولما في حقه لذيذا عنده كما يصير
التعلم عند الصبي العاقل لذيذا وقد كان مولما له ولكن لما كان الناس كلهم الا الاقلين في البداية بل قبل
البداية بكثير كالصبيان اطلق الجنيد القول بان الذي يولم صفته افضل وهو كما قال صحيح فيما اراده من عموم
الخلق فاذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لارادة الاكثر فاطلق القول بان الصبر افضل من الشكر فانه صحيح
بالمعنى السابق الى الافهام فاما اذا اردت التحقيق ففصل فان للصبر درجات اولها ترك الشكوى مع الكراهة
ووراها الرضى وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضى اذ الصبر مع التالم والرضا
يمكن بما لا الم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن الا على محبوب مفروح به وكذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا اقصاها
ويدخل في جملتها امور دونها فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر
شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وستره على عباده شكر والاعتراف بان النعم
ابتداء من الله من غير استحقاق شكر والعلم بان الشكر ايضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع
بالنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر اذ قال صلعم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا ذلك في
كتاب اسرار الزكوة وقلة الاعتراض وحسن الادب بين يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول شكر واستعظام
صغيرها شكر فما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف
يمكن اجمال القول بتفضيل احدهما على الآخر الا على سبيل ارادة الخصوص باللفظ العام كما في الاخبار والآثار وقد
روي عن بعضهم انه قال رايت في بعض الاسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسالته عن حاله فقال اني كنت في
ابتداء عمري اهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني فاتفق انها زوجت مني فليلة زفافها قلت تعالي حتى نحيي
هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ احدنا الى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل
ذلك فصلينا طول الليل فنحن منذ سبعين او ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة اليس كذلك يا فلانة فقالت
العجوز كما يقول الشيخ فانظر اليهما لو صبرا على بلاء الفرقة ان لو لم يجمع الله بينهما وانسب صبر الفرقة الى شكر هذا الوصال
على هذا الوجه فلا يخفى عليك ان هذا الشكر افضل فاذا لا وقوف على حقائق المفضلات الا بتفصيل

كما سبق والله اعلم واحكم
تم كتاب الصبر والشكر
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله اجمعين

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب اوليائه بروح رجائه حتى
ساقهم بلطف آلائه الى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر اعدائه وضرب
بسياط التخويف وزجر التعنيف وجوه المعرضين عن حضرته الى دار ثوابه وكرامته وصدهم
عن التعرض للائمة والتهدف لسخطه ونقمته قودا لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف
وازمة الرفق واللطف الى جنته والصلاة على محمد سيد انبيائه وخيرة خليقته وعلى اصحابه وعترته
اما بعد فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان
بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه
بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء الا ازمة
الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب
اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد اذا من بيان حقيقتهما وفضيلتهما
وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد
يشتمل على شطرين الشطر الاول في الرجاء والثاني في الخوف اما الشطر الاول فيشتمل على بيان
حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي به يجتلب الرجاء

بيان حقيقة الرجاء

اعلم ان الرجاء من جملة مقامات السالكين واحوال الطالبين
وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت واقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما
ان الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ما هو بينهما
كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لانه
يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من اوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء
فالرجاء ايضا يتم من علم وحال وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء
اسم للحال من جملة الثلثة وبيانه ان كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب ينقسم الى موجود
في الحال والى موجود فيما مضى والى منتظر في الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي
ذكرا وتذكرا وان كان ما خطر ببالك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وادراكا وانما سمي

وجد الا انها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر بقلبك وجود شي في الاستقبال وغلب
ذلك على قلبك سمى انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها حصل منه الم في القلب يسمى خوفا
واشفاقا وان كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة
في القلب وارتياح يسمى ذلك الارتياح رجا فالرجا هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب
عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد ان يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول اكثر اسبابه
فاسم الرجا عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام اسبابه واضطرابها فاسم الغرور
والحمق عليه اصدق من اسم الرجا وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفا
فاسم التمني اصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجا
والخوف الا على ما يتردد فيه اما ما يقطع به فلا اذ لا يقال ارجو طلوع الشمس وقت الطلوع
واخاف غروبها وقت الغروب لان ذلك مقطوع به نعم يقال ارجو نزول المطر واخاف انقطاعه
وقد علم ارباب القلوب ان الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات
جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها والقلب المستهتر
بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيمة يوم الحصاد ولا يحصد
احد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع الايمان مع خبث القلب وسوء اخلاقه
كما لا ينمو بذر في ارض سبخة فينبغي ان يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع
فكل من طلب ارضا طيبة والقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم امده بما يحتاج اليه
وهو سوق الماء اليه في اوقاته ثم نقى الارض عن الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر في الارض
او يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله دفع الصواعق والآفات المفسدة الى ان يتم الزرع ويبلغ
غايته سمى انتظاره رجا وان بث البذر في ارض صلبة سبخة مرتفعة لا يصيبها الماء ولم
يشتغل بتعهد البذر اصلا ثم انتظر حصاد الزرع منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء
وان بث البذر في ارض طيبة ولكن لا ماء لها واخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا
تمتنع ايضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب
تمهد جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل
الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات
ونقى القلب عن شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك الى الموت وحسن

الخاتمة المفضية الي المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام
بمقتضي الايمان في اتمام اسباب المغفرة الي الموت وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات
او ترك القلب مشحونا برذايل الاخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق
وغرور قال صلى الله عليه وسلم الاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقال تعالى فخلف من بعدهم
خلف اضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف
ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الادني ويقولون سيغفر لنا وذم الله تعالى صاحب البستان
اذ دخل جنته وقال ما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الي ربي
لاجدن خيرا منقلبا فاذا العبد المجتهد في الطاعات والمجتنب للمعاصي حقيق بان ينتظر من
فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة فاما العاصي فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط
منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة واما قبل التوبة اذا كان كارها للمعصية يسوءه السيئة
ويسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق اليها فحقيق بان يرجو من
الله التوفيق للتوبة لان كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجري السبب الذي قد يفضي الي
التوبة وانما الرجاء بعد تاكد الاسباب ولذلك قال الله تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا
في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله معناه اولئك يستحقون ان يرجوا وما اراد به تخصيص وجود
الرجاء لان غيرهم ايضا قد يرجون ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فاما من ينهمك فيما يكرهه
الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر
في ارض سبخة وعزم على ان لا يتعهده بسقي ولا تنقية قال يحيى بن معاذ من اعظم الاغترار
عندي التمادي في الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله بغير طاعة وانتظار
زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمني على الله مع
الافراط فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت انها حالة اثمرها العلم بجريان اكثر الاسباب
وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الامكان فان من حسن بذره وطابت
ارضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الارض وتعهدها وتنحية
كل حشيش نبت فيها فلا يفتر عن تعهدها اصلا الي وقت الحصاد وهذا لان الرجاء يضاده
الياس والياس يمنع من التعهد فمن عرف ان الارض سبخة وان الماء معوز وان البذر لا ينبت
ترك لا محالة تفقد الارض والتعب في تعهدها والرجاء محمود لانه باعث والياس مذموم وهو ضده

لانه صارف عن العمل والخوف ليس بضد الرجاء بل هو رفيق له كما سياتي بيانه بل هو باعث آخر
بطريق الرهبة كما ان الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالاعمال
والمواظبة على الطاعات كيف ما تقلبت الاحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله والتنعم
بمناجاته والتلطف في التملق له فان هذه الاحوال لابد ان تظهر على كل من رجى ملكا من الملوك
او شخصا من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله فان كان ذلك لا يظهر فليستدل به على الحرمان
عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما اثمره مثل
العلم ولما استثمر منه من العمل ويدل على اثمار هذه الاحوال حديث زيد الخيل اذ قال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم جئت لاسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف اصبحت
قال اصبحت احب الخير واهله واذا قدرت على شيء منه سارعت اليه وايقنت بثوابه واذا فاتني
شيء منه حزنت عليه وحننت اليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو ارادك بالاخرى هيأك لها
ثم لا يبالي في اي اوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من اريد به الخير فمن ادعى ان
يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور

بيان فضيلة الرجاء والرغبة فيه

اعلم ان العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف لان اقرب العباد الى الله احبهم اليه والحب يغلب
بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم احدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء
وحسن الظن رغائب لاسيما وقت الموت قال الله تعالى لا تقنطوا من رحمة الله فحرم اصل اليأس
وفي اخبار يعقوب عليه السلام ان الله اوحى اليه اتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لقولك اخاف
ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون فلم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة
اخوته ولم تنظر الى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احد الا وهو يحسن الظن بالله وقال
صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ودخل صلى الله
عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك قال اجدني اخاف ذنوبي وارجو رحمة
ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا اعطاه الله ما رجا وآمنه
مما يخاف وقال علي رضي الله عنه لرجل اخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك
من رحمة الله اعظم من ذنوبك وقال سفين من اذنب ذنبا فعلم ان الله تعالى قدره عليه
ورجا غفرانه غفر الله ذنبه وقال الا ان الله تعالى عير قوما وقال وذلكم ظنكم الذي ظننتم
بربكم ارديكم وقال الله تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا وقال صلى الله عليه وسلم

ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيمة ما منعك اذ رايت المنكر ان تنكره فان لقنه الله حجته قال
يا رب رجوتك وخفت الناس فيقول الله تعالى قد غفرت لك وفي الخبر الصحيح ان رجلا كان يداين
الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر فلقي الله تعالى ولم يعمل خيرا قط فقال الله من احق بذلك منا فعفى
عنه لحسن ظنه ورجائه انه يعفو عنه مع افلاسه عن الطاعات وقال الله تعالى ان الذين يتلون
كتاب الله واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ولما قال صلعم
لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون
الى ربكم فهبط جبرئيل عليه السلم فقال ان ربك عز وجل يقول لم تقنط عبادي فخرج عليهم
فرجاهم وشوقهم وفي الخبر ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلم ان احبني واحب من يحبني وحببني
الى خلقي فقال يا رب كيف احببك الى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر الائي واحساني
وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون مني الا الجميل ورؤي ابان بن ابي عياش في النوم وكان يكثر
ذكر ابواب الرجاء فقال اوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك فقلت
اردت ان احببك الى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤي يحيى بن اكثم في النوم بعد موته فقيل له
ما فعل الله بك فقال اوقفني بين يديه وقال يا شيخ فعلت وفعلت قال فاخذني من الرعب
ما يعلم الله ثم قلت يا رب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عني فقلت حدثنا عبد الرزاق
عن معمر عن الزهري عن انس عن نبيك صلى الله عليه عن جبرئيل عليه السلم انك قلت انا عند ظن
عبدي بي فليظن بي ما شاء وكنت اظن بك ان لا تعذبني فقال عز وجل صدق جبرئيل وصدق
نبي وصدق انس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت انت قال فالبست
ومشى بين يدي الولدان الى الجنة فقلت يا لها من فرحة وفي الخبر ان رجلا من بني اسرائيل
كان يقنط الناس ويشدد عليهم فيقول الله عز وجل يوم القيمة اليوم اوئيسك من رحمتي كما كنت
تقنط عبادي منها وقال صلى الله عليه وسلم ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة ينادي
يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبرئيل اذهب فائتني بعبدي قال فيجيء به فيوقفه على ربه
فيقول الله عز وجل له كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان فيقول ردوه الى مكانه قال فيمشي
ويلتفت الى ورائه فيقول الله تعالى الى اي شيء تلتفت فيقول لقد رجوت ان لا تعيدني اليها
بعد اذ اخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل على ان رجاءه سبب نجاته

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب [illegible]

اعلم ان هذا

الدوا يحتاج اليه احد رجلين اما رجل غلب عليه الياس فترك العبادة واما رجل غلب عليه الخوف
فاسرف في المواظبة على العبادة حتى اضر بنفسه واهله وهذان رجلان مايلان عن الاعتدال
الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج يردهما الى الاعتدال فاما العاصي المغرور المتمني
على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فادوية الرجا تنقلب سموما في حقه مهلكة وتنزل
منزلة العسل الذي هو شفا لمن غلبت عليه البرودة وهو سم مهلك لمن غلبت عليه الحرارة بل المغرور
لا تستعمل في حقه الا ادوية الخوف والاسباب المهيجة له ولهذا يجب ان يكون واعظ الخلق متلطفا
ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل والقصد
في الصفات والاخلاق كلها وخير الامور اوساطها فاذا جاوز الوسط الى احد الطرفين عولج بما يرده
الى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي ان يستعمل فيه مع الخلق
اسباب الرجا بل المبالغة في التخويف ايضا تكاد ان لا تردهم الى جادة الحق وسنن الصواب
فاما ذكر اسباب الرجا فيهلكهم بالكلية ولكنها لما كانت اخف على القلوب والذ عند النفوس ولم يكن
غرض الوعاظ الا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثنا كيف ما كانوا مالوا الى الرجا حتى
ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا قال علي رضي الله عنه انما العالم الذي
لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يومنهم مكر الله ونحن نذكر اسباب الرجا ليستعمل في حق
الايس او فيمن غلب عليه الخوف اقتدا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فانهما مشتملان
على الخوف والرجا جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفا في حق اصناف المرضى ليستعمله العلما
الذين هم ورثة الانبيا بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الاخرق الذي يظن
ان كل شي من الادوية صالح لكل مريض كيف ما كان وحال الرجا يغلب بشيين احدهما الاعتبار
والاخر استقرا الآيات والاخبار والآثار اما الاعتبار فهو ان يتامل جميع ما ذكرناه في اصناف
النعم في كتاب الشكر حتى اذا علم لطايف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجايب حكمه التي
راعاها في فطرة الانسان حتى اعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كالات
الغذا وما هو محتاج اليه كالاصابع والاظفار وما هو للزينة كاستقواس الحاجبين واختلاف
الوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما كان
تفوت به مزية جمال فالعناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده في امثال هذه الدقايق حتى لم
يرض لعباده ان يفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقتهم الى الهلاك

المويد بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم ان اكثر الخلق قد هيئ له اسباب السعادة في الدنيا
حتى انه كان يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان اخبر بانه لا يعذب بعد الموت مثلا او لا يحشر اصلا
فليس كراهيتهم للعدم الا لان اسباب النعم اغلب لا محالة وان الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه
الا في حالة نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال اكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة
فسنة الله تعالى لا تجد لها تبديلا فالغالب ان امر الاخرة كذلك يكون لان مدبر الدنيا والاخرة
واحد وهو غفور رحيم ولطيف بعباده متعطف عليهم فهذا اذا تامل حق التامل قوي اسباب
الرجا ومن الاعتبار ايضا النظر في الحكم الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة
للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى اية المداينة في البقرة من اقوى اسباب الرجا فقيل له
وما فيها من الرجا فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه
فانظر كيف انزل الله تعالى فيه اطول اية ليهدي عبده الى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف
لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه الفن الثاني استقراء الايات والاخبار فما ورد في
الاخبار خارج عن الحصر اما الايات فقد قال الله تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا
على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولا يبالي انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن
في الارض واخبر تعالى ان النار اعدها لاعدائه وانما خوف بها اولياءه فقال تعالى لهم من فوقهم
ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده وقال واتقوا النار التي اعدت للكافرين
وقال تعالى فانذرتكم نارا تلظى لا يصليها الا الاشقى الذي كذب وتولى وقال وان ربك لذو
مغفرة للناس على ظلمهم وفي تفسير قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد وواحد من
امته في النار وكان ابو جعفر محمد بن علي يقول انتم اهل العراق تقولون ارجى اية في كتاب
الله تعالى قوله قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الاية ونحن اهل البيت
نقول ارجى اية في كتاب الله تعالى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى واما الاخبار فقد
روى ابو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال امتي امة مرحومة لا عذاب عليها في الاخرة
عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن واذا كان يوم القيمة دفع الى كل واحد من امتي
رجل من اهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار وفي لفظ اخر ياتي كل رجل من هذه الامة
بيهوديا او نصرانيا الى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم

الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار وروي في تفسير قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي والذين
آمنوا معه ان الله تعالى اوحى الى نبيه اني اجعل حساب امتك اليك فقال لا يا رب انت خير لهم
مني فقال اذا لا اخزيك فيهم وروي عن انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سال
ربه عز وجل في ذنوب امته فقال يا رب اجعل حسابهم الي لئلا يطلع على مساويهم غيري فاوحى
الله اليه هم امتك وهم عبادي وانا ارحم بهم منك لا اجعل حسابهم الى غيري لئلا ينظر في
مساويهم انت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم حيوتي خير لكم ومماتي خير لكم اما حيوتي فاسن
لكم السنن واشرع الشرائع واما موتي فاعمالكم تعرض علي فما رايت منها حسنا حمدت الله تعالى
عليه وما رايت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو
ان عفى عن السيئات برحمته ثم بدلها حسنات بكرمه وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول
اللهم اني اسئلك تمام النعمة فقال هل تدري ما تمام النعمة قال لا قال دخول الجنة فقال العلماء قد
اتم نعمته علينا برضاء الاسلام لنا اذ قال واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وفي
الخبر اذا اذنب العبد فاستغفر الله تعالى يقول الله تعالى لملائكته انظروا الى عبدي اذنب
ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب اشهدكم اني قد غفرت له وفي الخبر لو اذنب
العبد حتى يبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها ما استغفرني ورجاني وفي الخبر لو لقيني عبدي بتراب
الارض ذنوبا لقيته بتراب الارض مغفرة وفي الحديث ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا اذنب
ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه
وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو امير عليه الق هذه السيئة حتى القي من
حسناته واحدة من تضعيف العشر وارفع له تسع حسنات فيلقى عنه هذه السيئة وروي انس
رضي الله عنه في حديث له صلى الله عليه وسلم قال اذا اذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال اعرابي فان
تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد قال عليه السلم يكتب عليه فقال الاعرابي فان تاب قال
يمحى عن صحيفته قال الى متى قال الى ان يستغفر ويتوب الى الله وان الله تعالى لا يمل من المغفرة حتى
يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل ان يعملها فان
عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله تعالى الى سبع مائة ضعف واذا هم بخطيئة لم تكتب
عليه فان عملها كتبت عليه خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله تعالى وجاء رجل الى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني لا اصوم الا الشهر لا ازيد عليه ولا اصلي الا الخمس لا ازيد عليه

وليس لله عز وجل في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع اين انا اذا مت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال نعم معي ان حفظت قلبك من اثنين الغل والحسد ولسانك من اثنين الغيبة والكذب
وعينيك من اثنين النظر الى ما حرم الله تعالى وان تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي
هاتين وفي الحديث الطويل لانس رضي الله عنه ان الاعرابي قال يا رسول الله من يلي حساب
الخلق فقال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال صلى الله عليه وسلم
ضحكت يا اعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفى واذا حاسب سامح فقال صلى الله عليه وسلم صدق
الا ولا كريم اكرم من الله تعالى هو اكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابي وفيه ايضا ان
الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو ان عبدا هدمها حجرا حجرا ثم احرقها ما بلغ جرم من
استخف بولي من اولياء الله تعالى قال الاعرابي ومن اولياء الله قال المؤمنون كلهم اولياء الله
تعالى اما سمعت قول الله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وفي بعض
الاخبار المؤمن افضل من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن اكرم على الله تعالى من الملائكة
وفي الخبر خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى جنته وفي خبر آخر
يقول الله تعالى انما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم اخلقهم لاربح عليهم وفي خبر ابي سعيد الخدري
رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل
رحمته تغلب غضبه وفي الخبر المشهور ان الله تبارك وتعالى كتب على نفسه قبل ان يخلق
الخلق ان رحمتي غلبت غضبي وعن معاذ بن جبل وانس بن مالك رضي الله عنهما انه صلى الله
عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه قول لا اله الا الله لم تمسه
النار ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار ولا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من
ايمان وفي خبر آخر لو علم الكافر سعة رحمة الله ما ايس من جنته احد ولما تلا رسول الله صلى
الله عليه وسلم قوله ان زلزلة الساعة شيء عظيم قال تدرون اي يوم هذا يوم يقال لآدم
قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل الف تسع مائة وتسعة وتسعين
الى النار وواحدا الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال
والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل
بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم انتم في الامم اين تاويل وتاريس ومنسك وياجوج وماجوج
امم لا يحصيها الا الله عز وجل انما انتم في سائر الامم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود

وكالرقية في نزاع الدابة فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بازمة الرجاء
الى الله تعالى اذ ساقهم بسياط الخوف اولا فلما اخرج ذلك بهم عن حد الاعتدال الى افراط اليأس
داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال والقصد والاخر لم يكن منتقضا للاول ولكن ذكر
في الاول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الامر فعلى
الواعظ ان يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال اخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة
بعد ملاحظة العلل الباطنة وان لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه اكثر مما يصلحه وفي الخبر
لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم وفي لفظ آخر لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون
فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم وفي الخبر لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل
وما هو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة
الشفيقة بولدها وفي الخبر ليغفرن الله تعالى يوم القيمة مغفرة ما خطر على قلب احد حتى ان
ابليس ليتطاول لها رجاء ان تصيبه وفي الخبر ان الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا
وتسعين رحمة واظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلائق فتحن الوالدة الى ولدها
وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيمة ضم هذه الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها
على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارض ثم قال ولا يهلك على الله الا هالك وفي
الخبر ما منكم من احد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا
الا ان يتغمدني الله برحمته وقال صلى الله عليه وسلم اعملوا وابشروا واعلموا ان احدا لن ينجيه عمله
وقال صلى الله عليه وسلم اني اختبأت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي اترونها للمطيعين المتقين
بل هي للخاطئين المتلوثين وقال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة السهلة وقال صلعم
احب ان يعلم اهل الكتابين ان في ديننا سماحة ويدل على معناه استجابة الله للمؤمنين في قولهم
ولا تحمل علينا اصرا وقال ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم وروى محمد بن الحنفية
عن علي رضي الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال يا جبرئيل وما الصفح
الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال يا جبرئيل فالله تعالى اكرم من ان يعاتب
من عفى عنه فبكى جبرئيل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله اليهما ميكائيل وقال ان ربكما
يقرئكما السلم ويقول كيف اعاتب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي والاخبار الواردة في
اسباب الرجاء اكثر من ان تحصى فقد قال علي رضي الله عنه من اذنب ذنبا

فستره الله عليه في الدنيا فالله اكرم من ان يكشف ستره في الآخرة ومن اذنب ذنبا فعوقب عنه
في الدنيا فالله اعدل من ان يثني عقوبته علي عبده في الآخرة وقال الثوري ما احب ان
يجعل حسابي الي ابوي لاني اعلم ان الله تعالي ارحم بي منهما وقال بعض السلف المومن
اذا عصي الله تعالي ستره عن ابصار الملايكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب الي
اسود بن سالم بخطه ان العبد اذا كان مسرفا علي نفسه فرفع يديه يدعوا يقول يا رب
حجبت الملايكة صوته وكذلك الثانية والثالثة حتي اذا قال الرابعة يا رب قال الله تعالي
حتي متي تحجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي انه ليس له رب يغفر الذنوب غيري اشهدكم
اني قد غفرت له وقال ابرهيم بن ادهم خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة
فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت يا رب اعصمني حتي لا اعصيك ابدا فهتف بي هاتف
من البيت يا ابرهيم انت تسالني العصمة وكل عبادي المومنين يطلبون ذلك فاذا عصمتهم
فعلي من اتفضل ولمن اغفر وكان الحسن يقول لو لم يذنب المومن لطار في الملكوت
ولكن الله تعالي قمعه بالذنوب وقال الجنيد ان بدت عين من الكرم الحقت المسيئين بالمحسنين
ولقي مالك بن دينار ابانا فقال الي كم تحدث الناس بالرخص فقال يا ابا يحيي اني لارجوا
ان تري من عفو الله يوم القيمة ما تخرق له كساءك من الفرح وفي حديث ربعي بن حراش عن
اخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات اخي سجي بثوبه والقيناه
علي نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوي قاعدا فقال اني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح
وريحان ورب غير غضبان واني رايت الامر ايسر مما تظنون ولا تغتروا وان محمدا صلي الله عليه
وسلم واصحابه ينتظروني حتي ارجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكانها كانت حصاة وقعت
في طست فحملناه ودفناه وفي الحديث ان رجلين تواخيا من بني اسرائيل في الله وكان
احدهما يسرف علي نفسه وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره وكان يقول دعني وربي
ابعثت علي رقيبا حتي راه ذات يوم علي كبيرة فغضب وقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله
يوم القيمة ا تستطيع ان تحظر رحمتي علي عبادي اذهب فقد غفرت لك ثم يقول للعابد
وانت فقد اوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة اهلكت عليه دنياه
وآخرته وروي ان لصا كان يقطع الطريق في بني اسرائيل اربعين سنة فمر عليه عيسى وخلفه
عابد من عباد بني اسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر والي جنبه حواريه

لو تركت فكنت معهما ثالثا قال فتركت بفعل يريد ان يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري
ويقول في نفسه مثلي لا يمشي الي جنب هذا العابد قال واحس به الحواري فقال في نفسه هذا
يمشي الي جنبي فضم منه نفسه وتقدم الي عيسى فمشي الي جنبه وبقي اللص خلفه قال فاوحي الله
الي عيسى قل لهما يستانفا العمل فقد احبطت ما سلف من عمالهما اما احدهما فقد احبطت
حسناته مااعجبه بنفسه واما الاخر فقد احبطت سيئاته بما زري علي نفسه فاخبرهما بذلك وضم
اللص اليه في سياحته وجعله من حواريه وروي عن مسروق ان نبيا من الانبيا كان ساجدا
فوطي بعض العتاة عنقه حتي الزق الحصي بجبهته قال فرفع النبي راسه مغضبا فقال اذهب
فلن يغفر الله لك فاوحي الله اليه تتالي علي في عبادي اني قد غفرت له ويقرب من هذا ماروي
عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت علي المشركين ويلعنهم في صلوته فنزل قوله تعالى
ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خائبين ليس لك من الامر شي او يتوب عليهم او
يعذبهم فانهم ظالمون فترك الدعا عليهم وهدي الله تعالي عامة اوليك الي الاسلام وفي الاثار
ان رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فاذا ادخلا الجنة رفع احدهما في الدرجات
العلي علي صاحبه فيقول يارب ماكان هذا في الدنيا باكثر مني عبادة فرفعته علي في عليين
فيقول الله انه كان يسالني في الدنيا الدرجات العلي وانت كنت تسالني النجاة من النار فاعطيت
كل عبد سوله وهذا يدل علي ان العبادة علي الرجا افضل لان المحبة اغلب علي الراجي منها علي
الخايف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقا لعقابه ومن يخدم لرجا لانعامه واكرامه
ولذلك امر الله بحسن الظن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلي فانما تسلون
كريما وقال اذا سالتم الله فاعظموا الرغبة وسلوا الفردوس الاعلى فان الله تعالي لا يتعاظمه شي وقال
بكر بن سليم الصواف دخلنا علي مالك بن انس في العشية التي قبض فيها فقلنا يا با عبد الله
كيف تجدك فقال لا ادري ما اقول لكم الا انكم ستعاينون من عفو الله مالم يكن في حسابكم
ثم ما برحنا حتي اغمضناه وقال يحيي بن معاذ في مناجاته يكاد رجايي لك مع الذنوب يغلب
رجايي مع الاعمال لاني اعتمد علي عفوك فكيف لا تغفرها وانت بالجود موصوف وقيل ان
مجوسيا استضاف ابرهيم الخليل عليه السلم فقال ان اسلمت اضفتك فمر المجوسي فاوحي الله اليه
يا ابرهيم لم تطعمه الا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه علي كفره فلو اضفته ليلة ماذا كان
عليك فمر ابرهيم يسعي خلف المجوسي فرده واضافه فقال المجوسي ما السبب فيما بدا لك فذكر له

فقال المجوسي له اهكذا يعاملني ثم قال اعرض علي الاسلام فاسلم ورأى الاستاذ ابو سهل الصعلوكي
ابا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الامر اسهل
مما توهمنا ورأى بعضهم ابا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال يا استاذ
بم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي وحكى ان ابا العباس بن سريج رأى في مرض
موته في منامه كان القيمة قد قامت واذا الجبار يقول اين العلماء فجاؤا ثم قال ماذا عملتم
فيما علمتم قال فقلنا يا رب قصرنا واسانا قال فاعاد السؤال كانه لم يرض بالجواب واراد جوابا
غيره فقلت اما انا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت ان تغفر ما دونه فقال اذهبوا فقد
غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلث ليال وقيل كان رجل يشرب جمع قوما من ندمايه ودفع الى
غلام له اربعة دراهم وامره ان يشتري شيا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن
عمار وهو يسال لفقير شيا ويقول من دفع اليه اربعة دراهم دعوت له اربع دعوات قال فدفع الغلام
الدراهم اليه فقال منصور ما الذي تريد ان ادعو لك فقال لي سيد اريد ان اتخلص منه فدعى منصور
ثم قال الاخرى فقال ان يخلف الله علي دراهمي فدعا له ثم قال الاخر فقال ان يتوب الله على سيدي
فدعى ثم قال الاخر فقال ان يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له
سيده لم ابطات فقص عليه القصة فقال وبم دعى فقال سالت لنفسي العتق فقال اذهب فانت
حر وايش الثاني فقال ان يخلف الله على دراهمي فقال لك اربعة الاف درهم وايش الثالث
قال ان يتوب الله عليك فقال تبت الى الله تعالى وايش الرابع قال ان يغفر الله لي ولك وللقوم
وللمذكر فقال هذا الواحد ليس الي فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كان قايلا يقول له انت
فعلت ما كان اليك افترى اني لا افعل ما الي قد غفرت لك وللغلام وللمنصور بن عمار وللقوم
الحاضرين اجمعين وروي عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي قال رايت جنازة يحملها ثلثة
من الرجال وامراة فاخذت مكان المراة وذهبنا الى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت
للمراة من كان هذا منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا امره فقلت
وايش كان يعمل هذا فقالت كان مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها الى منزلي واعطيتها دراهم
وحنطة وثيابا قال فرايت تلك الليلة كانه اتاني آت كانه القمر ليلة البدر وعليه ثياب
بيض فجعل يشكرني فقلت من انت فقال انا المخنث الذي دفنتموني اليوم رحمني ربي باحتقار
الناس اياي وقال ابرهيم بن الاطروش كنا ببغداد قعودا مع معروف الكرخي على دجلة اذ مر

قوم احداث في زورق يضربون بالدف ويلعبون ويشربون فقالوا المعروف اما تراهم يعصون الله
مجاهرين ادع الله تعالى عليهم فرفع يديه وقال الهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقالوا انما
سألناك ان تدعو عليهم فقال اذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم وكان بعض السلف يقول في دعائه
يا رب واي دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك سابغة عليهم ورزقك دارا عليهم ورزقك دارا عليهم سبحانك
ما احلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى لكانك يا ربنا انما تطاع سبحانك ما
احلمك تعصى وتدر الرزق وتسبغ النعمة حتى لكانك يا ربنا لا تغضب فهذه هي الاسباب التي تجلب
بها روح الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فاما الحمقى المغرورون فلا ينبغي ان يسمعوا
شيئا من ذلك بل يسمعون ما نورده في اسباب الخوف فان اكثر الناس لا يصلح الا على الخوف كالعبد
السوء والصبي العارم لا يستقيم الا بالسوط والعصى واظهار الخشونة في الكلام فاما ضد ذلك فيسد
عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا

الشطر الثاني من الكتاب في الخوف

وفيه بيان
حقيقة الخوف وبيان درجات الخوف وبيان اقسام المخاف وبيان فضيلة الخوف وبيان
الافضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان احوال
الخائفين من الانبياء والصالحين

بيان حقيقة الخوف

اعلم ان الخوف عبارة عن تألم
القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن انس
بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل
فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله اعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان مانعان يمنعان
النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا اشار الواسطي حيث قال الخوف حجاب بين الله تعالى
وبين العبد وقال ايضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجملة فالمحب
اذا اشتغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود وانما دوام الشهود غاية
المقامات ولكنا الآن انما نتكلم في اوائل المقامات فنقول حال الخوف ينتظم ايضا من علم وحال
وعمل اما العلم فهو العلم بالسبب المفضي الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في هذه
فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالاسباب
المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا
بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة
وحسنة تمحو اثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة

تالم القلب وبحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعن سبب جناية
قارفها الخايف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع
وهي سطوته وحرصه على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة
جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل او جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول
على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق فالعلم باسباب المكروه هو السبب المكروه
الباعث على احراق القلب وتالمه وذلك الاحتراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة
يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وانه لو اهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون
لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه
ومعرفته بجلال الله تعالى وتعاليه واستغنايه وانه لا يسال عما يفعل وهم يسالون يكون
قوة خوفه واخوف الناس لربه اعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انا اخوفكم
لله ولذلك قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة اثرت حال الخوف
واحتراق القلب ثم يفيض اثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح والصفات اما في
البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق منه المرارة فيفضي الى
الموت او يصعد الى الدماغ فيفسد العقل او يقوى فيورث القنوط والياس واما بالجوارح
فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل
ليس الخايف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه وقال ابو القسم الحكيم
من خاف شيا هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذي النون متى يكون العبد خايفا
قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام واما في الصفات فهو ان
يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها
عند من يشتهيه اذا عرف ان فيه سما فتحترق الشهوات بالخوف وتتادب الجوارح ويحصل
في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير
مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة
والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومواخذة النفس في الخطرات والخطوات
والكلمات ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضاري لا يدري انه يغفل عنه فيفلت
او يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خايف منه لا متسع فيه لغيره هذا حال

من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمجاهدة بحسب
قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وافعاله وبعيوب
النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال واقل درجات الخوف مما يظهر اثره في الاعمال ان يمنع عن
المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان
التحريم فكف عما لا يتيقن ايضا تحريمه ويسمى ذلك تقوى اذ التقوى ان يترك ما يريبه الى ما لا يريبه
وقد يحمله على ان يترك ما لا باس به مخافة ما به باس وهو الصدق في التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة
فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا ياكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه ولا يصرف الى غير الله نفسا
من انفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى صديقا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في
التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا
الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والاقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة
واعلى منه الورع فانه اعم لانه كف عن كل محظور واعلى منه التقوى فانها اسم للكف عن المحظور والشبهة
جميعا ووراءه اسم الصديق والمقرب ويجري الرتبة الاخيرة مما قبلها مجرى الاخص من الاعم فاذا
ذكرت الاخص فقد ذكرت الكل كما انك تقول الانسان اما عربي او عجمي والعربي اما قرشي
او غيره والقرشي اما هاشمي او غيره والهاشمي اما علوي او غيره والعلوي اما حسني او حسيني فاذا
ذكرت انه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع وان وصفته بانه علوي وصفته بما فوقه مما هو اعم منه
فكذلك اذا قلت صديق فقد قلت انه متق وورع وعفيف فلا ينبغي ان تظن ان كثرة هذه
الاسامي تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على كل من طلب المعاني من
الالفاظ ولم يتبع الالفاظ المعاني فهذه اشارة الى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب
العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما بيان درجات
الخوف واختلافه في القوة والضعف اعلم ان الخوف محمود وربما نظن ان كل ما هو محمود فكلما كان
اقوى واكثر كان احمد وهو غلط بل الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده الى المواظبة على العلم
والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والاصلح للبهيمة ان لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن
ذلك لا يدل على ان المبالغة في الضرب محمود فكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال والمحمود
هو الاعتدال والوسط فاما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع
آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هايل فاذا غاب ذلك

السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب
الضعيف الذي يضرب به دابة قوية لا يؤلمها الما مبرحا فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها
وهكذا خوف الناس كلهم الا العارفين والعلماء ولست اعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء
والمتسمين باسمائهم فانهم ابعد الناس عن الخوف بل اعني به العلماء بالله وبآياته وبافعاله
وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان
قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت واشار به الى ان الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي
ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق ان يسمى خوفا
واما المفرط فهو الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى الياس والقنوط وهو مذموم ايضا
لانه يمنع من العمل والمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف
كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشاه الجهل والعجز اما الجهل فهو انه ليس يدري عاقبة امره
ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو الذي يتردد فيه واما العجز فهو انه متعرض لمحذور لا يقدر
على دفعه فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الآدمي وانما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة
وكل ما يجوز ان يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس كمالا في ذاته وانما يصير محمودا
بالاضافة الى نقص اعظم منه كما يكون احتمال الم الدواء محمودا لانه اهون من الم المرض والموت فما
يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف ايضا الى المرض والضعف والى الوله
والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل
الصبي والسوط الذي يهلك الدابة او يمرضها او يكسر عضوا من اعضائها وانما ذكر رسول الله
صلى الله عليه وسلم اسباب الرجاء واكثر منها ليعالج بها صدمة الخوف المفرط الذي يفضي الى القنوط
والقنوط او احد هذه الامور وكل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضي الى المراد المقصود منه وما يقصر عنه
او يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر
والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة
العقل وكل ما يقدح في الاسباب فهو مذموم فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد
فكيف يكون حاله مذموما فاعلم ان معنى كونه شهيدا ان له رتبة بسبب موته من الخوف كان
لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فاما بالاضافة الى
تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك سبيل الله بطريق

الفكر والمشاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهدا، ولولا هذا
لكان رتبة صبي يقتل او مجنون يفترسه سبع اعلى من رتبة نبي وولي يموت حتف انفه وهو
محال فلا ينبغي ان يظن هذا بل افضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما ابطل
العمر او العقل او الصحة التي يتعطل العمر بتعطلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى امور
وان كان بعض اقسامها فضيلة بالاضافة الى امور اخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة
الى ما دونها لا بالاضافة الى درجة النبيين والصديقين فاذا ان لم يؤثر الخوف في العمل
فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وان اثر فله درجات بحسب ظهور
اثره فان لم يحمل الا على العفة وهو الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فان اثمر الورع
فهو اعلى واقصى درجاته ان يثمر درجات الصديقين وهو ان يسلب الظاهر والباطن عما
سوى الله حتى لا يبقى لغير الله فيه متسع فهذا اقصى ما يحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل
فان جاوز هذا الى ان اله العقل او الصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه ولو كان محمودا
لما وجب علاجه باسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل يقول للمريدين الملازمين
للجوع ايام كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل بيان اقسام
الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه اعلم ان الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه والمكروه
اما ان يكون مكروها في ذاته كالنار واما ان يكون مكروها لانه يفضي الى المكروه كما يكره
المعاصي لادائها الى المكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت ولابد
لكل خائف من ان يتمثل في نفسه مكروه من احد القسمين ويقوي انتظاره في قلبه حتى
يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم
من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين
يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة او خوف نقض التوبة ونكث العهد او خوف ضعف
القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى او خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة او
خوف الميل عن الاستقامة او خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المالوفة او خوف
ان يكله الله الى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله او خوف البطر بكثرة نعم الله
عليه او خوف الاشتغال عن الله بغير الله او خوف الاستدراج بتواتر النعم او خوف انكشاف
غوايل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب او يخاف تبعات الناس عنده في الغيبة

والخيانة والغش واضمار السوء او خوف ما لا يدري انه يحدث في بقية عمره او خوف تعجيل العقوبة
في الدنيا والافتضاح قبل الموت او خوف الاغترار بزخارف الدنيا او خوف اطلاع الله على سريرته
في حال الغفلة عنه او خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء او خوف السابقة التي سبقت له في
الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فايدة وهو سلوك سبيل الحذر عما
يفضي الى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه يواظب على الفطام عن العادة والذي يخاف
من اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا الى بقية الاقسام واغلب
هذه المخاوف على المتقين خوف العاقبة والخاتمة فان الامر فيه مخطر واعلى الاقسام وادلها
على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل اسباب
كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في ام الكتاب والخايف من الخاتمة بالاضافة الى الخايف
من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل ان يكون فيه جز الرقبة ويحتمل ان
يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد فيربط قلب احدهما بحالة وصول
التوقيع ونشره وانه عماذا ايظهر ويرتبط قلب الاخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وانه ما الذي خطر له
في حال التوقيع من رحمة او غضب وهذا التفات الى السبب وهو اعلى من الالتفات الى ما هو
فرع فكذلك الالتفات الى القضاء الازلي الذي جرى بتوقيعه القلم اعلى من الالتفات
الى ما يظهر في الابد واليه اشار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى
ثم قال كتاب الله كتب فيه اهل الجنة باسمايهم وانسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى
وقال كتاب الله كتب فيه اهل النار باسمايهم وانسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن اهل السعادة
بعمل اهل الشقاء حتى يقال كانهم منهم بل هم منهم ثم يستنقذهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق
ناقة وليعملن اهل الشقاء بعمل اهل السعادة حتى يقال كانهم منهم بل هم منهم ثم يستخرجهم الله
تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله تعالى والشقي من شقي بقضاء
الله تعالى والاعمال بالخواتيم وهذا كانقسام الخايفين الى من يخاف معصيته وجنايته والى من
يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله واوصافه التي تقتضي الالهية لا محالة فهذا اعلى درجة
ورتبة ولذلك يبقى خوفه وان كان في طاعة الصديقين واما الاخر فهو في عرصة الغرور والامن
ان واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف
الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله فكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير

بان يخاف من غير معصية بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا انه خوف
في نفسه لما تحرك للمعصية ويسر له سبلها ومهد له اسبابها فان تيسير اسباب المعصية ابعاد
ولم يسبق له قبل المعصية معصية استحق بها ان يسخر للمعصية ويجري عليها اسبابها ولا سبق قبل
الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبل القربات فالعاصي قد قضي عليه
بالمعصية شاء ام ابي وكذا المطيع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى اعلى عليين من غير وسيلة
سبقت منه قبل وجوده ويضع ابا جهل في اسفل السافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده
جدير بان يخاف لصفة جلاله وان من اطاع الله اطاع بان توسل سلط عليه ارادة الطاعة واتاه
القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لانه سلط
عليه ارادة جازمة قوية وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة ضروريا فليت شعري
ما الذي اوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعة عليه وما الذي اوجب اهانة الآخر
وابعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد واذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء
الازلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد جزم عند كل عاقل وراء
هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز افشاؤه ولا يمكن تفهيم الخوف منه في صفاته الا بمثال لولا اذن
الشرع لم يتجرأ على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام يا داود
خفني كما يخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لا يقف بك على سببه
فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك الا لاهله والحاصل ان السبع يخاف
لا بجناية سبقت اليه بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولانه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان
قتلك لم يرق قلبه ولم يتألم بقتلك وان خلاك لم يخلك شفقة عليك وابقاء على روحك بل انت
عنده اخس من ان يلتفت اليك حيا كنت او ميتا بل اهلاك الف مثلك واهلاك نملة عنده على
وتيرة واحدة اذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل
الاعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي اقوى واوثق واجلى من المشاهدة
الظاهرة انه صادق في قوله هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي ويكفيك من موجبات
الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة الطبقة الثانية من الخائفين ان يتمثل
في انفسهم ما هو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدتها او سؤال منكر ونكير او عذاب القبر او هول
المطلع او هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير

او الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه او الخوف من النار واغلالها واهوالها او الخوف
من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات او الخوف من الحجاب عن الله
وكل هذه الاسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة ويختلف احوال الخايفين فيها واعلاها
رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين
والزاهدين وكافة العاملين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد
والفراق واذا ذكر له ان العارف لا يخاف النار وانما يخاف الحجاب وجد ذلك منكرا في باطنه
وتعجب منه في نفسه وربما انكر لذة النظر الي وجه الله الكريم لولا منع الشرع اياه من انكاره فيكون
اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والا فباطنه لا يصدق به لانه لا يعرف الا لذة الفرج والبطن
والعين بالنظر الي الالوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة يشاركه البهايم فيها فاما لذة
العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه مع من ليس اهلا له حرام ومن كان اهلا له
استبصر بنفسه واستغنى عن ان يشرحه غيره له فالي هذه الاقسام يرجع خوف الخايفين

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه اعلم ان فضل الخوف تارة يعرف بالتامل والاعتبار
وتارة بالآيات والاخبار اما الاعتبار فسبيله ان فضيلة الشيء بقدر غنايه في الافضاء الي
سعادة لقاء الله تعالى اذ لا مقصود سوي السعادة ولا سعادة للعبد الا في لقاء مولاه والقرب
منه فكل ما اعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر اعانته وقد ظهر انه لا وصول الي سعادة
لقاء الله تعالى في الآخرة الا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ولا يحصل المحبة الا بالمعرفة
ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ولا يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على
الذكر والفكر الا بانقلاع حب الدنيا من القلب ولا ينقلع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها
ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف فالخوف
هو النار المحرقة للشهوات فاذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن المعاصي
ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف
ذا فضيلة وبه يحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الاعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب
الي الله واما بطريق الاقتباس من الآيات والاخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك
دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخايفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات
اهل الجنان قال الله هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى انما يخشى الله من عباده

العلماء فوصفهم بالعلم لخشيتهم وقال تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه وكل ما دل على
فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه السلم واما
الخايفون فانهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف افردهم الله بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك
لانهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الرفيق الاعلى للانبيا
ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين
القدوم على الله تعالى كان يقول اسئلك الرفيق الاعلى فاذن ان نظر الى مثمره فهو العلم وان نظر
الى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ما ورد في فضايلهما حتى ان العاقبة صارت موسومة بالتقوى
مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله والصلوة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب
العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على خير خلقه محمد واله اجمعين وقد خصص الله التقوى بالاضافا
الى نفسه فقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة
عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال الله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقيكم ولذلك قال الله تع
الاولين والاخرين بالتقوى فقال ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا
الله وقال تعالى وخافون ان كنتم مؤمنين فامر بالخوف واوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا
يتصور ان ينفك مؤمن عن خوف وان ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى اذا جمع الله الاولين والاخرين لميقات يوم
معلوم ناداهم بصوت يسمع اقصاهم كما يسمع ادناهم فيقول يا ايها الناس اني قد انصتكم
منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا الى اليوم انما هي اعمالكم ترد عليكم ايها الناس اني جعلت
نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم قلت ان اكرمكم عند الله اتقيكم وابيتم الا فلان
بن فلان اغنى من فلان فاليوم ارفع نسبي واضع نسبكم اين المتقون فينصب للقوم لواء
فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب وقال صلى الله عليه وسلم راس الحكمة
مخافة الله وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود ان اردت ان تلقاني فاكثر من الخوف بعدي
وقال الفضيل من خاف الله تعالى دله الخوف على كل خير وقال الشبلي ما خفت الله يوما الا رايت
له بابا من الحكمة والعبرة ما رايته قط وقال يحيى بن معاذ ما من مؤمن يعمل سيئة الا ويلحقه حسنتان
خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين اسدين وفي خبر موسى عليه السلم واما الورعون
فانه لا يبقى احد الا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه الا الورعين فاني استحييهم واجلهم ان

اوقوهم للحساب وللورع والتقوى اسامي اشتقت من معاني شرطها الخوف فان خلا شي منها عن الخوف
لم يتسم بهذه الاسامي وكذلك ما ورد في فضايل الذكر لا يخفى وقد جعله الله مخصوصا بالخايفين فقال
سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى
وعزتي لا اجمع على عبدي خوفين ولا اجمع له امنين فاذا امنني في الدنيا اخفته يوم القيمة واذا
خافني في الدنيا امنته يوم القيمة وقال صلى الله عليه وسلم من خاف الله تعالى خافه كل شي ومن
خاف غير الله خوفه الله من كل شي وقال صلى الله عليه وسلم اكملكم عقلا اشدكم لله خوفا واحسنكم
فيما امر الله به ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل
الجنة وقال ذو النون من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه وقال ذو النون
ايضا ينبغي ان يكون الخوف ابلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان ابو الحسين
الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله وبين عبده فاذا انقطع
زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا قال اشدهم اليوم خوفا وقال
سهل لا تجد الخوف حتى تاكل الحلال وقيل للحسن يا ابا سعيد كيف نصنع بمجالس اقوام يخوفوننا
حتى تكاد قلوبنا تطير فقال انك والله ان تصحب قوما يخوفونك حتى يدركك امن خير لك من ان تصحب
قوما يومنونك حتى يدركك الخوف وقال الداراني ما فارق الخوف قلبا الا خرب وقالت عايشة
رضي الله عنها قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق ويزني قال
لا بل الرجل يتصدق ويصلي ويصوم ويخاف ان لا يتقبل منه والتشريعات الواردة في الامن
من مكر الله تعالى وعذابه لا تحصى وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشي ثناء على ضده
الذي ينفيه وضد الخوف الامن كما ان ضد الرجاء الياس وكما دل مذمة القنوط على فضيلة
الرجاء فكذلك يدل مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كلما ورد في فضل الرجاء
فهو دليل على فضل الخوف لانهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد ان يخاف فوته
فان كان لا يخاف فوته فهو اذن لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان
يستحيل انفكاك احدهما عن الآخر نعم يجوز ان يغلب احدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز
ان يشتغل القلب باحدهما ولا يلتفت الى الآخر في الحال لغفلته عنه وهذا لان من شرط الرجاء
والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده
ويجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف

والتقدير ان يتقابلان لا محالة اذا كان ذلك لا امر المنتظر مشكوكا فيه نعم احد طرفي الشك قد يترجح
بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة احدهما على الآخر فاذا غلب على
الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وقوي الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال
فهما متلازمان ولذلك قال تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا وقال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا
ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء قال الله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا اي لا تخافون وكثيرا
ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه
بل اقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله تعالى فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء
ثمرة الخشية فقد قال تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى افمن هذا الحديث تعجبون
وتضحكون ولا تبكون وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة وان كانت
مثل راس الذباب من خشية الله تعالى ثم يصيب شيئا من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال
صلى الله عليه وسلم اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة
ورقها وقال صلى الله عليه وسلم لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع وقال
عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال املك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك
وقالت عائشة قلت يا رسول الله يدخل احد من امتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه
فبكى وقال صلى الله عليه وسلم ما من قطرة احب الى الله من قطرة دمع من خشية الله او قطرة دم اهريقت
في سبيل الله وقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع قبل
ان يصير الدمع دما والاضراس جمرا وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله وذكر منهم
رجلا ذكر الله في صلوة ففاضت عيناه وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع ان يبكي فليبك
ومن لم يستطع فليتباك وكان محمد بن المنكدر اذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه ويقول بلغني ان
النار لا تاكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي
نفسي بيده لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال ابو سليمان
الداراني ما تغرغرت عين بمائها الا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيمة فان سالت
دموعه اطفات باول قطرة منها بحارا من النيران ولو ان رجلا بكى في امة ما عذبت تلك الامة
وقال ابو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والشوق والطرب وقال كعب الاحبار والذي نفسي
بيده لان ابكي من خشية الله حتى يسيل دمعي على وجنتي احب الي من ان اتصدق بجبل من ذهب

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه لان ادمع دمعة من خشية الله احب الي من ان اتصدق بالف دينار
وروي عن حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت منها القلوب
وذرفت منها الدموع وعرفنا انفسنا فرجعت الي اهلي فدنت مني المراة وجري بيننا من حديث
الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم واخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا
فيه وقلت في نفسي قد نافقت حتى تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت انادي
نافق حنظلة فاستقبلني ابو بكر رضي الله عنه فقال كلا لم ينافق حنظلة فدخلت علي رسول الله صلعم
وانا اقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله
كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفت انفسنا فرجعت
الي اهلي فاخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال يا حنظلة لو كنتم ابدا على تلك
الحالة لصافحتكم الملايكة في الطرق وعلي فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة فساعة فاذا كل ما ورد
في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوي والورع وفضل العلم ومذمة الامن فهو دلالة على فضل
الخوف لان جملة ذلك متعلق به اما تعلق السبب او تعلق المسبب بيان الافضل هو غلبة الخوف
او الرجاء او اعتدالهما اعلم ان الاخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر
اليهما فيعتريه شك في ان الافضل ايهما وقول القايل الخوف افضل ام الرجاء سوال فاسد يضاهي
قول القايل الخبز افضل ام الماء وجوابه ان يقال الخبز افضل للجايع والماء افضل للعطشان
فان اجتمعا نظر الي الاغلب فان كان الجوع اغلب فالخبز افضل فان استويا فهما متساويان
وهذا لان كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالاضافة الي مقصوده لا الي نفسه والخوف والرجاء
دواآن يداوي بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب الامن من
مكر الله والاغترار به فالخوف افضل وان كان الاغلب هو الياس والقنوط من رحمة الله فالرجا
افضل وكذلك ان كان الغالب علي العبد المعصية فالخوف افضل ويجوز ان يقال مطلقا الخوف
افضل علي التاويل الذي يقال الخبز افضل من السكنجبين اذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين
مرض الصفراء ومرض الجوع اكثر واغلب فالحاجة الي الخبز اكثر فهو افضل فبهذا الاعتبار غلبة
الخوف افضل لان المعاصي والاغترار علي الخلق اغلب وان نظر الي مطلق الخوف والرجاء فالرجا
افضل لانه مستقي من بحر الرحمة ومستقي الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى
ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب وليس وراء المحبة مقام واما الخوف فمستند ٥

الالتفات الى الصفات التي تقتضي لطف فلا يمانجها المحبة مما نجتها للرجا وعلى الجملة فما اراد
لغيره ينبغي ان يستعمل فيه لفظ الاصلح لا لفظ الافضل فنقول اكثر الخلق الخوف اصلح لهم من الرجا
وذلك لاجل غلبة المعاصي فاما التقي الذي ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالاصلح ان يعتدل
خوفه ورجاؤه وروي ان عليا رضي الله عنه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفا ترى انك لو اتيته
بحسنات اهل الارض لم يتقبلها منك وارج الله رجا ترى انك لو اتيته بسيئات اهل الارض غفرها
لك ولذلك قيل لو وزن رجاء المومن وخوفه لاعتدلا ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل
النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت ان اكون ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس
الا رجلا واحدا لخشيت ان اكون انا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما
مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي ان يستوي
خوفه ورجاؤه فاما العاصي اذا ظن انه الرجل الذي استثني من دخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره
فان قلت مثل عمر لم ينبغي ان يساوي خوفه ورجاؤه بل ينبغي ان يغلب رجاؤه كما سبق في اول
كتاب الرجاء وان قوته ينبغي ان تكون بحسب قوة اسبابه كما مثل بالبذر والزرع ومعلوم
ان من بث البذر الصحيح في الارض النقية وواظب على تعهدها وجا بجميع شروط الزراعة غلب على
قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي ان يكون احوال المتقي فاعلم
ان من ياخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر زلله وذلك وان اوردناه مثلا فليس يضاهي
ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة اذ علم بالتجربة صلاح الارض
ونقاؤها وصحة البذر وصحة الهوا وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثال
مسئلتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في ارض غريبة لم يتعهدها الزارع ولم يخبرها وهي في بلاد
ليس يدري ايكثر الصواعق بها ام لا فمثل هذا الزارع وان ادى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره
لا يغلب رجاؤه على خوفه والبذر في مسئلتنا الايمان وشروط صحته دقيقة والارض القلب
وخبايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والريا وخبايا الاخلاق فيه غامضة والافات
هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها في مستقبل الزمان وان سلم في
الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته ولم
يجرب مثله والصواعق هي اهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب
ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيمة الى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقايق هذه الامور

فان كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سنحكي في احوال
الخائفين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم اجمعين وان كان قوي القلب ثابت الجاش تام
المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فاما ان يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش
قلبه حتى كان يسال حذيفة رضي الله عنه انه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا اذ كان خصه
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين فمن الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق
والشرك الخفي وان اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن اين يامن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه
واخفاء عيبه منه وان وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة وقد قال
صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر
وفي رواية الا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل النار وقدر فواق ناقة
لا يحتمل عملا بالجوارح انما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء
فكيف يؤمن ذلك فاذا اقصى غايات المؤمن ان يعتدل خوفه ورجاؤه اما غلبة الرجاء في غالب
الناس يكون مستنده الاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من اثنى
عليهم فقال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال ويدعوننا رغبا ورهبا واين مثل عمر
رضي الله عنه فالخلق موجودون في هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف بشرط ان لا يخرجهم
الى الياس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا
الى الانهماك في المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف وانما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر
جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون الى الدنيا ويدعو الى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف
المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الحث والكف ودون الياس الموجب للقنوط
وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الافكار ومن عبده بمحض
الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الاذكار وقال
مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي ومن عبده بالمحبة
فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا لا بد من الجمع بين هذه الامور
وغلبة الخوف هو الاصلح ولكن قبل قبل الاشراف على الموت اما عند الموت فالاصلح عليه
الرجاء وحسن الظن لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل
فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق اسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين

علي تعجيل موته واما روح الرجا، فانه يقوي قلبه ويحبب اليه ربه الذي اليه رجاؤه ولا ينبغي
ان يفارق احد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله حقا فان من احب لقاء الله احب
الله لقاءه والرجاء يقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والاعمال
كلها معرفة الله حتى يثمر المعرفة المحبة فان المصير اليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على
محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فمهما كان القلب
الغالب عليه عند الموت حب الاهل والمال والولد والمسكن والعقار والرفقاء والاصحاب
فهذا رجل محابه كله في الدنيا فالدنيا جنته اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب
فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما
يشتهيه اذا لم يكن محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر في ذلك فالدنيا
وعلايقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا اذا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس
عن الانشراح الي محبوبه فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من افلت
من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا اول ما يلقاه كل من فارق الدنيا
عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما اعده الله تعالى لعباده الصالحين مما لم
تر عين ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما اعده الله تعالى للذين استحبوا الحيوة الدنيا على الآخرة
ورضوا بها واطمانوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزي والنكال فنسال
الله تعالى ان يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في اجابة هذا الدعاء الا باكتساب
حب الله ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلايق عن كل ما سوى الله
من جاه ومال ووطن فالاولى ان ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال اللهم ارزقني
حبك وحب من احبك وحب ما يقربني الي حبك واجعل حبك احب الي من الماء البارد والغرض
ان غلبة الرجاء عند الموت اصلح لانه اجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت اصلح لانه
احرق لنار الشهوات واقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يموتن
احدكم الا وهو يحسن الظن بالله وقال تعالى انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ولما حضر
سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى القى الله تعالى
على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه
وقال احمد بن حنبل رحمه الله لابنه عند الموت اذكر لي الاخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن

والمقصود من ذلك كله ان يحبب الله تعالى الى نفسه ولذلك اوحى الله تعالى الى داود عليه السلم
ان حببني الى عبادي فقال بماذا فقال ان تذكرهم آلائي ونعمائي فاذا غاية السعادة ان
يموت العبد محبا لله تعالى وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى
يصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب ولذلك راى بعض الصالحين ابا سليمان الداراني في
المنام وهو يطير فسأله فقال الآن افلت فلما اصبح سال عن حاله فقالوا انه مات البارحة

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف اعلم ان ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه
في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء
لان اول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار
وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والخوف والرجاء يقويان على
الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات
فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف ولذلك قال علي رضي الله عنه من اشتاق الى الجنة سلا عن
الشهوات ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف
والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر الى الانس ودوام
الفكر الى كمال المعرفة ويؤدي الى كمال المعرفة والانس الى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر
المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين فليس بعد اصل اليقين مقام سوى الخوف
والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله باطنا وظاهرا ولا مقام بعد المجاهدة
لمن فتح له الطريق الا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة الا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة
الرضى بفعل المحبوب وفعله والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية
ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول الخوف يحصل بطريقين مختلفين احدهما اعلى من الآخر
ومثاله ان الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه حية او سبع ربما كان لا يخاف وربما مد يده الى
الحية ياخذها ويلعب بها ولكن اذا كان معه ابوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها
فاذا نظر الصبي الى ابيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب قام معه وغلب عليه الخوف
ووافقه في الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة
السبع وبطشه وقلة مبالاته فاما خوف الابن فايمان بمجرد التقليد لانه يحسن الظن بابيه
ويعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه فيعلم ان السبع مخوف ولا يعرف وجهه فاذا

عرفت هذا المثال فاعلم ان الخوف من الله على مقامين احدهما الخوف من عذابه والثاني
الخوف منه في ذاته فاما الخوف منه فهو خوف العلماء وارباب القلوب العارفين من صفاته
ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ويحذركم الله نفسه وقوله
اتقوا الله حق تقاته واما الاول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل باصل الايمان بالجنة والنار
وكونهما جزائين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وبسبب ضعف الايمان وانما
تزول الغفلة بالوعظ والتذكير وملازمة الفكر في اهوال القيمة واصناف العذاب في
الآخرة ويزيد ايضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة احوالهم فان فاتت المشاهدة
فالسماع لا يخلو عن تاثير واما الثاني وهو الاعلى ان يكون الله هو المخوف اعني ان يخاف البعد
والحجاب منه ويرجو القرب منه قال ذو النون خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في
بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين
ايضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه
وذلك لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حتى ان الصبي ربما يرى المعزم يقدم
على اخذ الحية فينظر اليه ويغتر به ويتجرأ على اخذها تقليدا له كما احترز من اخذها تقليدا
لابيه والعقايد التقليدية ضعيفة في الغالب الا اذا قويت بمشاهدة اسبابها المؤكدة
لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة
على الاستمرار فاذا من ارتقى الى ذروة المعرفة وعرف الله خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج
لجلب الخوف كما ان من عرف السبع ورأى نفسه واقعة في مخالبه لا يحتاج الى علاج لجلب
الخوف به الى قلبه بل يخاف بالضرورة شاء ام ابى ولذلك اوحى الله الى داود عليه السلم خفني
كما يخاف السبع الضاري ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة
الوقوع في مخالبه فلا يحتاج الى الحيلة سواه فمن عرف الله انه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم
ما يريد ولا يخاف خاف منه لا محالة قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وابعد ابليس من
غير جريمة سالفة بل صفته ما ترجمه قوله هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي
وان خطر ببالك انه لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتامل انه لم يمد المطيع
باسباب الطاعة حتى يطيع شاء ام ابى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء ام ابى
فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بالضرورة فان

كان ابعد لانه عصاه فلم حمله علي المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل الي غير نهاية
او تقف لا محالة علي اول لا علة له من جهة العبد بل قضي عليه في الازل وعن هذا المعنى عبر صلى
الله عليه وسلم اذ قال احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال انت آدم الذي خلقك الله
بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملايكته واسكنك جنته ثم اهبطت الناس بخطيئتك
الي الارض فقال آدم انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه واعطاك الالواح فيها
تبيان كل شي وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التورية قبل ان اخلق قال موسى باربعين عاما
قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال افتلومني علي ان عملت عملا كتبه
الله علي قبل ان اعمله وقبل ان يخلقني باربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فمن
عرف السبب في هذا الامر معرفة صادرة عن نور الهدى فهو من خصوص العارفين ومن سمع
هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المومنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف
فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع والسبع قد
يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق اسباب
مرتبة بقدر معلوم لكن اذا اضيف الي من لا يعرفه سمي اتفاقا وان اضيف الي علم الله
لم يجز ان يسمى اتفاقا والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع
مسخر ان سلط عليه الجوع افترس وان سلط عليه الغفلة خلى وترك وانما يخاف خالق
السبع وخالق صفاته فلست اقول مثال الخوف من الله مثال الخوف من السبع بل اذا كشف
الغطاء علم ان الخوف من السبع هو عين الخوف من الله لان المهلك بواسطة السبع هو الله
فاعلم ان سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وان الله خلق اسباب العذاب واسباب الثواب
وخلق لكل واحد اهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الي ما خلق له فخلق الجنة
وخلق لها اهلا سخروا لاسبابها شاوا ام ابوا وخلق النار وخلق لها اهلا سخروا لاسبابها
شاوا ام ابوا فلا يرى احد نفسه في ملتطم امواج القدر الا غلبه الخوف بالضرورة فهذه مخاوف
العارفين فمن قصر به القصور عن الارتقاء الي يفاع الاستبصار فسبيله ان يعالج نفسه
بسماع الاخبار والآثار فيطالع احوال الخائفين واقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الي مناصب
الراجين المغرورين فلا يتمارى في ان الاقتدا بهم اولى لانهم الانبياء والاولياء والعلماء واما
الآمنون فهم الفراعنة والجهال والاغبياء اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو سيد الاولين والآخرين

وكان اشد الناس خوفا حتى روى انه كان يصلي على طفل ففي رواية انه سمع في دعائه يقول اللهم
قه عذاب القبر وعذاب النار وفي رواية ثانية انه سمع قايلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير
الجنة فغضب وقال ما يدريك انه كذلك والله اني رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ادري ما يصنع
بي ان الله تعالى خلق الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص
منهم وروي انه قال ذلك ايضا على جنازة عثمان بن مظعون رضي الله عنه وكان من المهاجرين
الاول لما قالت ام سلمة رضي الله عنها هنيئا له الجنة فكانت تقول ام سلمة بعد ذلك والله لا ازكي
احدا بعد عثمان وقال محمد بن خولة الحنفية والله اني لا ازكي احدا غير رسول الله ولا ابي الذي
ولدني قال فثارت الشيعة عليه فاخذ يذكر من فضايل علي رضي الله عنه ومناقبه وروي
في حديث آخر ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيئا لك عصفور من عصافير
الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم
وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره وفي حديث آخر انه دخل صلى الله عليه وسلم
على بعض اصحابه وهو عليل فسمع امراة تقول هنيئا له الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه
المتالية على الله عز وجل فقال المريض هي امي يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعل
فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وكيف لا يخاف المومنون كلهم ورسول الله صلعم
يقول شيبتني سورة هود واخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال
العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الابعاد كقوله تعالى الا بعدا لعاد قوم هود الا بعدا لثمود
الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم بانه لو شاء الله ما اشركوا اذ لو شاء الله لآتى
كل نفس هديها وفي سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة اي جف القلم بما هو
كاين وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة اما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا واما
رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا وفي سورة التكوير اهوال القيمة وانكشاف الخاتمة وهو
قوله تعالى واذا الجحيم سعرت واذا الجنة ازلفت علمت نفس ما احضرت وفي عم يتساءلون قوله
يوم ينظر المرء ما قدمت يداه وقوله لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا والقرآن من اوله
الى آخره مخاوف لمن قراه بتدبر ولو لم يكن فيه الا قوله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل
صالحا ثم اهتدى لكان كافيا اذ علق المغفرة على اربعة شروط يعجز العبد عن آحادها واشد
منه قوله تعالى فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وقوله ليسال الصادقين

عن صدقهم وقوله سنفرغ لكم ايها الثقلان وقوله افامنوا مكر الله فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون
وقوله وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد وقوله يوم نحشر المتقين
الي الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الي جهنم وردا وقوله ان منكم الا واردها وقوله اعملوا ما شئتم
وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه الآية وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره
وقوله وقدمنا الي ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقوله والعصر ان الانسان لفي خسر السورة
فهذه اربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من النعم لانهم
لم يامنوا مكر الله تعالي ولا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روي ان النبي صلى الله عليه وسلم
وجبرئيل عليه السلم بكيا خوفا من الله تعالي فاوحى الله اليهما لم تبكيان وقد آمنتكما فقالا ومن يامن
مكرك وكانهما اذ علما ان الله علام الغيوب وانه لا وقوف لهما على غاية الامور لم يامنا ان يكون
قوله قد امنتكما ابتلاء لهما وامتحانا ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انهما قد امنا من المكر وما
وفيا بقولهما كما ان ابرهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعاوي
العظام فامتحن وعورض بجبرئيل في الهواء حتى قال الك حاجة قال اما اليك فلا فكان ذلك وفاء
بمقتضى قوله حسبي الله فاخبر الله عنه وقال وابرهيم الذي وفى اي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا
اخبر عن موسى عليه السلم حيث قال انا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى فقال تعالى انني معكما
اسمع وارى ومع هذا لما القى السحرة سحرهم اوجس موسى في نفسه خيفة اذ لم يامن مكر الله والتباس
الامر عليه حتى جدد عليه الامن فقال له لا تخف انك انت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم
بدر قال صلى الله عليه وسلم اللهم ان كسر هولاء لم يبق على وجه الارض احد يعبدك فقال ابو بكر رضي الله
عنه دع مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة
بوعد الله وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو اتم لانه لا يصدر الا عن
كمال المعرفة باسرار الله تعالي وخفايا افعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر منها بالمكر
وما لاحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله ومن عرف حقيقة المعرفة وعرف تصور معرفته عن
الاحاطة بكنه الامور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال عيسى عليه السلم لما قيل له انت قلت للناس
اتخذوني وامي الهين من دون الله الي قوله ما في نفسك وقال تعالي ان تعذبهم فانهم عبادك
الآية فوض الامر الي المشية واخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بانه ليس اليه من الامر شيء وان
الامور مرتبطة بالمشية ارتباطا تخرج عن حد المعقولات والمالوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس

وحدس وحسبان فضلا عن التحقق والاستيقان وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى
هي ارتباط امرك بمشية من لا يبالي بك ان اهلكك فقد اهلك من لا يحصى من امثالك ولم يزل في الدنيا
يعذبهم بانواع الآلام والامراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد عليهم العقاب ابد الآباد
ثم يخبر عنه ويقول ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني الآية وقال تعالى وتمت كلمة
ربك لاملان جهنم فكيف لا يخاف ما حق من القول في الازل ولا مطمع في تداركه ولو كان الامر انفا لكانت
الاطماع تمتد الى حيلة فيه ولكن ليس الا التسليم واستقرار خفي الاسباب السابقة من جلي الاسباب
الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسرت له اسباب الشر وحيل بينه وبين اسباب الخير واحكمت علاقته
مع الدنيا فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة اذ كل ميسر لما خلق له
وان كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله تعالى
مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات
يزيد نيران الخوف اشتعالا ولا يمكنها من الانطفاء وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين اصبعين
من اصابع الرحمن وانه اسرع تقلبا واشد من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب ان
عذاب ربهم غير مامون فاجهل الناس من امنه وهو ينادي بالتحذير من الامن ولولا ان الله لطف
بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء
رحمة من الله تعالى واسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه اذ لو انكشف الغطاء لزهقت
النفوس وتقطعت القلوب من خوف تقليب القلوب قال بعض العارفين لو حالت بيني وبين من
عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم اقطع له بالتوحيد لاني لا ادري ما ظهر له من التقليب
وقال بعضهم لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام على باب الحجرة لاخترت
الموت على الاسلام لاني لا ادري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار وكان ابو الدرداء
يحلف بالله ما احد امن على ايمانه ان يسلبه عند الموت الا سلبه وكان سهل يقول خوف
الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى اذ قال وقلوبهم
وجلة ولما احتضر سفين جعل يبكي ويجزع فقيل له يا ابا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله اعظم
من ذنوبك فقال او على ذنوبي ابكي لو علمت اني اموت على التوحيد لم ابال ان القى الله بامثال
الجبال من الخطايا وحكي عن بعض الخائفين انه اوصى بعض اخوانه فقال اذا حضرتني الوفاة
فاقعد عند راسي فان رايتني مت على التوحيد فخذ جميع ما املكه واشتر به لوزا وسكرا وانثره على

صبيان اهل البلد وقل هذا عرس المفلت وان مت علي غير التوحيد فاعلم الناس ذلك حتى لا يغتروا بشهود
جنازتي ليحضر جنازتي من احب علي بصيرة لئلا يلحقني الريا بعد الوفاة قال وبم اعلم ذلك فذكر له
علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقهما وكان سهل يقول المريد يخاف
ان يبتلى بالمعاصي والعارف يخاف ان يبتلى بالكفر وكان ابو يزيد يقول اذا توجهت الى المسجد ظننت
كان في وسطي زنارا اخاف ان يذهب بي الى البيعة وبيت النار حتى ادخل المسجد فينقطع عني
الزنار فهذا لي كل يوم خمس مرات وروي عن عيسى عليه السلم انه قال يا معشر الحواريين انتم تخافون
المعاصي ونحن معاشر الانبيا نخاف الكفر وروي في اخبار الانبيا عليهم السلم ان نبيا شكى الى الله
تعالى الجوع والقمل والعري سنين سنة وكان لباسه الصوف فاوحى الله تعالى اليه عبدي اما
رضيت ان عصمت قلبك ان تكفر بي حتى تسالني الدنيا فاخذ التراب فوضعه علي راسه وقال بلى
قد رضيت يا رب فاعصمني عن الكفر فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ اقدامهم وقوة ايمانهم من
سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفا ولسوء الخاتمة اسباب يتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق
والكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة رضي الله عنهم من النفاق حتى
قال الحسن لو اني اعلم اني بري من النفاق كان احب الي مما طلعت عليه الشمس وما نعني به النفاق
الذي هو ضد اصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع اصل الايمان فيكون مسلما منافقا وله علامات
كثيرة قال صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صام وصلى وزعم انه
مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد
اخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفي لفظ آخر واذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون
رضي الله عنهم النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف
السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج ومن الذي يخلو عن هذه المعاني
بل صارت هذه الامور مالوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على
قرب عهد بزمان النبوة فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله عنه ان كان الرجل ليتكلم
بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا اني لاسمعها من احدكم في اليوم عشر مرات
وكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم من الشعر كنا نعدها
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكباير وقال بعضهم علامة النفاق ان تكره من الناس ما تاتي
مثله وان تحب على شيء من الجور وان تبغض على شيء من الحق وقيل من النفاق اذا مدح الانسان

بشي ليس فيه ان يعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر انا ندخل على هولاء الامرا فنصدقهم بما يقولون فاذا خرجنا
تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واشد من هذا ما روي ان نفرا
قعدوا على باب حذيفة رضي الله عنه ينتظرونه وكانوا يتكلمون في شي من شانه فلما خرج عليهم سكتوا
حياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
نفاقا وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين واسباب النفاق وكان يقول ياتي على القلب ساعة
يمتلي بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة فقد عرفت بهذا ان خوف العارفين من سو الخاتمة
وان سببه امور مقدمة منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شي من جملة
ذلك وان ظن انه قد خلا عنه فهو النفاق اذ قيل من امن النفاق فهو منافق وقال بعضهم لبعض
العارفين اني اخاف على نفسي النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين
الالتفات الى السابقة والخاتمة خايفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العبد المومن بين مخافتين
بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فو الذي نفسي
بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار **بيان معنى سو**
الخاتمة فان قلت ان اكثر هولاء رجع خوفهم الى سو الخاتمة فما معنى سو الخاتمة فاعلم ان
سو الخاتمة على رتبتين احديهما اعظم من الاخرى فاما الرتبة العظيمة الهايلة ان يغلب على القلب
عند سكرات الموت وظهور اهواله اما الشك واما الجحود فيقبض الروح في حال غلبة الجحود او
الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى ابدا وذلك يقتضي البعد
الدايم والعذاب المخلد والثانية وهي دونها ان يغلب على قلبه عند الموت حب امر من امور الدنيا
وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق
قبض روحه في تلك الحالة فيكون استغراق قلبه به منكسا راسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومتى
انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تاخذ
الا المحجوبين فاما المومن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همته الى الله فيقول له النار جز يا مومن
فان نورك قد اطفا لهبي فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر لان المرء
يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة اخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة
عليه اذ لا تصرف في القلوب الا باعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا
مطمع في عمل ولا مطمع في الرجوع الى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة الا ان اصل الايمان

وحب الله تعالى اذا كان قد رسخ في القلب بمدة طويله وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة فانه يمحو عن
القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت فان كان ايمانه في القوة الى حد مثقال اخرجه من النار
في زمان اقرب وان كان اقل من ذلك طال مكثه في النار ولو لم يكن الا مثقال حبة فلا بد ان يخرجه
من النار ولو بعد آلاف سنين فان قلت فما ذكرته يقتضي ان يسرع النار اليه عقيب موته فما باله
يؤخر الى القيمة ويمهل طول هذه المدة فاعلم ان من انكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور
الايمان ونور القرآن بل الصحيح عند ذوي الابصار ما صحت به الاخبار وهو ان القبر اما حفرة من حفر
النيران او روضة من رياض الجنة وانه قد ينفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت الاخبار
فلا يفارقه روحه الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقي بسوء الخاتمة وانما تختلف اصناف العذاب
باختلاف الاوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر والتعذيب بعده ثم المناقشة في
الحساب والفضيحة على ملاء الاشهاد في القيمة ثم بعد ذلك خطر الصراط وهول الزبانية الى آخر ما وردت
به الاخبار فلا يزال الشقي مرددا في جميع احواله بين اصناف العذاب وهو في جملة الاحوال
معذب الا ان يتغمده الله برحمته ولا تظنن ان محل الايمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح
ويبددها الى ان يبلغ الكتاب اجله فيجمع الاجزاء المتفرقة ويعاد اليها الروح التي هي محل الايمان
وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما في حواصل طير خضر معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة
واما على حالة تضاد هذه الحال ان كانت والعياذ بالله شقية فان قلت فما السبب الذي يفضي
الى سوء الخاتمة فاعلم ان اسباب هذه الامور لا يمكن احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة
الى مجامعها اما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في فنين احدهما يتصور مع تمام الورع والزهد
وتمام الصلاح في الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وان كانت اعماله صالحة
ولست اعني مذهبا واقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل اعني بالبدعة ان يعتقد
الرجل في ذات الله وصفاته وافعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه اما برايه ومعقوله
ونظره الذي به يجادل الخصوم وعليه يعول وبه يغتر واما اخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب
الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه فربما ينكشف له في حال سكرات الموت
بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادي سكراته منه فقد ينكشف به
تغير الامور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن انه
اخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه الى رأيه القايل وعقله الناقص بل ظن ان كل

ما اعتقده لا اصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله وساير اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده
الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقيه اعتقاداته او لشكه فيها
فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل ان يثبت ويعود الى اصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت
روحه بالشرك والعياذ بالله منه فهولاء هم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون
وبقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الى قوله صنعا وكما انه قد ينكشف في النوم ما سيكون في
المستقبل وذلك بسبب خفة اشتغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الامور
اذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من ان ينظر الى الملكوت فيطالع ما في اللوح
المحفوظ لينكشف الامور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحالة سبب الكشف ويكون الكشف سببا للشك
في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وصفاته وافعاله شيئا على خلاف ما هو به اما تقليدا
واما نظرا بالراى والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه
الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا
كالاعراب والسوادية وساير العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا
ولا اصغوا الى اصناف المتكلمين في تقليد اقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكثر اهل
الجنة البله ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الامور
وامروا الخلق ان يقتصروا على ان يومنوا بما انزل الله جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاد نفي
التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التاويل لان الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كوودة
ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله قاصرة وهداية الله بنورا ليقين عن القلوب بما جبلت عليه
من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما القى اليها
في مبدا النشو آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثايرة بين الخلق مسامير موكدة للعقايد الموروثة
او الماخوذة بحسن الظن من المعلمين في اول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة
وشهوات الدنيا بمخانقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام في الله تع وفي صفاته
بالراي والمعقول مع تفاوت الناس في قرايحهم واختلاف طباعهم وحرص كل جاهل منهم على ان
يدعي الكمال والاحاطة بكنه الحق انطلقت السنتهم بكل ما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب
المصغين اليهم وتاكد ذلك بطول الالفة فيهم وانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة
الخلق في ان يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد ترخص

العنان وفني الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد ان ذلك
علم واستيقان وانه صفو الايمان ويظن ان ما قنع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين
اليقين وتعلمن نباه بعد حين وينبغي ان ينشد في هولاء عند كشف الغطاء وشعر
احسنت ظنك بالايام اذ حسنت • ولم تخف سوء ما ياتي به القدر • وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر • واعلم يقينا ان كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسله
وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله من انكسرت سفينته وهو في ملتطم
الامواج يرميه موج الي موج فربما يتفق له ان يلقيه الي الساحل وذلك بعيد والهلاك اغلب
عليه وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم اما مع الادلة التي حرروها
في تعصبهم او دون الادلة ان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وان كان واثقا به فهو آمن
من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا
جاوز حدود المعقول الي نور المكاشفة التي تشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت
الاحمر واني يتيسر وانما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام او الذين شغلهم خوف
النار بطاعة الله تعالى فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا احد الاسباب المخطرة في سوء
الخاتمة واما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الاصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب
ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع
لحب الله الا من حيث حديث نفس لا يظهر له اثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان
فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود ويتراكم ظلمة الذنوب
على القلب فلا تزال تطفئ ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا فاذا جاءت
سكرة الموت بالحق ازداد ذلك الحب يعني حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا
وهي المحبوب الغالب على القلب فيتالم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله
فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث انه من الله فيخشى ان يثور
في باطنه بغض الله بدل حب الله كما ان الذي يحب ولده حبا ضعيفا اذا اخذ ولده امواله التي
هي احب اليه من ولده واحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه
في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب
الذي يفضي الى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون اليها والفرح باسبابها مع ضعف

الايمان الموجب لضعف حب الله فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا وان كان يحب الدنيا
ايضا فهو ابعد عن هذا الخطر وحب الدنيا راس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم اصناف الخلق
وذلك كله لقلة المعرفة بالله اذ لا يحبه الا من عرفه ولهذا قال تعالى قل ان كان آباركم وابناركم واخوانكم
وازواجكم الي قوله يامر فاذا من فارقته روحه في حالة خطرة الانكار على الله بباله وظهور بغض فعل
الله بقلبه في تفريقه بينه وبين اهله وماله وساير محابه يكون موته قدوما علي ما ابغضه وفراق ما احبه
فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق اذا قدم به علي مولاه قهرا فلا يخفي ما يستحقه من الخزي
والنكال واما الذي يتوفي على الحب فانه يقدم على الله قدوم العبد المحسن المشتاق الي مولاه الذي
تحمل مشاق الاعمال ووعثاء الاسفار طمعا في لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم
فضلا عما يستحقه من لطايف الاكرام والانعام واما الخاتمة الثانية التي هي دون الاولي وليست
مقتضية للخلود في النار فلها ايضا سببان احدهما كثرة المعاصي وان قوي الايمان والآخر ضعف
الايمان وان قلت المعاصي وذلك لان مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في
القلب بكثرة الالفة والعادة وجميع ما الفه الانسان في عمره يعود ذكره الي قلبه عند موته فان
كان ميله الاكثر الي الطاعات كان اكثر ما يحضره ذكر الله وان كان ميله الاكثر الي المعاصي غلب
ذكرها على قلبه عند الموت فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية
من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب الا الفينة
بعد الفينة فهو ابعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا اصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر
والذي غلبت عليه المعاصي وكانت اكثر من طاعاته وقلبه بها افرح منه بالطاعات فهذا
الخطر عظيم جدا في حقه ويعرف هذا بمثال وهو انه لا يخفى عليك ان الانسان يرى في منامه
جملة من الاحوال التي عهدها طول عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتى
ان المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة
لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى ان الذي قضى عمره في التفقه يرى من الاحوال
المتعلقة بالعلم والعلماء اكثر مما يراه التجار الذي قضى عمره في التجارة والتجار يرى من الاحوال
المتعلقة باسباب التجارة اكثر مما يراه الطبيب والفقيه لانه انما يظهر في حالة النوم ما حصل
له مناسبة مع القلب بطول الالف او بسبب آخر من الاسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه
ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكر المالوفات

وعودها الي القلب واحد الاسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الالف فطول الالف بالمعاصي
والطاعات ايضا مرجح ولذلك ايضا يخالف منامات الصالحين منامات الفساق فيكون غلبة الالف
سببا لان يتمثل صورة فاحشة في قلبه ويميل اليها نفسه وربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك
سوء خاتمة وان كان اصل الايمان باقيا بحيث يرجي له الخلاص منها وكما ان ما يخطر في اليقظة
انما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها اسباب عند الله نعرف بعضها ولا
نعرف بعضها كما انا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشيء الي ما يناسبه اما بالمشابهة او بالمضادة
واما بالمقارنة بان يكون قد ورد على الحس معا اما بالمشابهة فبان ينظر الي جميل فيتذكر جميلا
آخر واما بالمضادة فبان ينظر الي جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما واما
بالمقارنة فبان ينظر الي فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل
الخاطر من شيء الي شيء ولا يدري وجه مناسبته له وانما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل ان
ينتقل من شيء الي ثان ومنه الي ثالث ثم ينسي الثاني ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة
ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والاول مناسبة وكذلك لانتقالات الخواطر
في المنام اسباب من هذا الجنس وكذا عند سكرات الموت ومن اراد ان يكف خاطره عن الانتقال
الي المعاصي والشهوات فلا طريق له الا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عنها وفي قمع
الشهوات من القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على
الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحال سكرات الموت فانه يموت المرء على ما عاش عليه
ويحشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال انه كان يلقن كلمة الشهادة عند الموت وهو
يقول خمسة ستة اربعة وكان مشغول النفس بالحساب الذي طال الفه له قبل الموت قال
بعض العارفين من السلف ان العرش جوهرة تتلألأ فلا يكون العبد على حالة الا انطبع
مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فاذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من
العرش فربما يري نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له في القيمة فيري احوال نفسه فيأخذه
من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك
فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهو جزء من اجزاء النبوة
فاذا رجع سوء الخاتمة الي احوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات
المقتضية لسوء الخاتمة غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وان كان لطول الالف فيه تاثير فلهذا

عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لانه لو اراد الانسان ان لا يرى في المنام الا احوال الصالحين واحوال
الطاعات والعبادات عسر ذلك عليه وان كان كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات
الخيال لا يدخل بالكلية تحت الضبط وان كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة
حتى سمعت الشيخ ابا علي الفارمذي رحمه الله يصف لي وجوب حسن ادب المريد لشيخه وان لا يكون
في قلبه انكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخي ابي القسم الكركاني مناما
لي وقلت رايت انك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فهجرني شهرا ولم يكلمني وقال لولا انه كان
في باطنك تجويز المطالبة وانكار ما اقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام وهو كما قال اذ قلما يرى
الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي يسمح بذكره في علم
المعاملة من اسرار امر الخاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا ان الامن
من سوء الخاتمة بان ترى الاشياء كما هي عليه من غير جهل وتقضي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية
فان كنت تعلم ان ذلك محال او عسير فلا بد ان يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى
يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من احوال الانبياء والاولياء
والسلف الصالحين ليكون ذلك احد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا
ان اعمال العمر كلها ضائعة ان لم تسلم في النفس الاخير الذي عليه خروج الروح وان سلامته مع
اضطراب امواج الخواطر مشكل جدا ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول اني لا اعجب ممن هلك
كيف هلك ولكني اعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف اذا صعدت الملائكة بروح
المؤمن وقد مات على الاسلام والخير تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا
وكان الثوري يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكي على الاسلام وبالجملة
من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج كانت النجاة
في حقه ابعد من الهلاك وقلب المؤمن اشد اضطرابا من السفينة وامواج الخواطر اعظم التطاما
من امواج البحر وانما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق ناقة
فيختم له بما سبق به الكتاب ولا يتسع فواق ناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب
وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رايت كاني ادخلت الجنة فرايت ثلثمائة نبي فسألتهم
ما اخوف ما كنتم تخافون في الدنيا فقالوا سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة

مغبوطا عليها وكان موتا لتجارة مكروها اما الموت لتجارة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء
واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن امثالها الى ان يدفع بالكراهة او بنور المعرفة واما الشهادة
فلانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله محب الخروج من الدنيا
والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب اذ لا يهجم احد على صف القتال موطنا نفسه
على الموت الا حبا لله وطلبا لرضاه وبايعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ
قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة والبايع راغب عن المبيع
لا محالة ومخرج حبه من القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على
القلب في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح
على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فان
من هذا حاله وان كان في المعركة وقتل فيها فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه
الاخبار واذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها وواظب
على ذكر الله واخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها
قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة اهلها جهدك فان هذا ذلك ايضا يؤثر
في قلبك ويصرف اليك فكرك وخواطرك واياك ان تسوف وتقول سأستعد لها اذا جاءت الخاتمة
فان كل نفس من انفاسك خاتمتك اذ يمكن ان يختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل
تطريقة واياك ان تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك هذا ما دمت على يقظتك
فاما اذا نمت فاياك ان تنام الا على طهارة الظاهر والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة
ذكر الله على قلبك لست اقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الاثر واعلم
قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وانه لا يغلب في النوم
الا ما كان غالبا قبل النوم ولا تبعث عن نومك الا على ما غلب على قلبك في نومك والموت
والبعث شبه النوم والتيقظ فكما لا ينام العبد الا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ
الا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ما عاش عليه ولا يحشر الا على ما مات
عليه وتحقق قطعا ويقينا ان الموت والبعث حالتان من احوالك كما ان النوم واليقظة
حالتان من احوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ان لم تكن اهلا لمشاهدة ذلك بعين
اليقين ونور البصيرة وراقب انفاسك ولحظاتك واياك ان تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت

ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا لم تعمل فالناس كلهم هلكي الا العالمون والعالمون كلهم
هلكي الا العاملون والعاملون كلهم هلكي الا المخلصون والمخلصون علي خطر عظيم واعلم ان ذلك لا يتيسر
لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة
من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي ان يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا يكون رغبتك
فيه اكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام الي البطن وبين اخراجه فهما ضرورتان
في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي ان يكون تناول الطعام
من همتك واعلم انه ان كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك واذا لم يكن قصدك
من الطعام الا التقوي علي عبادة الله كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلثة امور من
ماكولك في وقته وقدره وجنسه اما الوقت فاقله ان تكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فتواظب علي
الصوم واما قدره فان لا تزيد علي ثلث البطن واما الجنس فان لا تطلب اللذايذ من الاطعمة بل تقنع بما
يتفق فان قدرت علي هذه الثلث وسقط عنك مونة الشهوات اللذايذ قدرت بعد ذلك علي ترك
الشبهات وامكنك ان لا تاكل الا من حلال فان الحلال يعز ولا يفي بالشهوات واما ملبسك فليكن غرضك
منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن راسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك
يضيع زمانك ويلزمك الشغل الدايم والعناء القايم في تحصيله بالكسب مرة والطمع اخري من
الحرام والشبهة وقس بهذا ما يندفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس ان لم يكتف
به في خساسة قدره وجنسه لم يكن له موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملا بطنه الا التراب وكذلك
المسكن ان اكتفيت بمقصوده كفاك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حر او برد فالمساجد فان
طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف اليه اكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدت
من الحايط سوي كونه حايلا بينك وبين الابصار ومن السقف سوي كونه دافعا للامطار فاخذت
ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة بعيد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات امرك
ان اقتصرت عليها تفرغت لله تعالي وقدرت علي التزود لاخرتك والاستعداد لخاتمتك وان جاوزت
حد الضرورة الي اودية الاماني تشعبت همومك ولم يبال الله في اي واد اهلكك فاقبل هذه النصيحة
ممن هو احوج الي النصيحة منك واعلم ان متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا
دفعته يوما بيوم في تسويفك او غفلتك اختطفتك بغتة في غير وقت ارادتك ولم يفارقك حسرتك
وندامتك فان كنت لا تقدر علي ملازمة ما ارشدت اليه لضعف خوفك اذا لم يكن فيما وصفنا •

من امر الموت كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من احوال الخائفين ما نرجوا ان يزيل بعض القساوة
عن قلبك فانك تحقق ان عقل الانبياء والعلماء والاولياء وعلمهم ومكانهم عند الله لم يكن دون
عقلك وعملك ومكانك فتامل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في احوالهم كيف اشتد بهم الخوف
وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم
يخر ميتا الى الارض ولا غرو ان كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة او اشد
قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار بيان احوال الانبياء والملائكة في الخوف روت
عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم
ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله وقرا صلى الله عليه وسلم آية في سورة
الحاقة فصعق وقال الله تعالى وخر موسى صعقا وراى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبرئيل
بالابطح فصعق وروي انه صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل في الصلوة سمع لصدره ازيز كازيز
المرجل وقال صلى الله عليه وسلم ما جاءني جبرئيل قط الا وهو يرعد فرقا من الجبار وقيل لما
ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبرئيل وميكائيل عليهما السلم يبكيان فاوحى الله اليهما ما لكما تبكيان
كل هذا البكاء فقالا يا رب ما نامن مكرك فقال الله هكذا كونا لا تامنا مكري وعن محمد بن المنكدر
قال لما خلقت النار طارت افئدة الملائكة من اماكنها فلما خلق بنو آدم عادت وعن انس انه صلعم
سال جبرئيل مالي لا ارى ميكائيل يضحك فقال جبرئيل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار
ويقال ان لله ملائكة لم يضحك منهم احد منذ خلقت النار مخافة ان يغضب الله عليهم فيعذبهم
وقال ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الانصار فجعل يلتقط
من التمر ويأكل قال فقال يا ابن عمر ما لك لا تاكل فقلت يا رسول الله لا اشتهيه فقال لكني اشتهيه
وهذه صبح رابعة منذ لم اذق طعاما ولم اجده ولو سالت ربي لاعطاني ملك كسرى وقيصر
فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبؤن رزق سنتهم ويضعف اليقين قال فوالله ما برحنا
ولا قمنا حتى نزلت وكاين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم قال فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يامركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد
بها حيوة فانية فان الحيوة بيد الله الا واني لا اكنز دينارا ولا درهما ولا اخبا رزقا لغد وقال
ابو الدرداء رضي الله عنه كان يسمع ازيز قلب ابرهيم خليل الرحمن صلى الله عليه اذا قام في الصلوة
من مسيرة ميل خوفا من ربه وقال مجاهد بكى داود عليه السلم اربعين يوما ساجدا لا يرفع راسه حتى

نبت المرعى من دموعه حتى غطى راسه فنودي يا داود اجايع انت فتطعم ام ظمآن فتسقى ام عار
فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر جوفه ثم انزل الله عليه التوبة والمغفرة فقال يا رب اجعل
خطيئتي في كفي فصارت خطيئته مكتوبة في كفه فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره
الا رآها فابكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثا ماء فاذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته
حتى يفيض القدح من دموعه ويروى عنه صلى الله عليه وسلم انه ما رفع راسه الى السماء حتى مات حياء
من الله تعالى وكان يقول في مناجاته الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الارض برحبها واذا ذكرت
رحمتك ارتدت الي روحي سبحانك الهي اتيت اطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني
فبؤسا للقانطين من رحمتك وقال الفضيل بلغني ان داود عليه السلم ذكر ذنبه ذات يوم فوثب
صارخا واضعا يده على راسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه السباع فقال ارجعوا لا اريدكم
انما اريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني الا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء
وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني ابكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال
الحشى وقبل ان تؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وقال
عبد العزيز بن عمير لما اصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء اصوات
الصديقين وروي انه عليه السلم لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك فقضى ذرعه واشتد غمه قال يا رب
اما ترحم بكائي فاوحى الله تعالى اليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال الهي وسيدي كيف
انسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح واظل الطير على
راسي وانست الوحوش الى محرابي الهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فاوحى الله اليه
يا داود ذاك انس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت
فيه من روحي واسجدت له ملائكتي والبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكا الي الوحدة
فزوجته حواء امتي واسكنته جنتي عصاني فطردته عن جواري عريانا ذليلا يا داود اسمع مني
والحق اقول اطعتنا فاطعناك وسالتنا فاعطيناك وعصيتنا فامهلناك وان عدت الينا
على ما كان منك قبلناك وقال يحيى بن ابي كثير بلغنا ان داود عليه السلم كان اذا اراد ان
ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا ياكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل
ذلك بيوم اخرج له الى البرية منبر فيامر سليمان ان ينادي بصوت يستقرى البلاد وما حولها من
الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها الا من اراد ان يسمع نوح داود

علي نفسه فليات قال فتاتي الوحوش من البراري والآكام وتاتي السباع من الغياض وتاتي الهوام من الجبال وتاتي الطير من الاوكار وتاتي العذاري من خدورهن ويجتمع الناس لذلك اليوم وياتي داود حتى يرقى علي المنبر ويحيط به بنو اسرايل وكل صنف علي حدته يحيطون به وسليمان قايم علي راسه فياخذ في الثنا على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم ياخذ في ذكر الجنة والنار فيموت الهوام وطايفة من الوحوش والسباع والناس ثم ياخذ في اهوال القيمة وفي النياحة علي نفسه فيموت من كل نوع طايفة فاذا راي سليمان كثرة الموتى قال يا ابتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق ومات طوايف بني اسرايل ومن الوحوش والهوام فياخذ في الدعاء فبينا هو كذلك اذ ناداه بعض عباد بني اسرايل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فاذا نظر سليمان الي ما اصابه اتي بسرير فحمله عليه ثم امر مناديا ينادي الا من كان له مع داود حميم او قريب فليات بسرير فيحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المراة تاتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله خوف الله تعالي ثم اذا افاق داود قام ووضع يده علي راسه ودخل بيت عبادته واغلق بابه ويقول يا اله داود اغضبان انت علي داود فلا يزال يناجي فياتي سليمان ويقعد علي الباب ويستاذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا ابتاه تقوّ بهذا علي ما تريد فياكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج الي بني اسرايل فيكون بينهم وقال يزيد الرقاشي خرج داود عليه السلم ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم فخرج في اربعين الفا فمات بلتون الفا منهم وما رجع الا في عشرة الآف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى اذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا علي صدره وعلي رجليه مخافة ان تتفرق اعضاوه ومفاصله فيموت وقال ابن عمر رضي الله عنه دخل يحيى بن زكريا عليهما السلم بيت المقدس وهو ابن ثماني حجج فنظر الي عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر الي مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا انفسهم علي اطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع الي ابويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا نلعب فقال اني لم اخلق للعب قال فاتي ابويه فسالهما ان يدرعاه الشعر ففعلا فرجع الي بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى اتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم اطواد الارض وغيران الشعاب فخرج ابواه في طلبه فادركاه علي بحيرة الاردن وقد نقع رجليه في الماء وقد كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا اذوق بارد الشراب حتى اعلم اين مكاني منك فسال ابواه ان يفطر علي قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفّر عن يمينه فمدح بالبر فرده ابواه الي بيت المقدس

وكان اذا قام يصلي يبكي حتى يبكي معه الشجر والمدر ويبكي زكريا لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يبكي حتى
بكى معه الشجر احرقت دموعه لحم خديه وبدت اضراسه للناظرين فقالت له امه يا بني لو اذنت
ان اتخذ لك شيئا تواري به اضراسك عن الناظرين فاذن لها فعمدت الى قطعتي لبود فالصقتهما
على خديه فكان اذا قام يصلي بكى فاذا استنقعت دموعه في القطعتين اتت اليه امه فعصرتهما
فاذا راى دموعه تسيل على ذراعي امه قال اللهم هذه دموعي وهذه امي وانا عبدك وانت
ارحم الراحمين فقال له زكريا يا بني انما سالت ربي ان يهبك لي لتقر عيناي فقال يحيى يا ابه
ان جبريل عليه السلام اخبرني ان بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكاء فقال زكريا
عليه السلام فابك اذا يا بني وقال عليه السلام معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس
يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا وحق اقول لكم ان اكل الشعير والنوم على
المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل وقيل كان الخليل صلوات الله عليه اذا ذكر خطيئته
يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فياتيه جبريل فيقول له الجبار يقريك السلام
ويقول هل رايت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل اني اذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي
فهذه احوال الانبياء فدونك والتامل فيها فانهم اعرف خلق الله بالله تعالى ولنصف ستة
بيان احوال الصحابة والتابعين وسلف الصالحين رضي الله عنهم في شدة الخوف روي ان ابا بكر
الصديق رضي الله عنه قال للطاير ليتني مثلك يا طاير ولم اخلق بشرا وقال ابو ذر رضي الله عنه
وددت لو اني شجرة تعضد وكذا قال طلحة رضي الله عنه وقال عثمان رضي الله عنه وددت اني اذا
مت لم ابعث وقالت عايشة رضي الله عنها وددت اني كنت نسيا منسيا وروي ان عمر رضي الله عنه
كان يسقط من الخوف اذا سمع اية من القران مغشيا عليه فكان يعاد اياما واخذ يوما تبنة
من الارض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة يا ليتني لم اك شيئا مذكورا يا ليتني لم تلدني امي
يا ليتني كنت نسيا منسيا وكان في وجهه رضي الله عنه خطان اسودان من الدموع وقال
ايضا رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيمة
لكان غير ما ترون ولما قرا رضي الله عنه اذا الشمس كورت فانتهى الى قوله واذا الصحف نشرت
خر مغشيا عليه ومر رضي الله عنه يوما بدار انسان وهو يصلي ويقرا سورة والطور فوقف يسمع
فلما بلغ قوله ان عذاب ربك لواقع نزل عن حماره واستند الى حايط ومكث زمانا ورجع الى
منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه وقال علي رضي الله عنه وقد سلم من صلوة

النجي وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رايت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم ار اليوم شيئا يشبههم
لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين اعينهم امثال ركب المعزي قد باتوا سجدا وقياما يتلون
كتاب الله يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا وذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم
الريح وهملت اعينهم الدموع حتى تبل ثيابهم والله لكاني بالقوم باتوا غافلين ثم قام فما روي
بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه لوددت اني رماد
تسفيني الريح في يوم عاصف وقال ابو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه وددت اني كبشا فيذبحني
اهلي فياكلون لحمي ويحسون مرقتي وكان علي ابن الحسين رضي الله عنه اذا توضا اصفر
لونه فيقول له اهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول اتدرون بين يدي من اريد ان اقوم
وقال موسى بن مسعود كنا اذا جلسنا الى الثوري كان النار قد احاطت بنا لما نري من خوفه
وجزعه وقرا مضر القاري يوما هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون
فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ثم افاق وقال وعزتك لا اعصينك جهدي ابدا فاعني
بتوفيقك على طاعتك وكان المسور بن مخرمة رضي الله عنه لا يقوى ان يسمع القرآن من شدة
خوفه ولقد كان يقرا عنده الحرف او الآية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما حتى اتى عليه رجل من
خثعم فقرا عليه يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال انا من
المجرمين ولست من المتقين اعد علي القول ايها القاري فاعادها عليه فشهق شهقة فلحق
بالآخرة وروي عن يحيى البكا ولو ترى اذ وقفوا على ربهم فصاح صيحة ومكث منها مريضا اربعة
اشهر يعاد من اطراف البصرة وقال مالك بن دينار بينما انا اطوف بالبيت اذا انا جويرية المتعبدة
متعلقة باستار الكعبة وهي تقول يا رب كم من شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يا رب
اما كان لك ادب وعقوبة الا النار وبكى فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال مالك فلما
رايت ذلك وضعت يدي على راسي صارخا اقول ثكلت مالكا امه وروي ان الفضيل روي
يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كادت الشمس تغرب قبض على
لحيته ثم رفع راسه الى السماء وقال واسوتاه منك وان غفرت ثم انقلب مع الناس وسيل
ابن عباس رضي الله عنه عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة واعينهم باكية يقولون
كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر امامنا والقيمة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي ربنا
موقفنا ومر الحسين رضي الله عنه لشاب وهو مستغرب في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له

الحسين يا فتى هل مررت بالصراط قال لا قال وهل تدري الى الجنة تصير ام الى النار قال لا قال
فما هذا الضحك قال فما روي ذلك الفتى بعدها ضاحكا وكان حماد بن عبد ربه اذا جلس جلس مستوفزا
على قدميه فقيل له لو اطمانت فيقول تلك جلسة الآمن وانا غير آمن اذ عصيت الله تعالى وقال
عمر بن عبد العزيز انما جعل الله تعالى هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله
وقال مالك بن دينار لقد هممت اذا انا مت آمرهم ان يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي الى ربي
كما ينطلق بالعبد الآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان اصلح من الجنة
وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول تعبده لقي ما لقي
ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية
الصالحين فلا شخص اكرم منزلة عند الله من المصطفى ولم ينتفع بلقائه اقاربه واعداؤه وقال
السري اني لانظر الى انفي كل يوم مرات مخافة ان يكون قد اسود وجهي وقال ابو حفص منذ اربعين
سنة اعتقادي في نفسي ان الله عز وجل ينظر الي نظر السخط واعمالي تدل على ذلك وخرج ابن
المبارك يوما على اصحابه فقال لي اجترات البارحة على الله وسالته الجنة وقالت ام محمد بن كعب
القرظي لابنها يا بني اني اعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكانك احدثت حدثا موبقا لما اراك تصنع
في ليلك ونهارك فقال يا اماه ما يؤمنني ان يكون الله عز وجل قد اطلع علي وانا على بعض
ذنوبي فمقتني وقال وعزتي لا اغفرت لك وقال الفضيل اني لا اغبط نبيا مرسلا ولا ملكا
مقربا ولا عبدا صالحا اليس هؤلاء يعاينون يوم القيمة انما اغبط من لم يخلق وروي ان فتى من
الانصار دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه
وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم فان الفرق من
النار فتت كبده وروي عن ابن ابي ميسرة انه كان اذا آوى الى فراشه قال يا ليت امي لم تلدني
فقالت له امه يا ميسرة ان الله تعالى قد احسن اليك هداك الى الاسلام فقال اجل ولكن الله تعالى
قد بين لنا انا واردوا النار ولم يبين لنا انا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي اخبرنا باعجب شيء
بلغك عن بني اسرائيل فقال بلغني انه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف
والمسوح فذكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين
ولم يكن يسال الله تعالى الجنة ابدا انما كان يسال العفو وقيل له في مرضه الا تشتهي شيئا
فقال ان خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال انه ما رفع راسه الى السماء ولا ضحك

اربعين سنة وانه رفع راسه يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في
بعض الليل مخافة ان يكون قد مسخ وكان اذا اصابهم ريح او برق او غلاء طعام قال هذا
من اجلي يصيبهم لو مات عطا لاستراح الناس وقال عطا خرجنا مع عتبة الغلام وفينا
كهول وشبان يصلون صلوة الفجر بطهور العشا قد تورمت اقدامهم في طول القيام وغارت
اعينهم في روسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كانها الاوتار يصبحون
كان جلودهم قشور البطيخ وكانهم خرجوا من القبور يخبرون كيف اكرم الله المطيعين وكيف
اهان العاصين فبينا يمشون اذ مر بمكان فخر مغشيا عليه فجلس اصحابه حوله يبكون
في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاوا بماء فمسحوا وجهه فافاق وسالوا عن امره
فقال انا اني ذكرت اني كنت عصيت الله تعالى في ذلك المكان وقال صالح المري قرات على
رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا
الرسولا فصعق ثم افاق وقال زدني يا صالح فاني اجد غما فقرات كلما ارادوا ان يخرجوا منها
اعيدوا فيها فخر ميتا وروي ان زرارة بن اوفى رضي الله عنه صلى بالناس صلوة الغداة
فلما قرا فاذا نقر في الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد
العزيز فقال عظني يا يزيد فقال يا امير المومنين اعلم انك اول خليفة تموت فبكى وقال زدني
يا يزيد فقال يا امير المومنين ليس بينك وبين آدم الا ميت فبكى وقال زدني يا يزيد فقال
يا امير المومنين ليس بينك وبين النار منزل فخر مغشيا عليه وقال ميمون بن مهران لما نزلت
هذه الاية وان جهنم لموعدهم اجمعين صاح سلمان الفارسي رضي الله عنه ووضع يده على
راسه ثم خرج هاربا ثلثة ايام لا يقدر عليه وراي داود الطائي امراة تبكي على راس قبر ولدها
وهي تقول يا ابناه ليت شعري اي خديك بدا به الدود اولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل
مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جا
وجس عرقه ثم قال ما علمت ان في الحنيفية مثله وقال احمد بن حنبل سالت الله تعالى ان
يفتح علي بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يا رب على قدر ما اطيق فسكن قلبي
وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده
لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وحتى ينكسر صلبه وكانه اشارة الى معنى قوله صلى
الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال العنبري اجتمع اصحاب الحديث

علي باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن
عليكم ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما
هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وروي الفضيل يوما
وهو يمشي فقيل له الي اين فقال لا ادري وكان يمشي والها من الخوف وقال ذر بن عمر لابيه عمر بن ذر
ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي احد فاذا انت تكلمت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست
النايحة الثكلى كالنايحة المستاجرة وحكي ان اقواما وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا ما الذي
يبكيك رحمك الله قال روعة يجدها الخايفون في قلوبهم قالوا وما هي قال روعة النداء بالعرض على
الله وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح
المري قدم علينا ابن السماك مرة فقال ارني شيا من بعض عجايب عبادكم فذهبت به الي رجل
في بعض الاحياء في خص له فاستاذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرات اذ الاغلال في اعناقهم
والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا
من عنده وتركناه على حاله وذهبنا الي آخر فدخلنا عليه فقرات هذه الآية فشهق شهقة
وخر مغشيا عليه واستاذنا على ثالث فقال ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرات ذلك لمن خاف
مقامي وخاف وعيد فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس
فتركناه على حاله وخرجنا فادرته على ستة انفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم اتيت به
السابع فاستاذنا فاذا امراة من وراء الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في
مصلاه فسلمنا فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين
يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا ببصره يصيح بصوت له ضعيف آوه آوه حتى انقطع
ذلك الصوت فقالت امراته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سالت عن القوم
فاذا ثلثة قد افاقوا وثلثة قد لحقوا بالله اما الشيخ فانه مكث ثلثة ايام على حالته مبهوتا متحيرا لا
يودي فرضا فلما كان بعد ثلث عقل وكان يزيد بن الاسود يرى انه من الابدال وكان قد حلف
الا يضحك ابدا ولا ينام مضطجعا ولا ياكل سمينا ابدا فما رئي ضاحكا ولا مضطجعا ولا آكلا سمينا
حتى مات رحمه الله وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني انك لم تضحك قط فقال كيف اضحك وجهنم
قد سعرت والاغلال قد نصبت والزبانية قد اعدت وقال رجل للحسن يا ابا سعيد كيف اصبحت
قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسالني عن حالي ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى

توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على اي حال هم قال الرجل على حال
شديدة قال الحسن حالي اشد من حالهم ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز على عمر فسلمت عليه ثم
قامت الى المسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت في منامها
فقالت يا امير المومنين اني رايت والله عجبا قال وما ذاك قالت رايت النار وهي تزفر على اهلها
ثم جيء بالصراط فوضع على متنها فقال ايه قالت فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه
الا يسيرا حتى انكفا به الصراط فهوى فقال ايه قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فامضي عليه الا
بيسير حتى انكفا به الصراط فهوى فقال عمر ايه قالت ثم جيء بك والله يا امير المومنين فصاح عمر صيحة
خر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادي في اذنه يا امير المومنين اني رايتك والله حتى نجوت
اني رايتك والله حتى نجوت قال وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجله ويحك ان اويسا القرني كان
يحضر عند القاص فيبكي من كلامه فاذا ذكر النار يصرخ اويس ثم يقول منطلقا فتتبعه الناس
فيقولون مجنون مجنون وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ان المومن لا يسكن روعته حتى يخلف
جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش فراشه فيتقلى عليه كما يتقلى الحبة في المقلى ثم يثب فيدرجه
ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين وقال الحسن البصري يخرج
من النار رجل بعد الف عام ويا ليتني ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه الخلود وسوء الخاتمة
وروي انه ما ضحك اربعين سنة قال وكنت اذا رايته قاعدا كانه اسير قد قدم ليضرب عنقه
واذا تكلم كانه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها واذا سكت كان النار تسعر بين
عينيه وعوتب في شدة خوفه فقال ما يومنني ان يكون الله قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني
فقال اذهب فلا غفرت لك فانا اعمل في غير معمل وعن ابن السماك قال وعظت يوما في مجلس
فقام شاب من القوم فقال يا ابا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي ان لا نسمع
غيرها قلت وما هي يرحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين اما
في الجنة واما في النار ثم غاب عني فتفقدته في المجلس الآخر فلم اره فسالت عنه فاخبرت
انه مريض يعاد فاتيته اعوده فقلت يا اخي ما الذي ارى بك فقال يا ابا العباس ذلك من
قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين اما في الجنة واما في النار قال ثم مات رحمه
الله فرايته في المنام فقلت يا اخي ما صنع الله بك قال غفر لي ورحمني وادخلني الجنة قلت بماذا
قال بتلك الكلمة فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء ونحن اجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف

بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة فالافلس امننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل تمادنا
شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة احوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل
ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة احوال الخايفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا فنسال
الله تعالى ان يتدارك بفضله ورحمته احوالنا فيصلحنا ان كان تحريك اللسان بمجرد السوال دون
الاستعداد ينفعنا ومن العجايب انا اذا اردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا
البحار والبراري وخاطرنا وان اردنا طلب رتبة بالعلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا
ونجتهد في طلب قوا... ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم اذا
طمحت اعيننا نحو الملك الدايم المقيم قنعنا بان نقول بالسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي
اليه رجاؤنا وبه اعتزازنا واغترارنا ينادينا فيقول وان ليس للانسان الا ما سعى ولا يغرنكم بالله
الغرور ويا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن اودية غرورنا
واما نيتنا فما هذه الامحنة هايلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا
فنسال الله تعالى ان يتوب علينا بل نساله ان يشوق الى التوبة سراير قلوبنا وان لا يجعل
حركة اللسان بسوال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل اذا سمعنا
الواعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان اعظم من هذا
فنسال الله تعالى ان يمن بالتوفيق والرشد علينا بعنه وفضله ولنقتصر من احوال الخايفين
على ما اوردنا فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وان افيض
على القلب القابل فيكفي والكثير منه وان افيض على القلب الغافل فلا يغني ولقد صدق الراهب
الذي حكى عنه عيسى ابن مالك الخولاني وكان من خيار العباد انه راه على باب بيت المقدس
واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقى دمعه من كثرة البكاء قال عيسى فلما رايته
هالني منظره فقلت ايها الراهب اوصني بوصية احفظها فقال يا اخي بماذا اوصيك ان
استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خايف وجل حذر يخاف
ان يغفل فيفترسه السباع او يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة
في ليلة وان امن المغترون وفي الحزن في نهاره وان فرح البطالون ثم ولى وتركني فقلت لو
زدتني شيا عسى ان ينفعني فقال الظمان يجزيه من الماء ايسره ولقد صدق فان القلب
الصافي يحركه ادنى مخافة والقلب الجامد ينبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقدير انه

احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي ان تظن انه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة
باطنك لرايته مشحونا باصناف السباع وانواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد
والكبر والعجب والريا وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك ان سهوت عنها لحظة الا
الا انك محجوب القلب عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد
تمثلت لك بصورها واشكالها الموافقة لمعانيها فترى بعينيك العقارب والحيات قد
احدقن بك في قبرك وانما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشف لك صورها فان اردت ان
تقتلها او تقهرها وانت قادر عليها قبل الموت فافعل والا فوطن نفسك على لدغها ونهشها
لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك وجسمك والسلم

تم كتاب الخوف والرجا بحمد الله ومنه
وحسن عنايته وصلواته على محمد وآله
وصحبه وعترته وسلم
آمين

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ويسجد له الظلال وتدكدك من هيبته الجبال خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال وزين صورته باحسن تقويم واتم اعتدال وعصم قلبه بنور الهداية من ورطات الضلال واذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والاصال ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بصفا يقينه حضرة الجلال فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادي اشراقه كل حسن وجمال فاستثقل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امراة جميلة تميس وتختال وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبايح اسرارها بلطايف السحر والاحتيال وقد نصبت حبايلها في مدارج الرجال فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ثم لا تحظيهم معهم بالخلف في مواعيد الوصال بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والاغلال وتبتليهم بانواع البلايا والانكال فلما انكشف للعارفين منها قبايح الاسرار والافعال زهدوا فيها زهد المبغض لها وتركوا التنافس والتكاثر بالاموال واقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال لا يسلم انفصال ومشاهدة ابدية لا يعتريها زوال والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى آله خير آل اما بعد

فان الدنيا عدوة لله تعالى بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحبها راس الخطايا والسيئات وبغضها ام الطاعات واس القربات وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ونحن الان نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه راس المنجيات ولا مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها ولكن مقاطعتها اما ان يكون بانزوايها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الان نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما واقسامهما وشروطهما واحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منها ونبدا بذكر الفقر الشطر الاول من الكتاب في الفقر وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان فضيلة خصوص الفقراء وبيان فضل الفقر على الغنى وبيان ادب الفقير

في فقره وبيان ادبه في قبول العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال
وبيان احوال السائلين بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير واساميها اعلم ان
الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه اما فقد ما لا حاجة اليه لا يسمى فقرا وان كان المحتاج
اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك في ان كل موجود سوى الله
فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله وجوده
فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغني المطلق ولا يتصور ان يكون
مثل هذا الموجود الا واحدا فليس في الوجود الا غني واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد
وجودهم بالدوام والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى والله الغني وانتم الفقراء هذا معنى الفقر
مطلقا ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا فقر العبد
بالاضافة الى اصناف حاجاته لا ينحصر لان حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليه
بالمال وهو الذي نريد الآن بيانه فقط فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة الى المال
الذي فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه في حقه ثم يتصور ان يكون له خمسة احوال عند الفقر
ونحن نميزها ونخصص كل حالة باسم ليتوصل بالتمييز الى ذكر احكامها الحالة الاولى وهي العليا ان
يكون بحيث لو اتاه المال لكرهه وتاذى به وهرب من اخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو
الزهد واسم صاحبه الزاهد الثانية ان يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة
يتاذى بها ويزهد فيه لو اتاه وصاحب هذه الحالة نسميه راضيا الثالثة ان يكون وجود المال
احب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته ان ينهض لطلبه بل ان اتاه عفوا صفوا
اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا اذ
قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة الرابعة ان يكون تركه للطلب لعجزه
والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه او هو مشغول بالطلب وصاحب
هذه الحالة نسميه حريصا الخامسة ان يكون ما فقده من المال مضطرا اليه كالجائع الفاقد
للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيف ما كانت رغبته في الطلب
اما ضعيفة واما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمس احوال اعلاها الزهد والاضطرار
ان انضم اليه الزهد وتصور ذلك فهو اقصى درجات الزهد كما سياتي بيانه ووراء هذه الاحوال
الخمس حالة هي اعلى من الزهد وهي ان يستوي عنده وجود المال وعدمه فان وجده لم يفرح به

ولم يتأذ وان فقد فكذلك بل حاله كما كان حال عايشة رضي الله عنها اذ اتاها مائة الف درهم من
العطاء فاخذتها وفرقتها في يومها فقالت لها خادمتها لو اشتريت لنا بدرهم لحما فقالت لو ذكرتني لفعلت
فمن هذا حاله فلو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم يضره اذ هو يرى الاموال في خزانة الله
لا في يد نفسه فلا يفرق بين ان يكون في يده او في يد غيره وينبغي ان يسمى صاحب هذه الحالة المستغني
لانه غني عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله
تعالى وكره وعلى من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير الى بقاء
المال في يده وانما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه فهو اذا فقير من وجه واما هذا
الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده ايضا فانه ليس
يتاذى به فيحتاج الى الخروج وليس يفرح به فيحتاج الى بقائه وليس فاقدا له فيحتاج الى
الدخول في يده فغناه الى العموم اميل فهو الى الغنى الذي هو وصف الله اقرب وانما قرب العبد
من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى
الغني اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء وهو الله تعالى واما هذا العبد وان استغنى عن
المال وجودا وعدما فلم يستغن عن اشياء اخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى
استغناؤه الذي زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حر والله
تعالى هو الذي اعتقه عن هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق مفتقر الى الله والقلوب
متقلبة بين الرق والحرية في اوقات متقاربة لانها بين اصبعين من اصابع الرحمن فلذلك
لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا واعلم ان للزهد درجة هي كمال الابرار وصاحب
هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا اذ حسنات الابرار سيئات
المقربين وهذا لان الكاره للدنيا مشغول بالدنيا كما ان الراغب فيها مشغول بها والشغل بما
سوى الله حجاب عن الله اذ لا بعد بينك وبين الله حتى يكون البعد حجابا فانه اقرب اليك من حبل
الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والارضون حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك
وبينه الا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وانت لا تزال مشغولا بنفسك وشهوات
نفسك فلذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله والمشغول ببغض نفسه
ايضا مشغول عن الله بل كل ما سوى الله تعالى مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق
والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في

حالة استغاله قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل
عن غير المعشوق ولم يلتفت اليه فكما ان النظر الي غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في
العشق ونقص فيه فكذا النظر الي غيره لبغضه شرك فيه ونقص ولكن احدهما اخف من الآخر بل الكمال
في ان لا يلتفت القلب الي غير المحبوب بغضا وحبا فانهما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة
فلا يجتمع ايضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها
الا ان المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك لطريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو في
غفلته سالك طريق القرب اذ يرجي له ان ينتهي حاله الي ان يزول هذه الغفلة وتتبدل
بالشهود فالكمال له مرتقب لان بغض الدنيا مطية توصل الي الله فالمحب والمبغض كرجلين في
طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن احدهما مستدبر للكعبة والآخر
مستقبل لها وهما سيان بالاضافة الي الحال في ان كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول
عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة الي المستدبر اذ يرجي له الوصول وليس محمودا بالاضافة
الي المعتكف في الكعبة والملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر الي الاشتغال بالدابة في
الوصول اليها فلا ينبغي ان تظن ان بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا عايق عن الله
ولا وصول اليه الا بدفع العايق ولذلك قال ابو سليمان الداراني من زهد في الدنيا واقتصر عليه
فقد استعجل الراحة بل ينبغي ان يشتغل بالآخرة فتبين ان سلوك طريق الآخرة وراء الزهد
كما ان سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العايق عن الحج فاذا قد ظهر ان الزهد في الدنيا ان اريد
به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان اريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة الي درجة
هو في غاية الكمال بالاضافة الي درجة الراضي والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الي درجة
المستغني بل الكمال في حق المال ان يستوي عندك المال والماء وكثرة المال في جوارك لا تؤذيك
بان تكون علي شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك الا في قدر الضرورة مع ان الماء محتاج اليه كما ان المال
محتاج اليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار من جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير بل تقول
اشرب منه بقدر الضرورة والحاجة واسقي منه عباد الله تعالي بقدر الحاجة ولا ابخل به علي احد
فهكذا ينبغي ان يكون المال لان الخبز والماء واحد في الحاجة وانما الفرق في قلة احدهما وكثرة
الآخر واذا عرفت الله تعالي ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت ان قدر حاجتك من الخبز
ياتيك لا محالة ما دمت حيا كما ياتيك قدر حاجتك من الماء علي ما سياتي بيانه في كتاب التوكل

انشاء الله تعالي قال احمد بن ابي الحواري قلت لابي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة
اذهب الي البيت فخذ الركوة التي اهديتها الي فان العدو يوسوس الي ان اللص قد اخذها
فقال ابو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زهد في الدنيا ما عليه من اخذها فبين ان
كراهية كون الركوة في بيته التفات اليها سببه الضعف والنقصان فان قلت فما بال الانبيا
والاوليا هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فاقول كما هربوا من الما على معنى انهم ما شربوا منه
اكثر من حاجتهم فتفرقوا عما وراه ولم يجمعوا في القرب والزوايا يديرونه مع انفسهم بل تركوه في الانهار
والآبار والبراري للمحتاجين اليه لا انهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه او بغضه وقد حملت خزائن
الارض الي رسول الله صلى الله عليه وسلم والي ابي بكر وعمر رضي الله عنهما فاخذوها ووضعوها في مواضعها
وما هربوا منها اذ كان قد استوى عندهم الماء والمال والذهب والحجر وما ينقل عنهم من امتناع
فاما ان ينقل عمن خاف ان لو اخذ ان يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه الي الشهوات
وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق
لان كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما ان ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن اظهر الفرار والنفار
نزولا الي درجة الجنة الضعفاء ليقتدوا به في الترك اذ لو اقتدوا به في الاخذ لهلكوا كما يفر
الرجل المعزم بين اولاده من الحية لا لضعفه عن اخذها ولكن لعلمه بانه لو اخذها اخذها
اولاده اذا راوها فهلكوا والمسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء والاولياء والعلماء فقد عرفت
اذا ان المراتب ستة وان اعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص
واما المضطر فيتصور في حقه ايضا الزهد والقناعة ودرجته تختلف باختلاف هذه الاحوال
واسم الفقير يطلق علي هذه الخمسة اما تسمية المستغني فقيرا فلا وجه له بهذا المعنى لكن
ان سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا الي الله تعالي في جميع اموره عامة وفي بقائه
استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية
واقر بها فانه احق باسم العبد من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك
اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر الي الله تعالي فهو احق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين
هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت ان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اعوذ بك
من الفقر وقوله صلعم كاد الفقر ان يكون كفرا لا يناقض قوله صلى الله عليه وسلم احيني مسكينا
وامتني مسكينا اذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف او بالمسكنة

والذلة والافتقار الى الله تعالى هو الذي ساله في دعايه **بيان فضيلة الفقر مطلقا**
اما من الايات فيدل عليه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم
واموالهم وقال تعالى للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل
اغنياء من التعفف ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار
وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر واما الاخبار في مدح الفقر فاكثر من ان تحصى قال ابن عمر رضي
الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطي حق الله
في نفسه وماله فقال صلى الله عليه وسلم نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله
فقال فقير يعطي جهده وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله تعالى فقيرا ولا تلقه غنيا وقال
صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب الفقير المتعفف ابا العيال وفي الخبر المشهور يدخل فقراء امتي
قبل اغنيائهم الجنة بخمس مائة عام وفي حديث آخر باربعين خريفا اي اربعين سنة فيكون
المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص والتقدير بخمس مائة عام تقدير تقدم الفقير
الزاهد على الغني الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك ضرورة تفاوت بين الفقراء
في درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه
نسبة الاربعين الى خمس مائة ولا تظنن ان تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا
وبالاتفاق بل لا يتكلم الا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى وهذا
كقوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة فانه تقدير تحقيق
لا محالة ولكن ليس في قوة غيره ان يعرف علة تلك النسبة الا بتخمين فاما بالتحقيق فلا اذ تعلم ان
النبوة عبارة عما يختص به النبي صلى الله عليه وسلم ويفارق به غيره وهو يختص بانواع من الخواص
احدها انه يعرف حقايق الامور المتعلقة بالله عز وجل وصفاته وملائكته والدار الآخرة لا كما يعلمه
غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثانية ان له في نفسه
صفة بها يتم له الافعال الخارقة للعادات كما ان لنا صفة تتم بها الحركات المقرونة بارادتنا واختيارنا
وهي القدرة وان كانت القدرة والمقدور جميعا من فضل الله والثالثة ان له صفة بها يبصر الملائكة
ويشاهدهم كما ان للبصير صفة بها يفارق الاعمى حتى يدركها المبصرات والرابعة ان له صفة بها
يفارق الاعمى حتى يدركها للمبصرات يدرك ما سيكون في الغيب اما في اليقظة واما في المنام اذ بها
يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها الانبياء ويعلم

اقسام كل واحد منهما الي اقسام وربما يمكننا ان نقسمها الي اربعين والي خمسين والي ستين ويمكننا ايضا
ان نتكلف تقسيمها الي ستة واربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق
واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين ولا ندري حقيقة انه الذي اراده صلى الله
عليه وسلم ام لا وانما المعلوم بجامع الصفات التي بها تتم النبوة واصل انقسامها وذلك لا يرشدنا
الي معرفة علة التقدير فكذلك نعلم ان الفقراء هم درجات كما سبق فاما المكان هنا الفقير الحريص مثلا
علي نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتي لم يتصل له التقدم باكثر من اربعين سنة الي الجنة واقتضى
له التقدم بخمس مائة عام فليس في قوة غير الانبياء الوقوف علي ذلك الا بنوع من التخمين لا يوثق به والغرض
التنبيه علي منهاج التقدير في امثال هذه الامور فان الضعيف الايمان قد يظن ان ذلك يجري من
رسول الله صلى الله عليه وسلم علي سبيل الاتفاق وحاشى لمنصب النبوة ذلك ولنرجع الي نقل الاخبار
فقد قال صلى الله عليه وسلم ايضا خير هذه الامة فقراؤها واسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها وقال
صلى الله عليه وسلم ان لي حرفتين اثنتين فمن احبهما فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني الفقر والجهاد
وروي ان جبرئيل عليه السلام نزل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ان الله عز وجل يقرا عليك
السلام ويقول اتحب ان اجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك حيثما كنت فاطرق رسول الله صلى الله
عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبرئيل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له
فقال له جبرئيل علم ثبتك الله بالقول الثابت وروي ان عيسى عليه السلام مر في سياحته برجل نايم
ملتف في عباءة فايقظه وقال يا نايم قم فاذكر الله عز وجل فقال ما تريد مني اني تركت الدنيا لاهلها
فقال له فنم اذا حبيبي ثم ومر موسى عليه السلام برجل نايم على التراب وتحت راسه لبنة ووجهه
ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا ضايع فاوحى الله تعالى
اليه يا موسى اما علمت اني اذا نظرت الي عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن ابي
رافع رضى الله عنه قال ورد علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه
فارسلني الى رجل من يهود خيبر وقال قل له يقول لك محمد صلى الله عليه وسلم اسلفني او بعني دقيقا
الي هلال رجب قال فاتيته فقال لا والله الا برهن فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك
فقال اما والله اني لامين في السماء امين في اهل الارض ولو باعني او اسلفني لاديت اليه اذهب
بدرعي هذا فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الاية ولا تمدن عينيك الي ما متعنا به ازواجا منهم
زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى تعزية له صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال

صلى الله عليه وسلم الفقر ازين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس وقال صلى الله عليه وسلم من اصبح منكم
معافا في جسده امنا في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا وقال كعب الاحبار قال الله تعالى
لموسى عليه السلم يا موسى اذا رايت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رايت الغنى مقبلا
فقل ذنب عجلت عقوبته وقال عطاء الخراساني مر نبي من الانبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا
فقال بسم الله والقى شبكته فلم يخرج فيها شي ثم مر باخر فقال بسم الشيطان والقى شبكته فخرج منها
من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا رب وقد علمت ان كل
ذلك بيدك فقال الله عز وجل للملائكة اكشفوا العبدين عن منزلتيهما فلما راى ما اعد الله عز وجل لهذا من الكرامة
ولذلك من الهوان قال رضيت يا رب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت في الجنة فرايت اكثر اهلها
الفقراء واطلعت في النار فرايت اكثر اهلها الاغنياء وفي اللفظ الاخر فقلت اين الاغنياء فقال
حبسهم الجد وفي حديث اخر فرايت اكثر اهل النار النساء فقال ما شانهن قيل شغلهن الاحمران
الذهب والزعفران وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن في الدنيا الفقر وفي الخبر اخر الانبياء دخولا
الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه واخر اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفي
حديث اخر اتيه دخل الجنة زحفا وقال عيسى عليه السلم بشدة يدخل الغني الجنة وفي خبر عن اهل
البيت انه صلى الله عليه وسلم قال اذا احب الله عز وجل عبدا ابتلاه فاذا احبه الحب البالغ اقتناه
قيل وما اقتناه قال لم يترك له اهلا ولا مالا وفي الخبر اذا رايت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار
الصالحين واذا رايت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته فقال موسى عليه السلم يا الهي من احباؤك
من خلقك حتى احبهم لاجلك فقال كل فقير فقير فيمكن ان يكون الثاني للتاكيد ويمكن ان يكون
المراد به شديد الضر وقال عيسى عليه السلم اني لاحب المسكنة وابغض النعماء وكان احب الاسامي
اليه ان يقال يا مسكين ولما قال سادات واغنياء العرب للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم
يوما يجيئون اليك ولا نجي فنجي اليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وصهيب وسلمان
وابي ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وابي هريرة واصحاب الصفة من الفقراء فاجابهم النبي صلى الله عليه وسلم
الى ذلك لانهم شكوا اليه التاذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت
الروايح من ثيابهم فاشتد على الاغنياء ذلك منهم الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن بدر الفزاري
والعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فاجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا يجمعهم واياهم مجلس فنزل عليه
قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم يعني الفقراء

تريد زينة الحيوة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا يعني الاغنيا وقل الحق من ربكم مع الفقرا فمن
شا فليؤمن الاية واستاذن ابن ام مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من اشراف قريش
فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى ان جاءه
الاعمى وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى يعني ابن ام مكتوم اما من استغنى فانت له تصدى
يعني هذا الشريف وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال يؤتى بالعبد يوم القيمة فيعتذر الله تع اليه كما
يعتذر الرجل الى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك ولكن اعددت
لك من الكرامة والفضيلة اخرج يا عبدي الى هذه الصفوف فمن اطعمك او كساك في يريد بذلك وجهي
فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد الجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فياخذ
بيده ويدخله الجنة وقال صلى الله عليه وسلم اكثروا معرفة الفقرا واتخذوا عندهم الايادي فان لهم
دولة فقالوا يا رسول الله وما دولتهم قال اذا كان يوم القيمة قيل لهم انظروا من اطعمكم كسرة وسقاكم شربة
وكساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به الى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم وما دولتهم قال اذا كان يوم القيمة
قيل لهم انظروا من اطعمكم كسرة وسقاكم شربة وكساكم دخلت الجنة فسمعت حركة امامي فنظرت فاذا
بلال فنظرت في اعلاها فاذا فقرا امتي واولادهم ونظرت في اسفلها فاذا فيهم من الاغنيا
والنسا قليل فقلت يا رب ما شانهم قال اما النسا فاضرهن الاحمران الذهب والحرير واما
الاغنيا فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت اصحابي فلم ار عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك
وهو يبكي فقلت ما خلفك عني فقال اما والله يا رسول الله ما خلفت اليك حتى لقيت المشيبات
وظننت اني لا اريك فقلت ولم قال كنت احاسب بمالي فانظر الى هذا وعبد الرحمن بن عوف
صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بانهم من
اهل الجنة وهو من الاغنيا الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من قال بالمال هكذا
وهكذا ومع هذا قد استضر بالغنى الى هذا الحد ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ولم ير له شيئا
فقال لو قسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم الا اخبركم بملوك اهل
الارض الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف اغبر اشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو
اقسم على الله لابره وقال عمران بن حصين رضي الله عنه كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة
وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلعم
فقلت نعم بابي انت وامي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة رضي الله عنها فقرع

الباب وقال السلام عليكم ادخل فقالت ادخل بابي انت وامي يا رسول الله فقال انا ومن معي قالت ومن
معك يا رسول الله قال عمران رضي الله عنه فقالت فاطمة رضي الله عنها والذي بعثك بالحق نبيا ما علي الا
عباءة قال اصنعي بها هكذا وهكذا واشار بيده فقالت هذا جسدي وقد واريته فكيف براسي فالقى
اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على راسك ثم اذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا بنتاه
كيف اصبحت فقالت اصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي اني لست اقدر على طعام آكله فقد اضرني
الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلث واني لاكرم على
الله تعالى منك ولو سالت ربي لاطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبيها وقال لها
ابشري فوالله انك لسيدة نساء اهل الجنة قالت فاين آسية امراة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية
سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وخديجة سيدة نساء عالمها وانت سيدة نساء عالمك
انكن في بيوت من قصب لا اذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك
سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة وروي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ابغض
الناس فقراءهم واظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله باربع خصال بالقحط من الزمان
والجور من السلطان والخيانة من ولاة الاحكام والشوكة من الاعداء واما الآثار فقد قال ابو الدرداء رضي
ذو الدرهمين اشد حبسا او اشد حسابا من ذي الدرهم وارسل عمر رضي الله عنه الى سعد بن عامر بالف
دينار فجاء كئيبا حزينا فقالت امراته احدث امر قال اشد من ذلك ثم قال اريني درعك الخلق فشقه
فجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل
فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمس ماية عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل في غمارهم فيوخذ
بيده فيستخرج قال ابو هريرة رضي الله عنه ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد ان يغسل ثوبه
فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقدة قدرين ورجل دعا بشرابه فلم يقل لها ايها تريد وقيل
جاء فقير الى مجلس الثوري رضي الله عنه فقال له تخط لو كنت غنيا ما قربتك وكان الاغنياء من اصحابه يودون
انهم فقراء لكثرة تقريبه الفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المومل ما رايت الغني اذل منه في مجلس الثوري
ولا رايت الفقير اعز منه في مجلس الثوري وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر
لنجا منهما جميعا ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف
خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا وقال ابن عباس رضي الله عنهما ملعون من اكرم بالغني واهان
بالفقر وقال لقمن لابنه لا تحقرن احدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه

حبك للفقراء من اخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة
المنافقين وفي الاخبار عن الكتب السالفة ان الله تعالى اوحى الى بعض اوليائه احذر ان امقتك
فتسقط من عيني فاصب عليك الدنيا صبا ولقد كانت عايشه رضي الله عنها تفرق مائة الف
درهم في يوم واحد وقد وجهها اليها معوية وابن عامر وغيرهما وان درعها لمرقوع وتقول لها الجارية
لو اشتريت لك بدرهم لحما افطرت عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتني فعلت وكان قد اوصاها
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان اردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء ومجالسة الاغنياء
واياك ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه وجاء رجل الى ابرهيم بن ادهم بعشرة الاف درهم فابى عليه
ان يقبلها فطلب اليه الرجل فقال ابرهيم بن ادهم اتريد ان امحوا اسمي من ديوان الفقراء
بعشرة الاف درهم لا افعل فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدي للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال
صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا فالاول
للقانع وهذا للرضى ويكاد يشعر هذا بمفهومه ان الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة
في فضل الفقر تدل على ان له ثوابا كما سياتي تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضى هو الكراهة لفعل
الله عز وجل في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه انكار على الله تعالى ولا كراهة
في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر وروي عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر هم جلساء الله تعالى
يوم القيمه وروي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العباد الى الله
عز وجل الفقير القانع برزقه الراضي عن الله عز وجل وقال عليه السلام اللهم اجعل قوت آل
محمد كفافا وقال ما من احد غني ولا فقير الا ود يوم القيمه انه كان اوتي قوتا في الدنيا واوحى الله
الى اسماعيل عليه السلم اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال من هم قال الفقراء الصادقون
وقال صلى الله عليه وسلم لا احد افضل من الفقير اذا كان راضيا وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله
يوم القيمة اين صفوتي من خلقي فيقول الملايكه ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون
بعطايي الراضون بقدري ادخلوهم الجنه فيدخلونها وياكلون ويشربون والناس في الحساب
يترددون فهذا في القانع والراضي فاما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب
انشاء الله عز وجل واما الاثار في الرضى والقناعة فكثيرة ولا يخفى عليك ان القناعة يضادها

الطمع وقد قال عمر رضي الله عنه ان الطمع فقر وان الياس غنى وانه من ييس عما في ايدي الناس وقنع ا
عنهم وقال ابن مسعود رضي الله عنه ما من يوم الا وملك ينادي من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك
خير من كثير يطغيك وقال ابو الدرداء رضي الله عنه ما من احد الا وفي عقله نقص وذلك انه اذا اتته الدنيا
بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع
مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغنى فقال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان
ابرهيم بن ادهم من اهل النعم بخراسان فبينا هو يشرف من قصره ذات يوم اذ نظر الى رجل في فناء
القصر وبيده رغيف ياكله فلما اكل نام فقال لبعض غلمانه اذا قام فجيئني به فلما قام جاء به اليه فقال
ابرهيم ايها الرجل اكلت الرغيف وانت جايع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم
فقال ابرهيم في نفسه فما اصنع انا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومر رجل بعامر بن عبد قيس
وهو ياكل ملحا وبقلا فقال يا عبد الله ارضيت من الدنيا بهذا فقال افلا ادلك على من رضي بشر من
هذا قال بلى قال من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا
فيبله بالماء وياكله بالملح ويقول من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج الى احد وقال الحسن رحمة الله عليه لعن
الله اقواما اقسم الله عز وجل لهم ثم لم يصدقوا ثم قرا وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والارض
انه لحق مثل ما انكم تنطقون وكان ابو ذر رضي الله عنه يوما جالسا في الناس فاتته امراته فقالت له
تجلس بين هولاء والله ما في البيت هفة ولا سفة فقال يا هذه ان بين ايدينا عقبة كؤدا لا ينجو
منها الا كل مخف فرجعت وهي راضية وقال ذو النون رحمة الله عليه اقرب الناس الى الكفر ذو فاقة
لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن والياس مما في ايدي
الناس ويروى ان الله تع قال في بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها
الا القوت فاذا انا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا محسن اليك وقد قيل في
القناعة اضرع الى الله لا تضرع الى الناس واقنع بياس فان العز في الياس واستغن عن كل ذي قربى
وذي رحم ان الغني من استغنى عن الناس وقيل ايضا يا جامعا مانعا والدهر يرمقه مقدرا اي باب
منه يغلقه مفكرا كيف ياتيه منيته اغاديا ام بها يسري فيطرقه جمعت مالا فقل هل جمعت له يا
جامع المال اياما تفرقه المال عندك مخزون لوارثه ما المال مالك الا يوم تنفقه ارفه ببال فتى يغدو على ثقة
ان الذي قسم الارزاق يرزقه فالعرض منه مصون ما يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
ان القناعة من يحلل بساحتها لم يلق في ظلها هما يورقه

بيان فضل الفقر على الغنى

اعلم ان الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيد والخواص والاكثرون الى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء الغنى
الشاكر القايم بحقه افضل من الفقير الصابر ويقال ان الجنيد دعى على ابن عطاء لمخالفته اياه في هذا فاصابته
محنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل الطلب الفضيلة في الاعمال
والاحوال وان ذلك لايمكن الا بتفصيل واما الفقر والغنى اذا اخذ مطلقا لم يسترب من قرا الاخبار والآثار في
تفضيل الفقر ولابد فيه من تفصيل فنقول انما يتصور الشك في مقامين احدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب
بل هو قانع او راضي بالاضافة الى غني منفق ماله ليس حريصا على امساك المال والثاني فقير حريص وغني حريص
اذ لا يخفى ان الفقير القانع افضل من الفقير الحريص اما الاول فربما يظن ان الغنى افضل من الفقير الحريص
اما الاول فربما يظن ان الغنى افضل من الفقير لانهما تساويا في ضعف الحرص على المال والغني متقرب بالصدقات
والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه فاما الغنى المتمتع بالمال في مباح فلا مقصور
ان تفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روي في الخبر ان الفقراء شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا
سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ما ناله
الاغنياء فتعلم الاغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلم ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطاء ايضا لما سئل عن ذلك فقال الغنى افضل لانه وصف الحق
اما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر قد روي مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو ان ثواب الفقير في التسبيح
يزيد على ثواب الغنى وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن اسلم عن
انس بن مالك رضي الله عنه قال بعث الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا فقال اني رسول
الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم جئت من عند قوم احبهم قال قالوا يا رسول الله
ان الاغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل
اموالهم ذخيرة لهم فقال صلى الله عليه وسلم بلغ عني الفقراء ان لمن صبر واحتسب منكم ثلث خصال ليست
للاغنياء اما خصلة واحدة فان في الجنة غرفا ينظر اليها اهل الجنة كما ينظر اهل الارض الى نجوم
السما لا يدخلها الا نبي فقير او شهيد فقير او مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء
بنصف يوم وهو خمس مائة عام والثالثة اذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر
وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني الفقير وان انفق فيها عشرة الاف درهم وكذلك اعمال البر كلها
فرجع اليهم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على ان قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء اي مزيد ثواب
الفقراء على ذكرهم واما قوله ان الغنى وصف الحق فقد اجابه بعض الشيوخ فقال الا ترى ان الحق غني بالاسباب

والاعراض فانقطع ولم ينطق واجاب آخرون فقالوا التكبر من صفات الحق فينبغي ان يكون افضل من التواضع
ثم قالوا بل هذا يدل على ان الفقر افضل لان صفات العبودية افضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية
لا ينبغي ان ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روي عنه نبيه صلى الله عليه وسلم انه قال الكبرياء ردائي والعظمة
ازاري فمن نازعني فيهما قصمته وقال سهل رحمة الله عليه حب الغنى والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها
لانه من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تحتمل
التاويل وبكلمات قاصرة لا يبعد مناقضتها اذ كما يناقض قول من فضل الغنى بانه صفة الحق بالتكبر فكذلك
يناقض قول من فضل الفقر لانه صفة العبد بالجهل والغفلة لان العلم والمعرفة وصف الرب والجهل
والغفلة وصف العبد وليس لاحد ان يفضل الغفلة على المعرفة والجهل على العلم فكشف الغطاء في هذا
هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو ان ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر
فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عايقة عن الوصول الى الله تعالى ولا الفقر مطلوب لعينه
ولكن لان فيه فقد العايق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان
عليه السلم وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد
وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة
مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل
على التحقيق حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والمحب للشي مشغول به سواء كان في فراقه
او في وصاله وربما يكون شغله في الفراق اكثر وربما يكون في الوصال اكثر والدنيا معشوقة الغافلين
المحروم عنها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا ان فرضت فارغين
عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر
الحاجة فوجود قدر الحاجة افضل من فقده اذ الجايع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان اخذت
الامر باعتبار الاكثر فالفقير عن الخطر ابعد اذ فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا تقدر
ولذلك قالت الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذا خلقة
الآدميين كلهم الا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الاعصار الكثيرة الا نادرا ولما كان خطاب الشرع
مع الكل لا مع ذلك النادر والضراء اصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع من الغنى وذمه وفضل
الفقر ومدحه حتى قال عيسى صلوات الله عليه لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب
بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص حلاوة الايمان وفي الخبر لكل امة عجل وعجل هذه الامة

الدينار والدرهم وكان اصل عجل قوم موسى من حلي الذهب والفضة ايضا فاستوى المال والما والذهب والحجر انما
يتصور للانبيا والاوليا ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا
اليك عني اليك عني اذ كانت تتمثل له بزينتها وكان علي رضي الله عنه يقول يا صفرا غري غيري ويا بيضا غري غيري
وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا ان رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق اذ قال
صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا كان ذلك بعيدا فاذا الاصلح لكافة الخلق
فقد المال وان تصدقوا به وصرفوه الى الخيرات لانهم لا ينفكون في القدرة على المال عن انس بالدنيا وتمتع
بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر ما يانس العبد بالدنيا
يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة لله يستوحش من الله ومن حبه
ومهما انقطعت اسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى عما سوى الله وكان
مؤمنا بالله انصرف لا محالة الى الله تعالى اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله عز وجل وغيره فمن اقبل
على غيره فقد تجافى عنه ومن اقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على احدهما وبقدر تجافيه عن الآخر
وقربه من احدهما بقدر بعده عن الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر
ما يقرب من احدهما يبعد من الآخر بل عين القرب من احدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا
هو عين بغض حب الله ع فينبغي ان يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوفه عن الدنيا او انسه بها فاذا
فضل الغني والفقير بحسب تعلق قلبهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما الا ان هذا مزلة القدم
وموضع الغرور فان الغني ربما يظن انه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به
وانما يشعر به اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه واذا سرق منه فان وجد لقلبه اليه التفاتا فليعلم انه
كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية
اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فتحقق اذ ذاك انه كان مغرورا وان العشق كان مستكنا
في الفواد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الاغنيا الا الانبيا والاوليا واذا كان ذلك محالا
او بعيدا فلنطلق القول بان الفقر اصلح لكافة الخلق وافضل لان علاقة الفقير وانسه بالدنيا اضعف
وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لاعيانها
بل ليتاكد بها الانس بالمذكور فلا يكون تاثيرها في اثارة الانس في قلب فارغ عن غير المذكور كتاثيرها في قلب مشغول
ولذلك قال بعض السلف من تعبد في طلب الدنيا كمن يطفي النار بالحلفا ومن يغسل يده من الغمر
بالسمك وقال ابو سليمان الداراني رحمة الله عليه تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها افضل من عبادة غني

كلها
الف عام وعن الضحاك من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسبه كان خيرا له من الف دينار ينفقها
في سبيل الله وقال رجل لبشر بن الحارث رحمة الله عليه ادع الله عز وجل لي فقد اضر بي العيال فقال اذا قال لك
عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع لي في ذلك الوقت فان دعاءك افضل من دعائي وكان يقول مثل الغني
المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع
علم المعرفة من الاغنياء وقد قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم اني اسئلك الذل عند النصف من نفسي والزهد
فيما جاوز الكفاف واذا كان مثل الصديق في كمال حاله يحذر من الدنيا او وجودها فكيف يشك في ان فقد
المال اصلح من وجوده هذا مع ان احسن احوال الغني ان يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه
في عرصات القيمة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب عذب ولهذا تاخر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
عن الجنة اذا كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال ابو الدرداء رضي الله عنه
ما احب ان لي حانوتا على باب المسجد ولا يخطئني فيه صلوة واذكر واربح كل يوم اربعين دينارا واتصدق
بها في سبيل الله قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال شقيق رحمه الله عليه اختار الفقراء ثلاثة
اشياء والاغنياء ثلثة اشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الاغنياء
تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من ان الغني وصف الحق فهو افضل
صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بان يستوي عنده كلاهما فاما اذا كان
غنيا بوجوده ومفتقرا الي بقائه فلا يضاهي غنا الله عز وجل لان الله تعالى غني بذاته لا بما يتصور زواله
والمال يتصور ان يسرق وما ذكر في الرد عليه من ان الله تعالى ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح في ذم
غني يريد بقاء المال وما ذكر من ان صفات الحق لا يليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو افضل
شيء للعبد بل منتهى العبد ان يتخلق باخلاق الله وقد سمعت بعض المشايخ يقول ان سالك الطريق الى
الله عز وجل قبل ان يقطع الطريق تصير الاسماء التسعة والتسعون اوصافا له اي يكون له من كل واحد
نصيب واما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى واما
التكبر على من يستحقه عليه كتكبر المؤمن على الكفار والتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي يليق به
نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذاء وليس ذلك من وصف الله عز وجل وانما وصف الله عز وجل انه
اكبر من كل شيء وانه يعلم انه كذلك والعبد مامور بان يطلب اعلى المراتب ان قدر عليه ولكن بالاستحقاق
كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد ان يعلم ان المؤمن اكرم من الكافر والمطيع اكرم من العاصي والعالم
اكرم من الجاهل والانسان اكرم من البهيمة والجماد والنبات واقرب الى الله عز وجل منها فلو راى نفسه بهذه

الصفة رتبة محققة لا شك فيها لكان صفة الكبر حاصلا له والاباء به وفضيلة في حقه الا انه لا سبيل
الي معرفته فان ذلك موقوف علي الخاتمة وليس يدري الخاتمة كيف يكون وكيف تتفق فلجهله بذلك
وجب ان لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر بالايمان وقد يختم له بالكفر
فلم يكن ذلك لا يتابه لقصور علمه علي معرفة العاقبة ولما تصور ان يعلم الشيء علي ما هو به كان العلم كمالا
في صفته لانه من صفات الله عز وجل ولما كان معرفة بعض الاشياء قد يضره صار ذلك العلم نقصانا في
حقه اذ ليس من اوصاف الله عز وجل علم يضره فمعرفة الامور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من
صفات الله عز وجل فلاجرم هو منتهى بالفضيلة وبه فضل الانبياء والاولياء والعلماء فاذا لو استوي عنده
وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة
اما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه اصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع الي حال الغني الشاكر
المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص الي الغني الحريص ولنفرض ذلك في حق شخص واحد هو طالب
للمال وساعي فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فاي حالتيه افضل فنقول ينظر
فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده ان يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه
فحال الوجود افضل لان الفقد يشغله بالطلب فطالب القوت لا يقدر على الذكر والفكر الا قدرة مدخول
بشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال صلعم
كاد الفقر ان يكون كفرا اي الفقر مع الاضطراب فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة او كان
المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة على سلوك الدين فحالة الفقد اصلح وافضل لانهما استويا
في الحرص وحب المال واستويا في ان كل واحد ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا ان كل
واحد ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا في ان الواجد يانس بما وجد فيتاكد حبه
في قلبه ويطمئن الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا ويكون الدنيا عنده مثل السجن
الذي يبغي الخلاص منه ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان احدهما اشد ركونا الى الدنيا
فحاله اشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تاكد انسه بالدنيا وقد قال
صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في روعي احبب ما احببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على ان
فراق المحبوب شديد فينبغي ان تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك
اذا احببت الدنيا كرهت لقاء الله عز وجل فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل
من فارق محبوبا يكون اذاه في فراقه بقدر حبه وقدر انسه به وانس الواجد للدنيا بالدنيا اكثر من انس

الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف بهذا التحقيق ان الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لكافة
الخلق الا في موضعين احدهما غنى مثل عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له
اذ يستفيد به ادعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد ان يكون
كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه الا اذا كان بوجوده يبقى حيوة ثم يستعين بقوته وحيوته على الكفر والمعاصي ولو مات
جوعا لكانت معاصيه اقل والاصلح له ان يموت جوعا ولا يجد ما يضطر اليه ايضا فهذا تفصيل القول في الغنى
والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه في غني دونه في الحرص على حفظ
المال ليس له هم سواه في غني دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه لفقد المال لو فقده كتفجع الفقير
لفقره فهذا في محل النظر والاظهر ان بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف
تفجعهما لفقده والعلم عند الله عز وجل بيان ادب الفقير في فقره اعلم ان للفقير ادابا
في باطنه وظاهره ومخالطته وافعاله ينبغي ان يراعيها فاما ادب باطنه فان لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله
تعالى به من الفقر اعني انه لا يكون كارها فعل الله من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر كالمحجوم يكون كارها
للحجامة لتألمه بها لا يكون كارها فعل الحجامة ولا كارها للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا اقل درجاته
وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضى
من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وارفع من هذا ان لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وارفع منه
ان يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا في باطنه على الله عز وجل واثقا به في قدر ضرورته
انه لا يأتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال علي رضي الله عنه ان لله عقوبات بالفقر ومثوبات
بالفقر فمن علامة الفقر اذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله عز وجل
على فقره ومن علامته اذا كان عقوبة ان يسوء عليه خلقه ويعصي ربه ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا
يدل على ان كل فقير فليس بمحمود بل الذي لا يتسخط او يرضى او يفرح بالفقر لعلمه بثمرته اذ قيل ما اعطي عبد شيئا
من الدنيا الا قيل له خذه على ثلاثة اثلاث شغل وهم وطول حساب واما اداب ظاهره فان يظهر
التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر انه يستره ففي الحديث ان الله تعالى يحب الفقير
المتعفف ابا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف وقال سفيان افضل الاعمال التجمل عند
المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر واما في اعماله فادبه ان لا يتواضع لغني لاجل غناه بل يتكبر عليه
قال علي رضي الله عنه ما احسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله وما احسن منه تيه الفقير على الغني ثقة
بالله عز وجل فهذه رتبة واقل منها ان لا يخالط الاغنياء ولا يرغب في مجالستهم لان ذلك من مبادي الطمع

قال الثوري رحمه الله تعالى اذا خالط الفقير الاغنياء فاعلم انه مرائي واذا خالط السلطان فاعلم انه لص وقال
بعض العارفين اذا مال الفقير الى الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل وينبغي
ان لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا في العطاء واما ادبه في افعاله فان لا يفتر بسبب الفقر عن
عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله اكثر من اموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى روى
عن زيد بن اسلم رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم درهم من الصدقة افضل عند الله من مائة الف درهم
قيل وكيف ذاك يا رسول الله قال اخرج رجل من عرض ماله مائة الف فتصدق بها واخرج رجل درهما من درهمين
لا يملك غيرهما طيبة بها نفسه فصار صاحب الدرهم افضل من صاحب المائة الف درهم وينبغي ان لا يدخر
مالا بل ياخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلث درجات احديها ان لا يدخر الا ليومه وليلته وهي درجة
الصديقين والثانية ان يدخر لاربعين يوما فان ما زاد عليه داخل في طول الامل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد
الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في امل الحياة اربعين يوما وهذه درجة المتقين والثالثة ان يدخر لسنة
وهي اقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن
حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف في طمانينة قلبه في قوت سنة وغنى الخصوص في اربعين يوما
وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة

بيان اداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير
سؤال ينبغي ان يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلثة امور نفس المال وغرض المعطي وغرضه في الاخذ اما نفس المال
فينبغي ان يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من اخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال
والحرام درجات الشبه وما يجب اجتنابه وما يستحب واما غرض المعطي فلا يخلو اما ان يكون غرضه تطييب
قلبه وطلب محبته وهو الهدية او الثواب وهو الصدقة والزكوة او الذكر والرياء والسمعة اما على التجرد واما
ممزوجا ببقية الاغراض اما الاول وهو الهدية فلا باس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولكن ينبغي ان لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالاولى تركها فان علم ان بعضها مما يعظم فيه المنة
فليرد البعض دون البعض فقد اهدي الى النبي صلى الله عليه وسلم سمن واقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد
الكبش وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على البعض وقال لقد هممت ان لا اتهب الا من قرشي
او ثقفي او دوسي وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت الى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا
عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اتاه رزق من غير مسئلة فرده فانما يرده على الله عز وجل ثم فتح الصرة
فاخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن رضي الله عنه يروي هذا الحديث ايضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة
من دقيق ثياب خز فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس لقي الله عز وجل يوم القيمة وليس له خلاق

وهذا يدل على ان الواعظ والعالم امرهما اشد في قبول العطايا وقد كان الحسن يقبل من اصحابه وكان ابرهيم التيمي
يسال اصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المائتين فلا ياخذ وكان بعضهم اذا اعطاه صديقه
شيا قال اتركه عندك وانظر ان كنت بعد قبوله في قلبك افضل مني قبل القبول فاخبرني حتى اخذه والا فلا
وامارة هذا ان يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته فان
علم انه يمازجه منة فاخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقرا الصادقين وقال بشر رحمه الله عليه ما سالت
احدا قط شيا الا سريا السقطي لانه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشي من يده ويتبرم ببقائه
عنده فاكون عونا له على ما يحب وجاء خراساني الى الجنيد بمال وساله ان ياكله فقال افرقه على الفقرا
فقال ما اريد هذا فقال ومتى اعيش حتى اكل هذا فقال ما اريد ان تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوا
والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراساني ما اجد ببغداد امن علي منك فقال الجنيد ولا ينبغي
ان يقبل الا من مثلك الثاني ان يكون للثواب المجرد وذلك صدقة او زكوة فعليه ان ينظر في صفات نفسه
انه هل هو مستحق للزكوة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب اسرار الزكوة وان
كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمعصية في السر يعلم ان المعطي
لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله تع بالتصدق عليه فهذا حرام اخذه كما لو اعطاه لظنه انه عالم او
علوي فان اخذه حرام محض لا شبهة فيه والثالث ان يكون غرضه الشهرة والريا والسمعة فينبغي ان يرد
عليه قصده الفاسد ولا يقبله اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان سفين الثوري رحمه الله عليه
يرد ما يعطى ويقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم في رده ما كان ياتيه
من صلة فقال انما ارد صلتهم اشفاقا ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك ويحبون ان يعلم به فتذهب اموالهم
وتحبط اجورهم واما غرضه في الاخذ فينبغي ان ينظر اهو محتاج اليه ام لا فان كان محتاجا اليه فيما لا بد منه
وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالافضل له الاخذ قال النبي صلى الله عليه وسلم ما
المعطي من سعة باعظم اجرا من الاخذ اذا كان محتاجا وقال النبي صلى الله عليه وسلم من اتاه شي من هذا
المال من غير مسيلة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله عليه وفي لفظ فلا يرده وقال بعض العلما من
اعطي ولم ياخذ سال ولم يعط وكان سري السقطي يا احمد احذر آفة الرد يوصل الى احمد بن حنبل رضي الله عنهما
شيا فرده فقال له السري يا احمد احذر آفة الرد فانها اشد من آفة الاخذ فقال له احمد اعد علي ما قلت فاعاد
فقال احمد ما رددت عليك الا لان عندي قوت شهر فاحبسه لي عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه لي وقال
العلما يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلا بطمع او دخول في شبهة او غيره فاما اذا كان ما

اناء زايدا على حاجته فلا يخلو اما ان كان حالة الاشتغال بنفسه او التكفل بامور الفقراء او الانفاق عليهم لما في طبعه
من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه ما ان كان طالبا طريق الآخرة فان ذلك محض
اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان او داعي اليه ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ثم له مقامان
احدهما ان ياخذ في العلانية ويرد في السر ويفرق في السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا
من اطمأنت نفسه بالرياضة والثاني ان يتركه ولا ياخذ ليصرفه صاحبه الى من هو احوج منه او ياخذ ويوصل الى من هو
احوج او ياخذ ويوصل الى من هو احوج فيفعل كلاهما في السر وكليهما في العلانية وقد ذكرنا ان الافضل اظهار
الاخذ واخفاؤه في كتاب اسرار الزكوة مع جملة من احكام الفقر فليطلب من موضعه واما امتناع احمد عن قبول
عطاء السري رحمهما الله فانما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه ان يشتغل باخذه وصرفه
الى غيره فان في ذلك آفات واخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لم يامن مكيدة الشيطان على
نفسه قال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم اعددتها للانفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من
طوافه وهو يقول بصوت خفي جايع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يا من يرى ما لا نرى فاذا عليه خلقان
لا تكاد تواريه فقلت في نفسي لا اجد لدراهمي موضعا احسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها فاخذ منها خمسة
دراهم فقال اربعة ثمن ميزرين وواحد انفقه ثلاثا فلا حاجة لي الى الدنيا فرده قال فرايته الليلة الثانية
وعليه ميزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت الي فاخذ بيدي فاطافني معه اسبوعا كل شوط منها
في جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر
ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد اعطانيه فزهدت فيه واخذ من ايدي الخلق لان هذا اثقال
وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود ان الزيادة على قدر الحاجة انما تاتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله
اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة ياتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى
انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم لا حق لابن آدم الا في ثلث
طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فاذا انت في اخذ الحاجة من هذه
الثلث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله تعالى متعرض للحساب وان عصيت الله تع فانت متعرض للعذاب
ومن الاختبار ايضا ان تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله تع وكسر الصفة النفس فياتيك عفوا
صفوا لتمتحن بها قوة عقدك فالاولى الامتناع عنها فان النفس اذا رخص لها في نقض العزم
الفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد فان اخذته وصرفته
الى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون فاما اذا كان حالك البذل والسخاء والتكفل

بحقوق الفقرا وتعهد جماعة من الصلحا فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زايد على حاجة الفقرا وبادر
الى الصرف اليهم ولا تدخر فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتمسكه
ويكون فتنة عليك فقد تصدى لخدمة الفقرا جماعة اتخذوها وسيلة الى التوسع في المال والتنعم
في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله ان يستقرض على
الظن بالله تعالى لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله تعالى من حلال قضاه فان مات
قبل القضاء قضى الله تعالى عنه وارضى غرماءه وذلك بشرط ان يكون مكشوف الحال عند من يقرضه
فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين مثل هذا
الرجل واجب ان يقضى من مال بيت المال ومن الزكوات وقال الله تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتيه
الله قيل معناه ليبع احد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله تعالى وقال بعضهم
لله عباد ينفقون على قدر بضاعتهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تع وكان بعضهم يموت
فاوصى بماله لثلاث طوايف الاقويا والاسخيا والاغنيا فقيل من هولا فقال اما الاقويا فهم اهل
التوكل على الله عز وجل واما الاسخيا فهم اهل حسن الظن بالله عز وجل واما الاغنيا فهم اهل الانقطاع
الى الله عز وجل فاذا مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فلياخذ وينبغي ان يرى ما ياخذ
من الله عز وجل لا من المعطي انما المعطي واسطة قد سخر للعطا وهو مضطر اليه بما سلط عليه من الدواعي
والارادات والاعتقادات وقد حكي ان بعض الناس دعى شقيقا في خمسين من اصحابه فوضع الرجل
مايدة حسنة فلما قعد قال لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم يراني صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي
عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا كان دونهم في الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ماذا قصدت
بها فقال اردت ان اختبر توحيد اصحابي كلهم وقال موسى عليه السلم يا رب جعلت رزقي هكذا على ايدي
بني اسرايل يغديني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة فاوحى الله تعالى اليه هكذا اصنع باوليايي اجري
ارزاقهم على ايدي البطالين من عبادي ليوجروا فيهم فلا ينبغي ان يرى المعطي الا من حيث انه مسخر ماجور

بيان تحريم السوال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه اعلم انه قد وردت انه مناهي في السوال
والتشديدات وورد فيه ايضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله عليه وسلم للسايل حق وان جا على فرس
وفي الخبر ردوا السايل ولو بظلف محترق ولو كان السوال حراما مطلقا لما جاز اعانة المعتدي على عدوانه
والاعطاء اعانة فالكاشف للغطا فيه ان السوال حرام في الاصل وانما يباح لضرورة او حاجة مهمة قريبة من
الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما قلنا ان الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلاثة امور محرمة الاول

اظهار الشكوى من الله عز وجل اذ السوال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عز وجل عنه وهو عين الشكوى وكما
ان العبد المملوك لو سال لكان سواله تشنيعا منه على سيده هكذا سوال العباد تشنيعا على الله وهذا ينبغي
ان يحرم ولا يحل الا لضرورة والثاني ان فيه اذلالا للسايل نفسه لغير الله وليس للمومن ان يذل نفسه لغير الله بل
عليه ان يذل لمولاه فان فيه عزا فاما ساير الخلق عباد الله امثاله فلا ينبغي ان يذل لهم الا لضرورة وفي السوال ذل
السايل بالاضافة الي المسوول والثالث انه لا ينفك عن ايذاء المسوول غالبا فانه ربما لا يسمح نفسه بالبذل عن طيب
قلب منه فانه قد يبذل حياء من السايل ورياء فهو حرام على الاخذ وان منع ربما استحيا وتاذى في نفسه بالمنع
اذ يرى نفسه في صورة البخلاء وفي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه فكلاهما موذيان والسايل هو السبب
في الايذاء والايذاء حرام الا لضرورة ومهما هذه المحظورات الثلث فهمت قوله صلى الله عليه وسلم حيث قال مسلة الناس
من الفواحش ما احل من الفواحش غيرها فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى ان الفاحشة انما يباح لضرورة كما يباح
شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيرها وقال صلى الله عليه وسلم من سال عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سال
وله ما يغنيه جاء يوم القيمة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم وفي لفظ آخر كانت مسلته خدوشا وكدوحا
في وجهه وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط
عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسالوا الناس شيا وكان صلى الله عليه وسلم يامر كثيرا بالتعفف
عن السوال يقول من سالنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله تعالى قال ومن لم يسالنا فهو احب الينا وقال صلى الله عليه وسلم
استغنوا عن الناس وما قل من السوال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومني وسمع عمر رضي الله عنه سايلا يسال
بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيه يسال فقال الم اقل لك عش الرجل فقال قد عشيته
فنظر عمر رضي الله عنه فاذا تحت يده مخلاة مملوة خبزا فقال لست سايلا ولكنك تاجر ثم اخذ المخلاة ونثرها بين يدي
ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد لولا ان سواله كان حراما لما ضربه بالدرة ولا اخذ مخلاته ولعل الفقيه
الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من عمر رضي الله عنه ويقول اما ضربه فهو تاديب وقد ورد الشرع
بالتعزير فاما اخذ ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بالمال فكيف استجازه وهذا استبعاد مصدره القصور
في الفقه فاين يظهر الفقهاء كلهم في حوصلة عمر رضي الله عنه واطلاعه على اسرار دين الله عز وجل ومصالح
عباده افترى انه لم يعلم ان المصادرة بالمال غير جايز او علم ذلك ولكن اقدم عليه غضبا في معصية الله عز وجل وحاشاه
او اراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعه والنبي صلى الله عليه وسلم هيهات فان ذلك ايضا معصية بل الفقه الذي لاح له
فيه انه رآه مستغنيا عن السوال وعلم ان من اعطاه شيا فانما اعطاه على اعتقاده انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل
في ملكه باخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى اصحابه اذ لا يعرف اصحابه باعيانهم فبقي مالا لا مالك له فوجب

صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح ومثال اخذ السايل مع اظهار الحاجة كاذبا كاخذ العلوي بقوله
انه علوي وهو كاذب فانه لا يملك ما ياخذه وكاخذ الصوفي والصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف معصية
لو عرفها المعطي لما اعطاه وقد ذكرنا في مواضع ان ما اخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم
الرد الى مالكه فاستدل على هذا الوجه بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء
وقد قررناه في مواضع فلا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر رضي الله عنه فاذا عرفت ان السؤال
يباح لضرورة فاعلم ان الشي اما ان يكون مضطرا اليه او محتاجا اليه حاجة مهمة او حاجة خفيفة او مستغنى عنه
فهذه اربعة احوال اما المضطر اليه فهو سوال الجايع عند خوفه على نفسه موتا او مرضا وسوال العاري وبدنه
مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجد بقية الشروط في المسول بكونه مباحا وفي المسول منه بكونه
راضيا في الباطن وفي السايل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السوال الا اذا
استغرق طلب العلم اوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة واما المستغني فهو الذي يطلب شيا وعنده
مثله وامثاله فسواله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان واما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج
الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكنه لا يخلو عن خوف وكمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو
يتاذى بالبرد تاذيا لا ينتهي الى حد الضرورة وكذلك من يسال لاجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة فهذا ينبغي
ان يسترسل عليه لاباحة لانها ايضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه اولى وهو بالسوال تارك الاولى ولا يسمى سواله
مكروها مهما صدق في السوال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يوذيني اذى اطيقه ولكن يشق علي فاذا صدق
يكون صدقه كفارة لسواله ان شاء الله عز وجل واما الحاجة الخفيفة فمثل سواله قميصا ليلبسه فوق ثيابه
عند خروجه ليستر به الخروق من ثيابه عن اعين الناس وكمن يسال لاجل الادام وهو واجد للخبز وكمن يسال
لكراء الفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار او يسال كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ان كان تلبيس حال
باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان فيه شي من المحذورات الثلاث من الشكوى او الذل او ايذاء
المسول فهو حرام لان مثل هذه الحاجة لا تصلح لان يباح بها هذه المحذورات وان لم يكن فيها شي من ذلك
فهو مباح مع الكراهة فان قلت فكيف يمكن اخلاء السوال عن هذه المحذورات فاعلم ان الشكوى تندفع
بان يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسال سوال محتاج ولكن يقول انا مستغني بما املكه ولكن تطالبني
رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة على الحاجة وفضول من النفس فيخرج به من حد الشكوى واما
الذل فبان يسال اباه او قريبه او صديقه الذي يعلم انه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سواله او الرجل
السخي الذي قد اعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك

فان الذل لازم للمنة لا محالة واما الايذا فسبيل الخلاص منه ان لا يعين شخصا بالسول بعينه بل يلقي الكلام عرضا
بحيث لا يتقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام
فهذا ايذا فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملام ويكون الاحب اليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير ملامة
واما اذا كان يسال معينا فينبغي ان لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقي له سبيل الى التغافل ان اراد فاذا لم يتغافل
مع القدرة عليه فذلك لرغبته وانه غير متاذي به وينبغي ان يسال من لا يستحي منه لو رده او تغافل فان الحيا
من السايل يوذي كما ان الريا مع غير السايل يوذي فان قلت فاذا اخذ مع العلم بان باعث المعطي هو الحيا
منه ومن الحاضرين ولولاه لما ابتدا منه فهو حلال او شبهة فاقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة وحكمه
حكم اخذ مال الغير بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين ان يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب او يضرب باطن
قلبه بسوط الحيا وخوف الملام وضرب الباطن اشد نكاية في قلوب العقلا ولا يجوز ان يقال هو في الظاهر
قد رضي به وقال النبي صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السراير فان هذه ضرورة القضاة في
فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى البواطن وقراين الاحوال فاضطروا الى الحكم بظاهر اللسان مع انه ترجمان
كثير الكذب ولكن الضرورة دعت اليه وهو سوال فيما بين العبد وبين الله عز وجل والحاكم فيه احكم الحاكمين والقلوب
عنده كالالسنة عند ساير الحكام فلا تنظر في مثل هذا الا الى قلبك وان افتوك وافتوك فان المفتي معلم القاضي
والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي القلوب هم علما الآخرة وبفتواهم النجاة عن سطوة سلطان الآخرة
كما ان بفتوى الفقيه النجاة عن سطوة السلطان الدنيا فاذا ما ياخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى
ويجب عليه رده على صاحبه فان كان يستحي من ان يسترده ولم يسترده فعليه ان يثيبه على ذلك بما يساوي
قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان لم يقبل هديته فعليه ان يرد ذلك الى ورثته
فان تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسوال الذي حصل به الاذى
فان قلت فهذا امر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل اليه فربما يظن السايل انه راض ولا يكون هو في
الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السوال راسا فما كانوا ياخذون من احد شيئا اصلا وكان بشر رحمة الله عليه
لا ياخذ من احد اصلا الا من السري وقال لاني علمت انه يفرح بخروج المال من يده فانا اعينه على ما يحبه وانما عظم
النكير في السوال والامر بالتعفف لهذا لان هذا الاذى انما يحل لضرورة وهو ان يكون مشرفا على الهلاك ولم
يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة واذى فيباح له ذلك كما يباح له لحم الخنزير واكل الميتة
وكان الامتناع طريق الورعين ومن ارباب القلوب من كان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قراين الاحوال
فكانوا ياخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا ياخذ الا من اصدقائه ومنهم من كان ياخذ مما

يعطي بعضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والاقط وكان هذا فيما ياتيهم من غير سوال
فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد يكون رغبته طمعا في جاه او طلبا لريا وسمعة فكانوا يحترزون من
ذلك واما السوال فقد امتنعوا عنه راسا الا في موضعين احدهما الضرورة وقد سال ثلاثة من الانبيا في
موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في انهم ما سالوا الا من علموا انه يرغب فيهم والثاني السؤال
من الاصدقاء والاخوان وفي حق الاخوان وقد كانوا ياخذون من اموالهم بغير سوال واستيذان لان ارباب القلوب
علموا ان المطلوب رضى القلوب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم انهم كانوا يفرحون بمباسطتهم
فاذا كانوا يسالون الاخوان عند شكهم في اقتدار اخوانهم على ما يريدون والا فكانوا يستغنون عن السؤال
وحد اباحة السؤال ان يعلم ان المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتداك دون السوال فلا يكون للسؤال
تاثير الا في تعريف حاجتك واما في تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك
فيها في الرضى بالباطن وحال لا يشك في الكراهية ويعلم ذلك بقرينة الاحوال فالاخذ في الحالة الاولى حلال
طلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين احوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب
فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه وادراك ذلك بقراين الاحوال سهل على قوي فطنته وضعف حرصه
وشهوته فان قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقراين الدالة على الكراهة
وبهذه الدقايق يطلع على سر قول النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال ان اطيب ما اكل الرجل من كسبه وقد
اوتي والله جوامع الكلم لان من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب ابيه او احد قرابته اكل من ايدي الناس وان
اعطي بغير سوال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما ياخذه حراما
وان اعطي بسؤال فاين من يطيب قلبه بالعطاء اذا سيل واين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة فاذا فتشت
احوال من ياكل من ايدي الناس علمت ان جميع ما ياكله او اكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذي اكتسبته
انت او مورثك فاذا بعيد ان يجتمع الورع مع الاكل من ايدي الناس فنسال الله عز وجل ان يقطع طمعنا عن
غيره وان يغنينا بحلاله عن حرامه وبسعة جوده بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال اعلم ان قوله صلعم
من يسال عن ظهر غنى فانما يسال جمرا فليستقل منه او ليستكثر صريح في التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره
عسير وليس الينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد في الحديث استغنوا بغنى الله تعالى
قالوا وما هو قال غداء يوم او عشاء ليلة وفي حديث آخر من سال وله خمسون درهما او عدلها من الذهب
فقد سال الحافا وورد في لفظ آخر اربعون درهما ومهما اختلفت التقديرات وصحت الاخبار فينبغي ان يقطع
بورودها على احوال مختلفة فان الحق في نفسه لا يكون الا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم

ذلک لا ینقسم محیط باحوال المحتاجین فنقول قال رسول الله صلی الله علیه وسلم لا حق لابن آدم الا في ثلث طعام یقیم به
صلبه وثوب یواری به عورته وبیت یکنه فما زاد فهو حساب فلنجعل هذه الثلاث اصلا لبیان اجناسها
والنظر في الاجناس والمقادیر والاوقات فاما الاجناس فهي هذه الثلاث ویلحق بهاما في معناها حتی
یلحق بها الکراء للمسافر اذا کان لا یقدر علی المشي وکذلک ما یجری مجراه من المهمات ویلحق بنفقته عیاله وولده
وکل من تحت کفالته واما المقادیر فالثوب یراعی فیه ما یلیق بذوي الدین وهو ثوب واحد قمیص ومندیل
وسراویل ومداس فاما الثاني من کل جنس فهو مستغنی عنه ولیقس علی هذا اثاث البیت جمیعه ولا ینبغی
ان یطلب رقة الثیاب وکون الاواني من النحاس والصفر فیما یکفي فیه الخزف فان ذلک مستغنی عنه فیقتصر من
العدد علی واحد ومن النوع علی اخس اجناسه ما لم یکن في غایة البعد عن العادة واما الطعام فقدره في
الیوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما یقتات ولو کان الشعیر والادام علی الدوام فضله وقطعه بالکلیة
اضرار ففي طلبه في بعض الاحوال رخصة واما المسکن فاقل ما یجزی من حیث المقدار وذلک من غیر زینة
فاما السؤال للزینة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنی واما بالاضافة الی الاوقات فما یحتاج الیه في الحال من
طعام یوم ولیلة وثوب یلبسه وماوی یکنه فلا یشک فیه فاما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات
احدیها ما یحتاج الیه في غد والثانیة ما یحتاج الیه في اربعین یوما او خمسین یوما والثالثة ما یحتاج الیه
في السنة ولنقطع بان من معه ما یکفیه له ولعیاله ان کان له عیال لسنة فسؤاله حرام فان ذلک غایة الغنی
وعلیه ینزل التقدیر بخمسین درهما في الحدیث فان خمسة دنانیر تکفي المنفرد في السنة اذا اقتصد اما المعیل
فربما لا یکفیه ذلک وان کان یحتاج الیه قبل السنة فان کان قادرا علی السؤال ولا یفوته فرصته فلا یحل له
السؤال لانه مستغن في الحال وربما لا یعیش الی الغد فیکون قد سال ما لا یحتاج الیه فیکفیه غداء یوم
وعشاء لیلة وعلیه ینزل الخبر الذي ورد في التقدیر بهذا القدر وان کان یفوته فرصة السؤال ولا یجد من
یعطیه لو اخر فیباح له السؤال لان امل البقاء سنة غیر بعید فهو بتاخیر السؤال خایف ان یبقی مضطرا عاجزا
عن ما یعینه فان کان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعیفا وکان ما لاجله السؤال خارجا من محل
الضرورة لم یخل سؤاله عن کراهة ویکون کراهیته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخی
المدة التي فیها یحتاج الی السؤال وکل ذلک لا یقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بینه
وبین الله تعالی فیستفتي فیه قلبه ویعمل به ان کان سالکا طریق الآخرة وکلما کان نفسه اقوی وثقته
بمجيء الرزق في المستقبل اتم وقناعته بقوت الوقت اظهر فدرجته عند الله عز وجل اعلی فلا یکون خوف
الاستقبال وقد اتاک الله عز وجل قوت یومک لک ولعیالک الا من ضعف الیقین والاصغاء الی تخویف الشیطان

وقد قال الله تعالى فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مومنين وقال الله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء
والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والسؤال من الفحشاء الذي ابيح للضرورة وحال من يسال لحاجة مهمة اخية وان كان
مما يحتاج اليه في السنة اشد من حال من ملك مالا موروثا وادخر لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى
الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل الله عز وجل وهذه الخصلة من امهات
المهلكات **في بيان احوال السائلين** كان بشر رحمة الله عليه الفقراء ثلثة فقير لا يسال فان اعطى
لم ياخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسال وان اعطى اخذ فهذا مع المقربين في جنات النعيم وفقير
يسال عند الفاقة فهذا مع الصادقين من اصحاب اليمين فاذا قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى انه مع الفاقة
يحط المرتبة والدرجة وقال ابرهيم بن ادهم لشقيق بن ابرهيم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت
الفقراء من اصحابك قال تركتهم ان اعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السؤال فقد اثنى
عليهم غاية الثناء فقال ابرهيم هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له شقيق فكيف الفقراء عندك يا ابا اسحق
فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا وان اعطوا آثروا فقبل راسه وقال صدقت يا استاذ فاذا درجات ارباب
الاحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها
واختلاف درجاتها فانه اذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها الى يفاعها ومن اسفل السافلين
الى اعلى عليين وقد خلق الانسان في احسن تقويم ثم رد الى اسفل السافلين ثم امر بان يترقى الى اعلى عليين
ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الترقي قطعا وانما الشك في من عرف ذلك فانه ربما يقدر عليه وارباب
الاحوال قد يغلبهم حالة تقتضي ان يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل
هذه الاعمال بالنيات ولذلك روي ان بعضهم راى ابا الحسين النوري رحمة الله عليه بالربذة ويسال الناس
في بعض المواطن قال فاستعظمت ذلك واستبحته فاتيت الجنيد فاخبرته فقال لا يعظم هذا عليك فان
النوري لم يسال الناس الا ليعطيهم انما يسالهم ليثيبهم من الاجر فيوجرون من حيث لا يضرهم وكانه اشار به
الى قوله صلى الله عليه وسلم يد المعطي هي العليا فقال بعضهم يد المعطي هي يد الاخذ للمال لانه يعطي الثواب
والقدر له لا لما ياخذه ثم قال قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة والقاها على المائة
ثم قال احملها اليه فقلت في نفسه انما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط مجهولا به وهو رجل حكيم
واستحييت ان اساله فذهبت بالصرة الى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة وقال ردها عليه وقل له
انا لا اقبل منك شيا واخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبي فسالته فقال الجنيد رجل حكيم يريد ان ياخذ
الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فاخذت

ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال اخذ ماله ورد مالنا الا الله
المستمعان فانظر الآن صفت قلوبهم واحوالهم وكيف خلصت لله اعمالهم حتى حين يشاهد كل واحد قلب صاحبه
من غير مناطقه باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الاسرار وذلك نتيجة اكل الحلال وخلو القلب عن
حب الدنيا والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة فمن انكر ذلك قبل التجربة طريقه فهو جاهل كمن انكر مثلا
لون الدواء مسهلا قبل شربه ومن انكر بعد ان طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك
لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فاخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا
وان كان في الجهل دون الاول ولكنه خاليا عن حظ وافر من الجهل بل البصير احد رجلين اما رجل سلك
الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة فقد وصل الى عين اليقين واما رجل لم يسلك
الطريق او سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهذا صاحب علم اليقين وان لم يكن واصلا الى عين
اليقين ولعلم اليقين ايضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو
خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى العقول
الضعيفة واتباع الشيطان فنسال الله ان يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا
وما يذكر الا اولوا الالباب **الشطر الثاني من الكتاب في الزهد** وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان
فضيلة الزهد وبيان درجة الزهد واقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والمشرب والملبس والمسكن
وبيان علامة الزهد **بيان حقيقة الزهد** اعلم ان الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات
السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كساير المقامات لان ابواب الايمان كلها كما قال السلف
رحمة الله عليهم اجمعين يرجع الى قول وعمل وعقد وكان القول لظهوره اقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال
الباطن والا فليس القول مرادا لعينه وان لم يكن صادرا عن حال سمي اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب
في الحال يجري مجرى المثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلي طرفيه من العلم والعمل اما
الحال فنعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشي الى ما هو خير منه وكل من عدل عن
الشي الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما رغب عنه لرغبته في غيره
فحاله بالاضافة الى المعدول عنه تسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحبا فاذا يستدعي
حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه ان يكون ايضا مرغوبا فيه
بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا اذ تارك التراب والحجر وما اشبهه لا يسمى
زاهدا وانما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لان التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب

فيه ان يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى يغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقدم على البيع الا والمشتري عنده خير من
المبيع فيكون حاله بالاضافة الي المبيع زهدا فيه وبالاضافة الي العوض عنه رغبة وحبا ولذلك قال الله عز وجل وشروه
بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه بثمن بخس وقد يطلق الشرى بمعنى البيع
ووصف اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا في ان يخلو لهم وجه ابيهم وكان ذلك عندهم احب من يوسف
فباعوه طمعا في العوض فاذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو
ايضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الالحاد
بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان هو للميل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور
الا بالعدول الي شيء هو احب منه والا فترك المحبوب بغير الاحب محال فالذي يرغب عن كل ما سوى الله عز وجل
حتى الفراديس ولا يحب الا الله عز وجل فهو الزاهد المطلق والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل
تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والانهار والفواكه فهو ايضا زاهد ولكنه دون الاول والذي
يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه او يترك التوسع في الاكل ولا يترك التجمل
في الزينة لا يستحق اسم الزهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو
زهد صحيح كما ان التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك
المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد ان يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات
والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وان كان زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن في العادة تخصص هذا
الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبة عن الدنيا عدولا الي الآخرة او عن غير الله عدولا الى الله تعالى
وهي الدرجة العليا وكما يشترط في المرغوب فيه ان يكون خيرا عنده يشترط في المرغوب عنه ان يكون مقدورا عليه فان
ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز
اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها اما انا ففيما ذا زهدت واما العلم الذي هو المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك
حقيرا بالاضافة الي الماخوذ كعلم التاجر بان العوض خير من المبيع فيرغب فيه وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصور ان
يزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف ان ما عند الله باق وان الآخرة خير وابقى اي لذاتها خير في نفسها وابقى كما
يكون الجواهر خيرا من الثلج ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلي فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج
الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان الى الانقراض والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة
بالتفاوت بين الدنيا والآخرة يقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى ان قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله
ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ثم بين ان صفقتهم رابحة فقال فاستبشروا ببيعكم الذي

بايمتم به فليس يحتاج من العلم في الزهد الا الى هذا القدر وهو ان الآخرة خير وابقى وقد يعلم ذلك من لا
على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان واما
لاغترار بمواعيد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم الى ان يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الموت والى
تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله تعالى
قل متاع وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا فنبه على ان العلم بنفاسة الجوهر من المرغب
عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن محبوب في احب منه قال رجل في دعائه اللهم ارني الدنيا
كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل ارني الدنيا كما اريتها الصالحين من عبادك وهذا
لان الله تعالى يراها ولكن قل ارني الدنيا كما اريتها الصالحين من عبادك وهذا لان الله تعالى يراها حقيرة
كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة الى ما هو
خير له ولا يتصور ان يرى بايع الفرس وان رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الارض مثلا لانه مستغنى عن الحشرات
وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه فيرى الكل في درجة واحدة بالاضافة الى جلاله
ويراه متفاوتا بالاضافة الى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره واما العمل الصادر
عن حال الزهد فهو ترك واخذ لانه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو ادنى فكما ان العمل
الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجه من اليد واخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية
وهي الدنيا باسرها مع اسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج
من اليد والعين ما اخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وساير الجوارح وظايف الطاعات والا كان
كمن سلم المبيع ولم ياخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين في الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به فان
الذي بايعه بهذا البيع وفي بالعهد فمن اسلم حاضرا في غايب وسلم الحاضر واخذ يسعى في طلب الغايب
سلم اليه الغايب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما
دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده اصلا ولذلك لم يصف الله عز وجل اخوة يوسف بالزهد في ابن يامين وان كانوا
قد قالوا ليوسف احب الى ابينا منا وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه احدهم فترك
ولا وصفهم بالزهد ايضا في يوسف عند العزم على اخراجه بل عند التسليم والبيع وعلامة الرغبة الامساك
وعلامة الزهد الاخراج فان اخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فانت زاهد فيما اخرجت فقط ولست
زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لان ما لا يقدر عليه لا يقدر على
تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك انه وان اتاك فانت زاهد فيه ولا ينبغي ان تتدلى بحبل

عن ورد دون ان تستظهر بمواثيق غليظة من الله فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك
عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت له اسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق
وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فاياك ان تثق بوعدها في المباحات ومن الموثق الغليظ ان
تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فاذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا
وباطنا فلا باس ان تثق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها ايضا على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة
الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا امان منها الا عند الترك بالاضافة الى ما تركت فقط وذلك عند القدرة
قال ابن ابي ليلى لابن شبرمة الا ترى الى هذا ابن الحائك لا نفتي في مسألة الا رد علينا يعني ابا حنيفة فقال ابن
شبرمة لا ادري اهو ابن الحائك ام ما هو لكن اعلم ان الدنيا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها ولذلك قال
جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نحب ربنا ولو علمنا في اي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تع
ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم قال ابن مسعود رضي الله عنه قال لي
رسول الله صلى الله عليه وسلم انت منهم يعني من القليل قال وما عرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تع منكم من
يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة واعلم بانه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل
الاجمال استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات
وانما الزهد ان تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة فاما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن
لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا اذ حسن الذكر وميل
القلوب من حظوظ العاجلة وهي الذ واهنأ من المال وكما ان ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس
من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما في حفظ المال من
المشقة والعناء والحاجة الى التذلل للسلاطين والاغنياء ليس من الزهد اصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس
بل الزهد ان تترك الدنيا وهي راغمة عنك صفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا
فوات حظ فتركها خوفا من ان يانس بها فيكون آنسا بغير الله عز وجل ومحبا لما سوى الله عز وجل ويكون مشركا
في حب الله عز وجل غيره او تركها طمعا في ثواب الآخرة فترك التمتع باشربة الدنيا طمعا في اشربة الجنة وترك
التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج بالبساتين طمعا في بساتين الجنة واشجارها
وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من ان
يقال له اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فاثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا
صفوا لعلمه بان ما في الآخرة خير وابقى وما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة اصلا ٥

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت
لنا مثل ما اوتي قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا فنسب
الزهد الي العلماء ووصف اهله بالعلم وهو غاية الثناء وقد قال تعالى اوليك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا
جاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قد
معناه ايهم ازهد في الدنيا فوصف الزهد بانه من احسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الآخرة الي قوله من
نصيب وقال تعالى ولا تمدن عينيك الي قوله ورزق ربك خير وابقى وقال الله الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة
وصف الكفار بذلك فمفهومه ان المؤمن هو الذي وصف بنقيضه وهو ان يستحب الآخرة على الدنيا واما الاخبار فما ورد
منها في ذم الدنيا كثير وقد اوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات اذ حب الدنيا من المهلكات ونحن
الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو المعني بالزهد وقال صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه الدنيا
شتت الله عز وجل عليه امره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم ياته من الدنيا الا ما كتب له ومن اصبح
وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا وهي راغمة وقال صلى الله عليه وسلم
اذا رايتم العبد قد اعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقي الحكمة وقد قال الله تعالى ومن يوت الحكمة
فقد اوتي خيرا كثيرا وكذلك قيل من زهد في الدنيا اربعين يوما اجرى الله عز وجل ينابيع الحكمة في قلبه وانطلق
بها لسانه وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم انه قال قلنا يا رسول الله اي الناس خير قال كل مخموم القلب صدوق اللسان
قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قيل يا رسول الله فمن على
اثره قال الذي يشنا الدنيا ويحب الآخرة ومفهوم هذا ان شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان اردت
ان يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة الله فمن احبه الله تعالى فهو في اعلى الدرجات فينبغي ان يكون
الزهد من افضل المقامات ومفهومه ايضا ان محب الدنيا متعرض لبغض الله عز وجل وفي خبر من طريق اهل
البيت انه قال الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء اقاما فيه
والا ارتحلا ولما قال حارثة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا مؤمن حقا قال وما حقيقة ايمانك قال
عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكاني بالجنة والنار وكاني بعرش ربي بارزا وقال صلى الله عليه وسلم
عرفت فالزم عبد نور الله عز وجل قلبه فانظر كيف بدا اظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه
باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال عبد نور الله تعالى قلبه بالايمان ولما سئل رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قيل ما هذا الشرح قال ان النور اذا
دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة